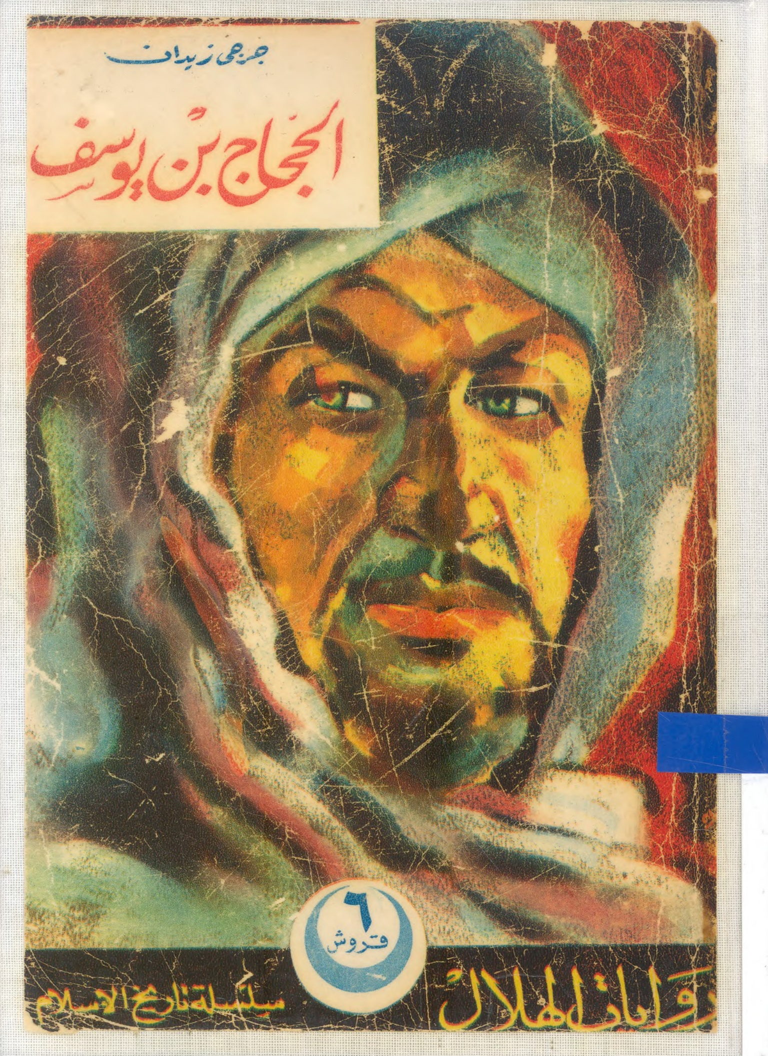

جرجي زيدان
الحجاج بن يوسف
٦
قروش
روايات الهلال
سلسلة تاريخ الاسلام

روايات الهلال

صاحباها ورئيسا تحريرها : اميل زيدان وشكرى زيدان

مدير التحرير : طاهر الطناحى

العدد ٨ * أغسطس ١٩٤٩ * شوال ١٣٦٨

بيانات ادارية

ثمن العدد فى مصر والسودان ٦٠ مليما ــ فى الاقطار العربية عن الكميات المرسلة بالطائرة : فى سوريا ٨٠ قرشا سوريا ــ فى لبنان ٨٠ قرشا لبنانيا ــ فى فلسطين ٧٥ ملا ــ فى شرق الاردن ٨٥ ملا ــ فى العراق ٩٠ فلسا

قيمة الاشتراك عن سنة (١٢ عددا) : فى القطر المصرى والسودان ٦٠ قرشا ــ فى سوريا ولبنان ٨٠٠ قرش سورى او لبنانى ــ فى فلسطين وشرق الاردن ٨٠٠ مل ــ فى العراق ٨٠٠ فلس ــ فى المملكة العربية السعودية ٨٠ قرشا صاغا أو ١٧ شلنا ــ فى الولايات المتحدة وكندا وكرلومبيا والمكسيك والارجنتين ٦ دولارات ــ فى سائر انحاء العالم ١٠٠ قرش صاغ أو ٦ / ٢٠ شلنا

طريقة الدفع

فى مصر والسودان : نقدا او بموجب اذونات او حوالات بريدية أو شيكات ــ فى خارج القطر المصرى : بموجب حوالة مصر فية على أحد بنوك القاهرة او حوالة نقدية (Money Order) او الى احد وكلائنا اذا كان هناك وكيل . ولا يمكن قبول اذونات البريد أو العملة الاجنبية

مركز الادارة : دار الهلال ١٦ شارع المبتديان ــ القاهرة

المكاتبات : روايات الهلال ــ بوستة مصر العمومية ــ مصر
التليفون : ٤٦٠٦٤ (ثمانية خطوط)
الاعلانات : يخاطب بشأنها قسم الاعلانات بدار الهلال

كلمة التحرير

هذه هي الرواية الثامنة من روايات الهلال ، وانه ليسرنا أن نرى ثمار هــذه الروايات قد أخذت فى النضج بين القراء ، ففى كل شهر ينمو شوقهم الى مطالعة التاريخ الاسلامى وما فيه من دروس وعبر ، حتى ان الـكثيرين من القراء والمشتركين الجدد يطالبوننا بما فاتهم من أعدادها السالفة ، وباعادة طبعها مرة أخرى بل ان البعض بعث يشترك فى روايات الهــلال للعــام الحــالى ، والعام القادم

ورواية « الحجاج بن يوسف» حلقة جديدة من سلسلة تاريخ الاسلام وحوادثه الكبرى . وهى مأســاة من مآسى التاريخ . . وأى مأساة أكبر من رمى الكعبة بالحجارة ، وهى أعظم حرم اسلامى مقدس ، جعله الله مثابة للنــاس وأمنا ، واتخذه الحجاج هدفا للسهام والنبال ، وميدانا للمذابح والقتال . فحاصر مكة زمنا ، وقتل عبد الله بن الزبير وأنصاره بالمسجد الحرام ليستتب الملك لبنى أمية ، ولتخلص الخلافة لعبد الملك بن مروان

وفى هذه الرواية وصف دقيق للنواحى السياسية والاجتماعية فى ذلك العصر ، بل فيها وصف للناحيــة الادبيــة أيضا ، فهى تاريخ واجتماع وسياسة وأدب . فلا تقتصر على طمع بنى أمية فى الملك ، ولا على قسوة الحجاج ، بل تتنــاول أدب سكينة بنت الحسين، وحب ليلى الاخيلية ، وكثير عزة ، وأدب الفرزدق وجرير

أما الرواية القادمة فهى «شارل وعبد الرحمن» . وهى تحوى أحداثا غراميــة مشوقة الى جانب ما فيهــا من أحداث كبرى كفتوح العرب فى فرنســا الى ضفاف نهر لوار بجوار تورس ، وما جرى بين شارل مارتل وعبد الرحمن الغــافقى . ثم ما كان من تضامن الافرنج والاسباب التى أدت الى فشــل العرب بعد ما كادوا أن يفتحوا أوربا فى ذلك الزمان

الحجاج بن يوسف

تتضمن حصار مكة على عهد عبد الله بن الزبير الى فتحها ومقتله وخلوص الخلافة لعبد الملك بن مروان . مع ما يتخلل ذلك من وصف مكة والمدينة

لمؤسس الهلال

جرجي زيدان

١٨٦١ ــ ١٩١٤

دار الهلال بمصر

أبطال الرواية

✡ **عبد الله بن الزبير**	: ابن الزبير بن العوام
✡ **عبد الملك بن مروان**	: احد ملوك بنى أمية
✡ **الحجاج بن يوسف الثقفى**	: عامل عبد الملك على العراق
✡ **سكينة بنت الحسين**	: بنت الحسين بن على
✡ **ليلى الاخيلية**	: الشاعرة المشهورة
✡ **عزة الميلاء**	: زعيمة الغناء بالمدينة
✡ **سمية بنت عرفجة الثقفى**	: من فتيات المدينة
✡ **حسن خطيب سمية**	: من أهل العراق
✡ **محمد بن الحنفية**	: أخو الحسين بن على
✡ **عبد الله بن صفوان**	: من أتباع ابن الزبير

مراجع هذه الرواية

هذه المراجع هى التى اعتمد عليها المؤلف فى تأليف الرواية ووقائعها التاريخية

✡ صفوة الاعتبار ✡ المستطرف
✡ مراصد الاطلاع ✡ الدر المنثور
✡ الأغانى لأبى الفرج الاصفهانى ✡ مشكاة المصابيح
✡ التقويم العام ✡ البخارى
✡ البيان والتبيين ✡ مقدمة ابن خلدون
✡ تاريخ : ابن هشام — ابن الأثير — الدميرى — ابن خلكان — الفخرى ✡ أسد الغابة ✡ العقد الفريد

فذلكة تاريخية

انتهينا فى رواية « غادة كربلاء » الى مقتل الحسين بن على وأهله فى كربلاء بجوار الكوفة ، وما تلا ذلك من وفاة يزيد بن معاوية سنة ٦٤ هـ . وكان عبد الله بن الزبير ما زال فى مكة يدعو الى بيعته وقد خلا له الجو بعد موت الحسين . وكان يزيد قد بعث لقتاله جندا بقيادة الحصين بن نمير ، فحاصروه بمكة ، ثم جاء الخبر بوفاة يزيد وهم فى الحصار . ولم يكن من ابناء يزيد من يصلح للخلافة ، فرأى الحصين ان الامر لا يستتب الا بمبايعة عبد الله بن الزبير . فطلب اليه أن يحقن الدماء ويقدم معه الى الشام ليبايعه فأبى عبد الله . فارتحل الحصين الى الشام بمن معه ودانت الحجاز لابن الزبير

اما أهل الشام فبايعوا بعد موت يزيد ابنه معاوية (الثانى) . ولكن هذا لم يعش الا أياما ، فاختلفوا فيمن يبايعون بعده . وكان من أمراء بنى أمية وقتئذ مروان بن الحكم ، وقد تولى أمارة المدينة فى عهد يزيد، فلما علم بموته عاد الى الشام ، فبايعوه . وكان شيخا طاعنا فى السن ، فتزوج أم خالد بن يزيد ليصغر نفس خالد عن طلب الخلافة . ويكتسب حزبه . ولكنه لم يحكم الا تسعة أشهر وبضعة عشر يوما ، اذ خنقته امرأته هذه سنة ٦٥ هـ . فولوا مكانه ابنه عبد الملك بن مروان . وفى أيام هذا الخليفة زهت دولة بنى أمية وتأيد سلطانها

وأما أهل الكوفة فانهم بعد مقتل الحسين ندموا على تخليهم عنه وقاموا يطالبون ابن زياد وأصحابه بدمه وسموا أنفسهم التوابين

وفى سنة ٦٦ هـ . ظهر فى الكوفة رجل اسمه المختار بن أبى عبيد ، قام يطالب بدم الحسين ويدعو الناس الى بيعة ابن الزبير ، فحارب الامويين وقتل قتلة الحسين وفيهم عبيدالله بن زياد وشمر بن ذى الجوشن وخولى الاصبحى وعمر بن سعد وغيرهم . على انه ما لبث أن غير

دعوته ، فأخذ يدعو الى بيعة محمد بن الحنفية أخى الحسين لأبيه ، وزعم أن جبريل يظهر له ، واتخذ كرسيا قال ان فيه سرا مثـــل سر تابوت العهد عند اليهود .

فلمـــا استفحل أمر المختار فى الـكوفة ودان له العراق ، أصبحت الخلافة يتنازعها ثلاثة : عبد الملك فى الشام ومصر ، والمختار فى العراق والكوفة ، وعبد الله بن الزبير فى الحجاز . وغضب عبـــد الله على المختار لنقضه بيعته فبعث لقتاله جندا بقيادة أخيه مصعب بن الزبير ، فقتلوه ودانت العراق لعبد الله ، ولم يبق لبنى أمية غير الشام ومصر

ولكن عبد الملك بن مروان ما لبث أن حمل على مصعب فى العراق بجند كثيف فقتله سنة ٧١ هـ . واسترجع العراق . وبعث جندا الى الحجاز ففتح المدينة ، ثم أرسل الحجاج بن يوسف الثقفى فى جنـــد لفتح مكة وفيها عبد الله بن الزبير ، فحاصرها وطلب الى عبد الله أن يسلم فأبى . فدخلت سنة ٧٣ وابن الزبير محصور فى مكة وقد قل زاده وفارقه رجاله

ومن هنا تبدأ حوادث هذه الرواية



عزة الميلاء وليلى الأخيلية

المدينة أو « يثرب » هي مدينة الرسول وفيها قبره ومسجده . وكان يحيط بها سور وخندق ، وهي واقعة في منبسط من الارض تكتنفها الآجام والغياض ، وتتخلل أبنيتها البساتين والحدائق وأكثر مغارسها من النخل . وقد عمرت في صدر الاسلام ، حتى كانت أيام يزيد بن معاوية فهاجر منها كثير من أهلها لكثرة الفتن والحروب في أيامه ، ولكنها ما زالت آهلة بالناس ، وفيها أهل البيت

وكان من اهل المدينة في أواسط القرن الاول للهجرة مغنية يقال لها « عزة الميلاء » . وكانت مولاة للأنصار، وهي أقدم من غنى الغناء الموقع من النساء في الحجاز . وقد سميت «الميلاء» لتمايلها في مشيتها لفرط سمنها . وكان العود حديث العهد عند العرب فأجادت العزف عليه ، عدا ما كانت تحسنه من العزف بالمزاهر وبقية آلات الطرب ، وكانت جميلة الوجه ظريفة اللسان كريمة الخلق سخية النفس لايقدم قادم الى المدينة الا التمس أن يراها ويسمع غناءها

وكان العرب يومئذ لايعدون الغناء من الصنائع اللائقة بأهل الشرف، على أن عزة كانت مع ذلك ذات دين حسن وهيبة ووقار ، اذا جلست للغناء في حفل عام ، أنصت لها الحاضرون وكأن الطير على رؤوسهم

وكانت دارها في أقصى شمال المدينة مما يلي طريق الشام ، يحيط بها بستان من النخيل تتخلله أشجار الفاكهة من البرتقال والتفاح ، وعليه سور قليل الارتفاع له باب بمصراع واحد في وسطه خوخة . وفي بعض جوانب البستان حظيرة مبنية من سعف النخل توضع فيها الدواب . وللدار باحة كبيرة في كل من جانبيها غرفتان ، وفي الصدر قاعة واسعة تجلس فيها عزة لمقابلة الزوار ، وفي باحة الدار نخلات متقاربة تظلل الباحة في أثناء النهار

ففي يوم من أيام ربيع الآخر سنة ٧٣ للهجرة (وهو يوافق شهر اغسطس سنة ٦٩٣ م) قضت عزة الميلاء نهارها في بيتها . وكان يوما شديد الحر ، والحر ثقيل هناك للرطوبة المتكاثفة مما يتصاعد من أبخرة المستنقعات والاشجار . فلما دنت الشمس من الغروب دخلت الى

مخدعها فأخرجت قارورة من الطيب فتطيبت ، وبدلت ثيابها فالتحفت ملاءة معصفرة لونها أصفر زاه ، وكشفت النقاب عن رأسها لشدة الحر مع خلو المكان من الرجال ، وأرادت أن تتناول عشاءها على سطح البيت تحت قبة السماء

وكانت يومئذ فى نحو الخمسين من عمرها وقد تزايد سمنها وذهبت استدارة وجهها وارتخى خداها واستطالا الى أسفل الذقن ، وثقل بدنها حتى لم يكن فى المدينة دابة تحملها . وكانت قلما تنتقل من بيتها والناس يفدون عليها لسماع غنائها أو ضرب عودها ويحملون اليها الاموال والهدايا من الحلى والجواهر ، حتى ملأت معصميها بالاساور والدمالج وطوقت عنقها بالعقود ، وضفرت شعرها بسلاسل الذهب والدنانير ، وعلقت فى أذنيها قرطين كبيرين يتناسبان مع حجم أذنيها لأنها كانت كبيرتهما مع تناسب التكاسير . وكذلك آذان أهل الغناء والموسيقى فى الغالب

وكان الرجل من أهل الوجاهة اذا اراد التزوج بفتاة لايعرفها استشار عزة ووسطها فى خطبتها أو استطلاع مدى جمالها وصحتها

وكانت عزة قد قضت ذلك اليوم ولم تعمل عملا لشدة الحر ، وعندها فتاة من نزالة المدينة اسمها «سمية» كانت تحبها وتأنس بها . وكانت الفتاة ترتاح الى عزة وتكاشفها بسرها وتستشيرها فى أمرها ، وقد جاءتها يومئذ وعليها ثوب احمر يكسوها كلها . وكانت معتدلة القامة صحيحة الجسم اذا نظرت الى تقاطيع وجهها أفرادا لاترى جمالا باهرا ، ولكن فى عينيها مايدل على الذكاء والحب ، وحول ثغرها ابتسامة تأخذ بالعقول ، حتى كانت وهى فى أشد اضطرابها قلما تبدو الكآبة فى وجهها ، وربما زاد ذلك فى هيبتها . وفى ذقنها اندفاع قليل الى الامام مع بروز ، وهو دليل الانعطاف ، وفى أنفها ذلف قليل يزيدها مهابة . وكانت فى نحو الثالثة والعشرين من عمرها

فلما أرادت عزة الصعود الى السطح أمرت جارية لها أن تفرشه بالأبسطة وتعد عليه المائدة ، وأمسكت ضيفتها بيدها و قالت لها مداعبة : « هلم بنا الى السطح ياسمية واتركى الهموم جانبا ، وتعالى لأريك يثرب وضواحيها من سطح بيتى فانها من أجمل مايكون ، ولا تعجلى فى العودة الى بيتكم فما أظن أباك قد عاد اليه بعد »

فمشت الفتاة وراءها وقد ارتاحت لقولها وارادت نسيان ما يجول فى خاطرها من دواعى الهموم ، وصعدتا على سلم من خشب كان يهتز تحت قدمى عزة ، حتى وصلتا الى السطح وقد انتهت الجارية من اعداد المائدة . فجلست عزة وأجلست سمية الى جانبها ، ولاحظت انها

مازالت مضطربة البال فأرادت ان تصرف ذهنها الى شيء آخر فلم تر خيرا من أن توجه التفاتها الى ما يحيط بالمدينة من بساتين النخيل وما بينها من برك الماء والمستنقعات فقالت لها : « تأملي يا بنية في هذه البساتين الواسعة وراء سور المدينة فان نظرك لايقف في آخرها الا على التلال البعيدة ، ولاسيما هذا الجبل ، وهو جبل أحد الذي جرت فيه الوقعة الشهيرة بين النبي (صلعم) وقريش. وذكر هذه الوقعة يؤلمني لأن الغلبة فيها كانت للقرشيين وقتل من المسلمين سبعون رجلا وأصيب النبي بجراح وقتل عمه حمزة »

فقالت سمية : « وهل شهدت تلك الوقعة ؟ »

قالت : « كلا ، فقد حدثت منذ سبعين سنة فكيف أشهدها ؟ » . ثم عادت الى اتمام كلامها عن تلك المناظر فقالت : « واني ليعجبني مناظر المياه حوالي غروب الشمس ، أنظري الى هذه البحيرة فان ماءها ساكن كأنه صفحة من الفضة اللامعة ، وظلال النخيل تتراءى على شواطئها مقلوبة كأنها مردة من الجان غائصون في الماء »

وكانت الشمس لما دنت من المغيب قد أرسلت أشعتها منحرفة على تلك المغارس فاستطالت ظلال النخيل ومازالت تستطيل وتضعف حتى اختلطت بالظلام

واما سمية فكانت تساير عزة فيما تقول وبصرها شائع في تلك البحيرة بالرغم عنها والبصر اذا أطلق سراحه يطلب النور . وكان سطح البحيرة بعد أن غابت الشمس مازال يلمع بفعل انعكاس الشفق عليه ، وظلال النخيل فيه واضحة عليه وضوح الخطوط السود على الصفحة البيضاء . وبعد قليل لم يعد يظهر للرائي غير سطوح المياه وما يبدو فيها من ظلال الاشجار

□

اشتغلت عزة وسمية عن الطعام والكلام بالتأمل في ذلك المنظر البديع ثم همت عزة بالطعام ودعت سمية الى مشاركتها فيه ، وجعلت تقطع من لحم الدجاج وتناولها فتأكل وعيناها شاخصتان الى تلك المناظر ، ثم عادت عزة الى محادثتها فقالت لها : « مالي أراك صامتة ياسمية ، هل تفكرين في تأخر عودتك وتخافين أن ينقم عليك أبوك لهذا ؟. انه اذا علم أنك عند عزة فلن يلومك »

وتوقعت عزة أن تسمع من سمية جوابا ، ولكنها رأتها تحدق النظر في تلك البحيرة ، وآنست في وجهها بغتة وقد توقفت عن المضغ واللقمة لاتزال في فمها ، وقطبت حاجبيها وحددت بصرها ، فأعادت عزة سؤالها ،

فأجابتها سمية وهى تشير بيدها الى البحيرة : « كأنى أرى النخيل تنتقل فى الماء .. ماهذا .. ؟ ماذا أرى ؟ »

فالتفتت عزة الى جهة البحيرة فرأت ظلالا تتحرك فى الماء بين ظلال النخيل ، ولكنها لم تر الأشباح على الجرف لأن الظلام حجبها بينما انعكاس الشفق على سطح الماء أبداها فقالت : « انك ترين ظل شبح سائر بجانب البحيرة » . وتفرست عزة قليلا ثم قالت : « ان الذى نراه ظل شبحين أظنهما فارسين مارين بين النخيل على حافة الجرف ، لا بل هما جملان وعليهما رجلان . أليس كذلك ؟ »

قالت سمية : « بلى ، هما جملان . ويخيل الى أنهما ماشيان على سطح الماء ! »

فضحكت عزة وقالت : « انك ترين ظليهما يا بنية ، وأرى الآن شبحا ثالثا أظنه جملا ثالثا » . ولم يمض قليل حتى توارت الأشباح فقالت عزة : « لا تقلقى ، ليس ما ترين الا أناسا أظنهم قادمين الى المدينة من دمشق ، وما هذه أول مرة رأيت مثل هذا المنظر ، فعودى الى طعامك فقد برد الهواء وانفثأت حمأة القيظ ، ومتى فرغنا من الطعام أسمعك صوتا تلقنته عن أستاذتى رائقة »

فعادتا الى الأكل وهما لا تتكلمان ، ولم تكادا تفرغان من الطعام حتى تكاثف الظلام واحتاجتا الى الضوء . فصفقت عزة فجاء رجل فى نحو الستين من عمره ما زالت آثار الجمال بادية فيه ، وهو نظيف الثوب حسن الهندام . فلما رأته سمية غطت وجهها ، فضحكت عزة وقالت : « أتحتجبين من مخنث ؟ » . ولم تكن سمية قد عرفته فى الظلام

وكان فى المدينة جماعة كبيرة من هؤلاء المخنثين ، يخالطون النساء ، وأكثرهم يحبون الغناء ويحسنونه . وكان من أراد خطبة امرأة سأل عنها أحد المخنثين فيصفها له ، ثم يتوسط بينه وبينها حتى يتزوجها . وكان أكثر هؤلاء المخنثين يترددون على عزة ويتقربون اليها ليستفيدوا منها تعلم الأصوات

فلما وقف ذلك المخنث بين يديها قالت : « ما جاء بك يا طويس ؟ »

فلما سمعت سمية اسم طويس قالت : « أطويس هذا ؟ »

قالت : « هو بعينه ، ولا تعجبى من أنه جاء على غير موعد فان ذلك دأبه معنا » . ثم التفتت اليه وقالت : « يا طويس قل للجارية تضىء لنا الشموع فاننا سننزل بعد قليل »

قال : « أفعل ذلك بشرط »

قالت : « وما هو ؟ »

قال : « تغنين لى شعرا على الهزج »

قالت : « أتطلب أن أغنى لك الهزج وأنت أهزج الناس ؟ ألا سألتنى أن أغنى من الثقيل أو الرمل ؟ »

قال : « لا أبالى أى صوت وانما أقترح عليك شعرا تغنينه »

قالت « أفعل ان شاء الله ، ولكنى أخاف من وجهك فانه مشئوم »

قال : « وأكثر من مشـــئوم ، فان أمى ولدتنى ليلة قبض النبى (صلعم) . وفطمت ليلة مات أبو بكر ، وبلغت الحلم ليلة قتل عمر ، وزففت الى أهلى ليلة قتل عثمان ، وولد لى يوم قتل على ! »

فضحكت عزة لخفة روحه وقالت له : «أرجو ألا يكمل شؤمك علينا الليلة ، فامض أعزك الله وافعل ما قلته لك »

□

نزل طويس ، وبعد قليل نزلت عزة وسمية ودخلتا القاعة المعدة لاستقبال الأضياف . وجلست عزة على مقعد ، والارض مفروشة بالطنافس وحولها الوسائد وقد أوقدت فيها الشموع . وجلست سمية بجانبها وعادت الى هواجسها . وأما طويس فانه تناول دفا مربعا كان معلقا على الحائط بين طائفة من الأعواد والمزاهر والدفوف ، ورماه فى حجر عزة

فقالت : « ويلك ! ماذا تريد ؟ »

قال : « بأبى أنت وأمى . أريد أن أسمع غناءك »

قالت « تمهل يا طويس ريثما أستريح »

وفيما هى تكلمه سمعت هدير الجمال بقرب باب البستان فقالت : « أنظر يا طويس من جاءنا الليلة .. انى أخشى أن يكون شؤمك قد وصل الينا »

قالت سمية : « وأى شؤم تخافين ونحن فى أمان ؟ ! »

قالت وقد خفضت صوتها : « ما أظننا فى آمان وأميرنا اليوم يأكل المخ ويأكل فوقه التمر على منبر رسول الله (صلعم). اذهب يا طويس وانظر من القادم »

فهرول طويس الى نعليه ولبسهما ، ومشى وهو يتظاهر بالمجون فى مشيته حتى قطع البستان وانتهى الى باب الدار وفتح خوخة الباب وأطل منها ، فرأى جملين بجانبهما رجلان : أحدهما قد تلثم بالكوفية

والتف بالعباءة ، والآخر قصير غير ملثم يشبه أن يكون خادما . فقال لهما : « من أنتما وماذا تريدان ؟ »

فأجابه الطويل بصوت كأنه هدير الجمل وقال : « أليس هذا بيت عزة الميلاء ؟ »

قال : « بلى وماذا تريد منها ؟

قال : « أريد الدخول اليها »

قال : « ومن أنت ؟ ألا انتسبت ؟ »

قال : « لا أنتسب »

قال : « أتريد الدخول وأنت ملثم كما أرى ؟ ! »

قال : « نعم »

قال : « دعنى أستأذن لك » . وعاد طويس الى عزة وأخبرها بما رآه . فلما سمعت سمية قوله تحفزت للقيام وقالت لعزة : « دعيني انصرف الى أبى فقد طال مكثي عندك اليوم ، ولا سيما انى أرى رجالا قادمين اليك ولا يليق بى البقاء معهم »

قالت : « لك الخيار يا بنية ، ولكن اذا انصرفت فلا تطيلى الغياب ، وليكن خروجك من الباب الخلفى للدار ، وذهابك من الطريق القريب الذى تعرفينه » . فودعتها وانصرفت ، وجعل طويس يشيعها ببصره حتى توارت عنه ، ثم التفت الى عزة وأشار بضم أنامله وزم شفتيه الى أنها جيلة . فأومأت اليه أن يصمت ثم قالت : « أخرج الى الطارق واطلب اليه أن يريك وجهه أو يذكر لك اسمه »

فذهب طويس وبعد غياب طويل عاد وهو يقول لعزة : « ان صاحبنا من أهل البادية ويهوى الغناء ، وقد جاء لسماع عزة الميلاء ، وقد سألته عن اسمه فأبى أن يخبرنى به ، ولما ألححت عليه قال انه لا يقول اسمه ولكنه أنشدنى هذين البيتين :

وذى حاجة قلنا له لا تبح بها فليس اليهـا ما حييت سبيل

لنا صاحب لاينبغى أن نخونه وأنت لأخرى صاحب وخليل

« وطلب أن أخبرك أنه قائلهما »

فلما سمعت عزة قول طويس بغتت وتبسمت ، ولولا ثقل بدنها لوثبت الى الباب لاستقبال ذلك الضيف . فقال لها طويس : « ما بغتك يا عزة ؟ »

قالت : « ألا تعرف قائل هذا الشعر ؟ »

قال : « كلا . . . ومن هو ؟ »

قالت : « لو أنى سمعت لفظ قائله لعرفته ولو كان فى غير هـذا الشعر . ألم تر أنه يلفظ حرف المضارعة مكسورا مثل أهل بهرا ؟ »

قال : « أظننى لحظت ذلك فيه ، ولكن ماذا فى هذا ؟ »

قالت : « ويلك ! هذه ليلى الأخيلية الشاعرة وهذا الشعر شعرها وهى تكسر حرف المضارعة فى لفظها أيضا »

قال طويس : « اذا كانت هذه هى ليلى فقد تم حظنا ، لأنى أسمع بشعرها وحديثها مع توبة الذى كان يهواها ، فهل أدعوها ؟ »

قالت : « كيف لا وهى صديقتى ويندر أن تنزل الى المدن الا لحاجة ماسة لأنها تقطن البادية »

فأسرع طويس مهرولا حتى أتى الباب ففتحه ، ورحب بليلى وجعل ينظر الى قامتها ويلاحظ مشيتها وهى ملتفة بالعباءة وطولها يندر فى النساء . ولكنه لم يتمكن من رؤية وجهها لأنها كانت ما زالت ملثمة فدخلت البستان وأشارت الى خادمها أن يدخل الجملين الى الحظيرة ومشت تخطر فى مشيتها وطويس يمشى وراءها ويتأمل قامتها وحسن مشيتها واللثام محيط برأسها ووجهها جميعا

فلما أقبلت على القاعة نهضت عزة وسارت لاستقبالها عند الباب وهى تقول : « مرحبا بليلى ، أهلا بك يا حبيبة . لقد بالغت فى الاختفاء حتى أسأنا معاملتك واخرناك » . قالت ذلك وتناولت وسادة فوق البساط وثنتها وأجلستها عليها

فقالت ليلى بصوتها الجهورى الذى لا يكاد يشبه أصوات النساء : « لا بأس عليك ، وان لم يكن ذلك ذنبى لأنى كنت أحسبك تعرفيننى من صوتى ولهجة كلامى »

كان طويس واقفا بالبـاب يتشوق لرؤية وجه ليلى ولـكنها بقيت ملثمة لا تلتفت الى طويس كأنهـا تتوقع خروجه لتخلو الى عزة . فأدركت هذه مافى نفسها فقالت : « لاتحتجبى يا ليلى منه ، انه طويس المغنى »

فضحكت ليلى ونظرت الى طويس وأزاحت اللثام وهى تقول : « أهذا هو طويس المشهور بالشؤم ؟ لقد تم سرورنا بلقياه ! »

فلما أزاحت النقاب بان تحته وجه يتدفق مهابة وعينان دعجاوان ، وثغر حسن ، وآثار الصحة بادية فى وجهها من سكنى البر . فدهش طويس من جمالها ، ولما رأى استئناسها به فرح وقال وهو يمشى نحو البساط الذى كانت هى جالسة عليه : « ان سرورى تم بلقياك أيتها الشاعرة البارعة . وقد كنت أعجب لما أسمعه من شغف توبة بك

واشادته فى الأشعار بذكرك وأنت زوجة لسواه . فلما رأيت هذا الوجه علمت السر الذى دعاه الى ذلك »

فلما سمعت ليلى اسم توبة علا وجهها الاحرار وكأنهــا خجلت وطأطأت رأسها حياء ، ثم رفعت بصرها اليه وقالت : « وهل سمعت شيئا من قوله ؟ »

قال : « سمعت كثيرا ، ولكننى أذكر هذه الأبيات فقط :

ولوْ أن ليــلى الأخيليــة سلمت على ودونى جنــدل وصفــائح
لسلمت تسليم البشاشة ، أو رقا اليها صدى من جانب القبر صائح
وأغبــط من ليــلى بمــا لا أناله ألا كل ما قرت به العــين صــالح

ولم يتم كلامه حتى اصفر وجه ليلى . وأدركت عزة ذلك فيهــا فأحبت الترفيه عنها فدعتها الى الطعام والغسل ، فشكرتها وذكرت أنها لا تحتاج الى شيء من ذلك ، وانما جاءت لزيارتها ساعة لتسمع حديثها وتطرب بغنائها ثم تنصرف

فقالت عزة : « لعلك قادمة من الشام ؟ »

قالت : « نعم وقد وصلت الى المدينة الساعة ، وكان معى رفيق خليته فى مكان وجئت اليك على أن أعود اليه عاجلا »

فتذكرت عزة الأشباح التى رأتها وسمية على شاطىء تلك البحيرة فقالت : « أظننى رأيت أشباحكم عند الغروب بين النخيل »

قالت : «كنا ثلاثة وصلنا عندالغروبالى ضاحية المدينة على جمالنا»



حكاية ليلى مع توبة

فأيقنت عزة أنها هى التى كانت مع الركب ، وقالت تداعبها : « أتحبين توبة ؟ »

فقالت ليلى : « ماذا تعنين ؟ »

قالت : « أعرف أنك تحبين توبة ، وأسمع أنه شاب جميل شجاع ، وأنه يحبك . فكيف تزوج غيرك وتزوجت أنت غيره ؟ »

فقالت ليلى وقد زاد احمرار وجهها : « دعينا يا عزة من هذا الحديث، وأسمعينا صوتا يروح عن النفس وينسينا تعب الطريق »

فلم تشأ عزة أن تلح عليها ، ولكنها عمدت الى الحيلة فقالت : « صدقت ان الذكرى تؤلم » . ثم التفتت الى طويس وقالت : « هات الدف »

فناولها طويس دفا فنقرت عليه وغنت :

وكنت اذا ما جئت ليلى تبرقعت فقد رابنى منها الغداة سفورها
على دماء البدن ان كان بعلها يرى لى ذنبا غير أنى أزورها

ولم تتم هذين البيتين حتى تململت ليلى وامتقع لونها وقالت : « ما هذا يا عزة ؟ أراك تلحين لتعلمى سبب فراقى توبة »

فضحكت عزة وتجاهلت وهى تقول : « وما لهذا الشعر ولك ؟ هل توبة قاله فيك ؟ »

قالت : « أتتجاهلين ؟ ما دمت مصرة على سماع حديثى مع توبة فسأقصه عليك وان كان ذكره يؤلمنى . اعلمى يا أخية ان عاداتنا نحن معاشر البدو غير عادات الحضر أهل المدن أمثالكم . فان الرجل منكم اذا أحب فتاة تزوجها . وأحسن الزواج ما يكون على حب . وأما نحن فاذا عرف أهل الفتاة أن شابا يحبها وتحبه منعوه منها ، وهذا ما وقع لى مع توبة فانه كان يحبنى ويقول فى الشعر ، فلما خطبنى الى أبى ، رفض أن يزوجنى به ، وزوجنى برجل من بنى الادلع هو زوجى الى الآن ، ولم يكتفوا بذلك ولكنهم أهدروا دم توبة ومكثوا له فى الموضع الذى يلقانى فيه حتى اذا جاءنى هموا بقتله . وكنت اذا جاءنى قبل ذلك تبرقعت واحتجبت منه على عادتنا . ففكرت فى حيلة أحذره بها

غدرهم بحيث لا يشعرون ، فلم أر خيرا من أن أغير عادتى معه فلما جاءنى فى ذلك اليوم خرجت اليه سافرة وجلست فى طريقه . فلما رآنى على تلك الحال فطن لما أردت وركض فرسه فنجا ثم نظم فى ذلك قصيدته التى مطلعها :

نأتك بليــــلى دارها لا تزورها وشطت نواها واستمر مريرها

« ومنها البيتان اللذان غنيتهما . وهى طويلة »

□

وكانت عزة قد سمعت القصة من قبل ، ولـكنها أرادت أن يسمعها طويس . فلمـــا فرغت ليلى من حديثها قالت عزة : « انى لم أكن أجهل حديثك هذا ولا غيره ، ولولا ذلك ما عرفتك من البيتين اللذين بعثت بهما تعرفيننى بنفسك . فبالله ألا ذكرت لى سبب قولك ذينك البيتين فانهما يدلان على أنفة وعفة تندران فى المدن »

قالت : «صدقت ، ان العفة والحب النقى انما يكونان فى أهل البادية ، وبنو عذرة أهل وادى القرى على مقربة من هذه المدينة مشهورون بهما . ولكن ذلك غير مقصور عليهم وان كان غالبا فيهم . وقد قلت أن توبة كان يحبنى وأحبه ولم أسمع منه ما يدعو الى ريبة ، ولكنى اجتمعت به مرة بعد أن تزوجت وتزوج ، فقال لى كلمة ظننت انه قد خضع فيها لبعض الأمر فقلت له :

وذى حاجة قلنـــا له لا تبح بها فليس اليها ما حييت ســـبيل
لنا صاحب لا ينبغى أن نخونه وأنت لأخرى صاحب وخليـــل

« فلم أعد أسمع منه ريبة قط »

فضحك طويس وقهقه حتى كاد يستلقى ثم قال : « ما أشبه هذه العفة بعفة مخنثى المدينة ، والله ان البداوة حلوة ولكنى لا أحبها ! »

فقالت له ليلى : « اذا شاقك ذلك فعليك بوادى القرى انه قريب منكم وفيه بنو عذرة الذين تضرب بعفتهم الأمثال ، وفيهم جميـــل بثينة ، وكثير عزة ، وغيرهما »

فضحكت عزة ، ورأت الرجوع الى الغناء ، فأخذت فيه وهى تنقر الدف ، فطربت ليلى وطرب طويس . ثم استبدلت بالدف عودا عزفت عليه وغنت ألحانا شجية ، وكانت ليلى فى أثناء الغناء تطرق وتستغرق فى التأمل ، كأنها تفكر فى أمر ذى بال ، فلما رأت عزة فرغت من غنائها قالت لها : « لقد أطربتنا يا عزة بغنائك وعندى أمر أحب أن أسره اليك فهل تسمحين بخلوة ؟ »

فلما سمع طويس كلامها خرج مسرعا وأغلق الباب وراءه

واقتربت ليلى من عزة حتى جلست بجانبها وقالت بصوت يقرب أن يكون همسا: « أتعرفين رملة بنت الزبير ؟ »

قالت عزة: « كيف لا أعرفها وهى أخت عبد الله بن الزبير اللائذ بالحرمين وهو محصور فى الكعبة الآن »

قالت: « محصور ؟ ومن حصره ؟ »

قالت عزة: «انه أقام بالحرمين يدعو الناس الى البيعة له منذ توفى معاوية وتولى الخلافة ابنه يزيد سنة ٦٠ هـ . ولم يقو أمره الا بعد مقتل الحسين وموت يزيد ، وهو الآن ينكر الخلافة على عبد الملك ابن مروان خليفة بنى أمية بدمشق »

قالت ليلى: « أعلم ذلك ، وأعلم أيضا أن أهل الحجاز بايعوه ، وأن الامويين ينوون قتاله ورده الى بيعتهم »

قالت: « ألم تسمعى بقدوم الحجاج بن يوسف الثقفى من الحجاز بأمر عبد الملك لقتال عبد الله فى مكة ؟ »

قالت: « أظننى سمعت شيئا من ذلك قبل خروجى من الشام »

قالت عزة: « وقد جاء الحجاج ، ولعلك سمعت بشدة بطشه واستبداده ، وقد حاصر عبد الله بن الزبير فى مكة وضيق عليه ، حتى خرجت المدينة من سلطانه ، وعاملنا الآن من قبل عبد الملك بن مروان»

فأطرقت ليلى وصمتت وكان خاطرا طرأ عليها فأرجعها عما كانت تهم به ، فأدركت عزة ذلك فقالت لها: « مالى أراك صامتة .. ؟ قولى ما فى نفسك »

قالت: « جئت المدينة فى مهمة تتعلق برملة بنت الزبير ، ولكن حال أخيها يحول دون بلوغ الغرض من السؤال . هل هى معه فى مكة ؟ »

قالت: « نعم هى معه هناك ، وأظنهم فى أشد الضيق من الحصار ، وقد قل زادهم ولا ندرى ما يؤول اليه أمرهم »

فتأففت ليلى وتذمرت ثم جعلت تحك ما وراء أذنها وتنظر الى البساط بين يديها كأنها تتفرس فى نقوشه وهى لا تتكلم »

فقالت عزة: « قولى يا أخية ما فى نفسك فقد أقلقت خاطرى بسكوتك ، ما الذى تريدينه من رملة وأخيها ؟ »

قالت: « لا أخفى عليك أن أميرا كبيرا من أكبر أمراء بنى أمية ، انتدبنى للبحث عن رملة واستطلاع أحوالها ، لأنه يريد خطبتها ، فلم

أجد من يصف لى جمالها سواك لأنك عاشرتها وعرفتها فماذا تقولين ؟ »

قالت : « على الخبير وقعت . أما رملة فانها من أحسن النساء خلقا وعقلا ودراية . ولكننى أعجب لاقدام أمير من بنى أمية على خطبتها والحرب قائمة بين الأمويين وأخيها »

فأمسكت ليلى عن الكلام قليلا ثم قالت : « أخشى أن أصرح بالأسماء فأكون قد بحت بسر اؤتمنت عليه »

قالت : « لا تخافى فانى مستودع أسرار أهل المدينة . وانى أعاهدك على كتمان ما تقولينه »

قالت : « ان الأمير الذى يبغى خطبتها أحسن أمراء بنى أمية علما وأدبا وشعرا وفصاحة وعارضة ، وله ولع خاص بعلم الكيمياء وهو ابن خليفة وحفيد خليفة »

فقطعت عزة كلامها قائلة : « قد عرفته ، انه خالد بن يزيد . أليس هو ؟ »

قالت : « هو بعينه فما قولك ؟ »

فأطرقت عزة هنيهة ثم قالت : « قد أدركت سر الأمر ، وعلمت السبب الذى سوغ لخالد خطبة رملة وهى من أعداء بنى أمية وان كان هو أمويا »

قالت : « أما وقد فهمت سر الأمر فاكتميه عن كل أحد . وهذه هدية من خالد بعث بها اليك » . قالت ذلك ومدت يدها الى كمها وأخرجت عقدا من اللؤلؤ دفعته اليها . فتناولته عزة وأثنت على فضلها وقالت : « هل عزمت على خطبة رملة لخالد ، ومن يخطبها له ؟ »

قالت : « ليس لى أن أصرح بأكثر مما قلت »

فقالت عزة : « ما السر عندى الا فى بئر عميقة ، فطيبى نفسا وقرى عينا »

ثم تحفزت ليلى للقيام فأمسكتها عزة ودعتها الى البقاء عندها . فاعتذرت بأن هناك من ينتظرها فى الخارج ، ولا بد لها من موافاته لأمر لا يحسن تأجيله . ثم خرجت ، فمرت على طويس فى البستان فودعته قبل انصرافها

□

كانت ليلى الأخيلية شاعرة بارعة كما تقدم ، وكانت تفد على الملوك والأمراء تمدحهم وتنال منهم الرعاية والجوائز . وكانت قد وفدت

على عبد الملك بن مروان فى ذلك العام فامتدحته ، ثم سارت الى خالد فعهد اليها فى البحث عن رملة واستيصافها من عزة . وبعث معها شابا من خاصته اسمه حسن كان فى جملة من جاء الشام مع عبد الملك ابن مروان عند عودته من العراق بعد مقتل مصعب بن الزبير واخراج العراق من سلطة أخيه

وكان حسن من رجال مصعب الداعين الى بيعة أخيه فى العراق وحارب معه فى قتاله المختار بن عبيد الثقفى فأبلى بلاء حسنا حتى قتل المختار وخلص العراق لمصعب . فلما جاء عبد الملك لحرب مصعب دافع حسن عنه جهده حتى قتل ووقع هو فى أسر عبد الملك ورافقه الى الشام . فلقى هناك خالدا فأحبه هذا وجعله من بطانته . وكان يثق به ويبوح له بما فى نفسه على عبد الملك لأنه تولى الخلافة دونه وهو أحق بها لأنه ابن الخليفة يزيد بن معاوية ، وبين أمه وأم عبد الملك حكاية سيأتى ذكرها

وكان خالد قد سمع برملة بنت الزبير ، وأراد خطبتها . فلما جاءته ليلى سألها عنها فذكرت له أنها لم ترها ، فكلفها أن تستفهم عنها عزة الميلاء فى المدينة ، وكتب الى أخيها عبد الله الزبير يخطبها منه ، وسلم الكتاب الى حسن وأرسله مع ليلى وأوصاه اذا أمرته ليلى بالذهاب الى مكة أن يذهب ويدفع الكتاب الى عبد الله بن الزبير ويبذل جهده فى اقناعه ، وكان حسن يحب خالدا حبا شديدا فعزم على أن يبذل ما فى وسعه لتنفيذ مرامه ، وكان له فى المدينة وطر يحن الى قضائه فأسرع مع ليلى حتى وصلا الى المدينة مساء ذلك اليوم ، فعرج هو الى منزل يمكث فيه ريثما تعود ليلى

أما ليلى فلما عادت من منزل عزة أمرت الخادم أن يذهب بالجمال الى منزل سكينة بنت الحسين، على أن توافيه الى هناك . وسارت لمقابلة حسن فى الملتقى . فلقيته فى انتظارها على مثل الجمر فأخبرته بما دار بينها وبين عزة وأوعزت اليه أن يسافر الى مكة فى المهمة التى جاء من أجلها ودعت له بالتوفيق.



حسن وسمية

ولما خلا حسن الى نفسه ، عاوده ماكان يتقد فى قلبه من الوجد . وكان يحب فتاة عرفها منذ أعوام وأنقذها وأباها من الموت فى انعراق فى أثناء القتال ضد المختار بن عبيد ، وقد تعاهدا على الزواج ، وهو يعلم انها تقيم بالمدينة ولكنه لم يكن يعرف منزلها ، فرأى أن يسأل عزة فى أمرها بوصفها أخبر أهل المدينة بنسائها . فسار توا الى عزة وكانت لاتزال جالسة وقد خرج طويس من عندها

وكان حسن طويل القامة ، حسن الخلقة ، فى وجهه دلائل المروءة وصدق المودة ، وعيناه تتقدان ذكاء وحدة . فلما أقبل على عزة استقبلته باشة . وكانت قد تعودت كثرة الوافدين عليها من سائر البلاد . على انها استغربت قدومه اليها فى آخر الليل

واعتذرحسن عنذلك فقال : « انى قادم اليك فى أمرأقلقنى وحرمنى المنام وليس لى من يفرج كربى سواك »

قالت : « قل مابدالك »

قال : « انى أحب فتاة من أهل المدينة ولكننى لا أعرف منزلها ولا أدرى أمقيمة هى هنا أم سافرت الى بلد آخر ؟ »

قالت : « ما اسمها ؟ »

قال : « اسمها سمية بنت عرفجة الثقفى »

فبهتت عزة عند سماعها الاسم ، وجعلت تتفرس فى وجهه كأنها تستطلع حقيقته ، ثم قالت : « من أين عرفتها وكيف أحببتها وانت بعيد عن المدينة ؟ »

قال : « قولى لى أولا أهى فى المدينة ؟ وهل تعرفينها جيدا ؟ »

قالت : « أعرفها كما أعرف نفسى ، وهى مقيمة هنا وكانت عندى هذا المساء ، فقل لى أين وكيف عرفتها ؟ »

قال : « كنت من رجال مصعب بن الزبير الذين ساروا معه الى العراق لقتال المختار بن عبيد الثقفى . وكان المختار بعد قتل الحسين قد قام يدعو الناس الى الاخذ بثأره وتظاهر بمبايعة عبد الله بن الزبير اللائذ بالحرم الآن . فقتل المختار قتلة الحسين جميعهم بمعونة التوابين

وهم أهل الكوفة الذين خانوا الحسين وأمسكوا عن نصرته فلما قتل ندموا وقاموا يطالبون بدمه »

قالت : « نعم أذكر ذلك ، ولكن المختار هذا كان يدعو الناس الى بيعة محمد بن الحنفية أخي الحسين من أبيه ، وليس لعبد الله بن الزبير »

قال : « انه كان يدعو الى البيعة لعبد الله أول الامر ، فلما فاز فى حروبه طمع فى الخلافة لنفسه وتظاهر بالدعوة لمحمد بن الحنفية . ولا اشك فى ان محمدا لم يكلفه بذلك لأنه زعم أشياء لايرضى بها محمد »

قالت : « أظنك تعنى الكرسى الذى زعم انه كرسى على ، وصار يحمله معه فى حربه ويزعم ان جبريل يظهر له ويكلمه »

قال : « نعم ، ولكنه لم يفلح لأن عبد الله بن الزبير لما سمع بما فعله ارسل أخاه مصعبا فى جندكبير فقتلوه وسمروا يده فى مسجد الكوفة ، وكنت انا فى جملة رجال مصعب . ففي يوم المعركة بعد أن تم لنا النصر وامعنا فى رجال المختار قتلا ونهبا . لقيت عرفجة أبا سمية طريحا على الارض بين يدى بعض رجالنا وقد هموا بقتله ، ثم رأيت سمية ابنته قد خرجت من الخباء وشعرها محلول على كتفيها ، فتحرك قلبى نحوها تحركا غريبا ، وسمعتها تستنجدنى لانقاذ ابيها من القتل ، فصحت فى الرجال فأبعدتهم عنه واوصلته الى مأمنه فقبل يدى وشكرنى ذاكرا انه لايقدر على مكافأتى . فقلت له : (لا ألتمس مكافأة منك الا أن تزوجنى ابنتك هذه) . فقال : (هي جاريتك بين يديك) . فتواعدنا على أن آتى المدينة وأتزوجها . وأتممت أمر انقاذه فأخرجتهما من الكوفة وبعثت معهما من أوصلهما الى هنا ، وبقيت أنا هناك وشغلت بأمور كثيرة لا محل لذكرها فلم أستطع المجيء الا اليوم »

□

كان حسن يتكلم وعزة تتطاول بعنقها لسماع بقية الحديث . فلما وصل الى هذا الحد قطعت كلامه قائلة : « لعلك حسن ؟ »

فبهت وقال : « نعم ، وكيف عرفت ذلك ؟ »

قالت : « عرفته منها ، وانى أهنئك بسمية فانها زينة فتيات المدينة وليس أحد يعرف مكنون قلبها غيرى . وقد طالما ذكرت اسمك لى ؛ وأطلعتنى على خصالك واثنت على مروءتك . فثق بأنها ما زالت على ودك ، ولو انك جئتنا قبل ساعة لوجدتها هنا »

قال : « وهل من سبيل الى رؤيتها ولك على مايرضيك ؟ »

فأطرقت عزة هنيهة ثم قالت : « لم يكن أهون من ذلك على لولا ان

اباها ضنين بها ، لايأذن فى خروجهـا من البيت ، الا نادرا ، وهى انما تجيئنى خلسة فى أكثر الاحيان . ولاشك فى انه اذا عرف انها جاءتنى لمثل ماتريده انت فانه يغضب وربما أسـاءها وأساءنى ، ولاسيما انه ذو نفوذ لدى أمير هذه المدينة ، ففى استطاعته أن يتهمنى عنـده بما ينغص على عيشى »

فلبث حسن مدة يفكر فى أمره ، وقد اقتنع بالمشقة التى تحول دون مجىء سمية ، لكنه ما لبث لعظم شوقه أن استسهل كل عسير ، ورأى أن يصبر الى صباح الغد ثم يذهب لزيارة أبى سـمية . فنهض مودعا عزة بعد أن استدل منها على بيت عرفجة ، فدلته عليه وودعته معتذرة من عدم استطاعتها اجابة رغبته فى رؤية سمية

وبات حسن تلك الليلة على مثل الجمر ، ثم أفاق قبـل الفجر وأخذ يتأهب للذهاب الى بيت عرفجة وقد اشتد هيامه وخفق قلبـه وهو يفكر فى لقياها ، وشق عليه انه لايستطيع مخاطبتها أمام أبيها لكى يبثها شوقه وهيامه ، فعلل نفسه بما قد يأتى به القدر من سوانح الفرص ، وخرج والشمس قد أطلت من وراء المنازل، والناس يذهبون ويجيئون فى الطرق وهو لاه عنهم بما قام فى خاطره من أمر اللقـاء المنتظر بعـد الغياب الطويل

وكان بيت عرفجة بالقرب من بيت سكينة بنت الحسين ، وهو أضيق مساحة وأقل فخامة ، فلمـا وصـل الى بابه رآه مفتوحا فدخل ولم يقرع الباب ولم يتكلم ، فأطـل على باحة تحيـط بها ثلاث غرف ، وفى بعض جوانبها نخلة عظيمة رأى بجانبها فتاة عليها رداء أحمر زاه وليس على رأسها نقاب ، وقد جلست أمام النخلة وأسـندت ظهرها اليها ووجهها الى جانب الدار بحيث لايقع بصرها على الداخل . ومع انه لم ير من وجهها الا صفحة خدها وجانبا من عينها وفمهـا فانه أدرك انها سمية . فندم على دخوله بغتة واستنكف أن ينظر اليها أو يدخل بلا استئذان . ولكن الشوق أعمى بصيرته فوقف مبهوتا وقلبـه يخفق ، والشوق يدفعه الى رؤيتها ، والحياء يدعوه الى الرجوع وقرع الباب

ثم غلب عليه الحياء وخاف أن يقع نظرها عليه فتخجل وربما أصابها سوء من تأثير البغتـة ، فتقهقر حتى وقف بالباب وقرعه بحلقـة من الحديد كانت معلقة فى خوخته ولبث ينتظر من يدعوه الى الدخول أو من يأتى لاستقباله . ثم سمع وقع أقدام فى البـاحة فعلم ان سمية تمشى الى احدى الغرف للاستتار . وظل واقفا مدة فلم يأته أحد فأعاد القرع مثنى وثلاث . وبعد هنيهة سمع وقع أقدام قادمة نحو البـاب عرف من شدتها وسرعتها أنها أقدام رجل . ثم جاءه رجل فى نحو الخمسين

من عمره قصير القامة نحيف البدن يكاد جلده يلصق بعظمه ، وهو أشمط شعر اللحية خفيفه ، وعلى رأسه عمامة صغيرة ، وعلى كتفيه مطرف التف به ، وكأن خديه حفرتان ، ووجنتيه أكمتان ، وأنفه كتلة بارزة في منتصف وجهه . وله عينان غائرتان . ولو قد تفرس فيه حسن لتبين من اختلاج أجفانه وعدم استقرار نظره انه من أهل الرياء والخبث

فلما وقع نظر حسن على الرجل عرف انه عرفجة أبو خطيبته ، فهش له وهو يتوقع أن يعرفه ويرحب به . أما عرفجة فلبث برهة ينظر الى وجه حسن وهو يتجاهله . فضحك حسن وتقدم وألقى التحية ، فرد عرفجة التحية دون أن يبدو على وجهه مايدل على أنه عرفه ، ثم سعل كأنه ينبه أهل بيته الى قادم غريب ، فقال له حسن : « أظنك لم تعرفني ياعماه ؟ »

فلما سمع عرفجة كلامه تكلف الابتسام وألقى نفسه عليه وجعل يقبله ويرحب به ويقول : « أهلا بك يا بني ، أنت حسن ؟ . من أين أتيت ؟ » . وأمسكه بيده ودخل به الى الدار وسار توا الى غرفة هناك يستقبل بها الزائرين . فاستأنس حسن بذلك الترحاب بعد أن كاد يتميز غيظا مخافة أن يعود من سفرته بخفي حنين . وابتدره عرفجة بالسؤال عن حاله وعن سبب غيابه ، وسأله اذا كان في حاجة الى طعام . فاعتذر شاكرا ، وأخبره بأنه قدم المدينة للقياه . فجعل عرفجة يتملقه بالكلام اللطيف ليستطلع ما في قلبه . فاطمأن اليه حسن وأطلعه على شدة شوقه الى سمية . وكان يخاطبه ويراقب مايبدو منه من استحسان أو استهجان . فلم يجد الا انعطافا وترحابا . وعلم منه أن سمية في خير ، وانها مازالت تذكر فضله عليهما ، فازداد حسن استئناسا وتوقع منه أن يدعو سمية لتراه ، فلما لم يدعها ظنه أجل ذلك الى ما بعد الاستراحة . واستغرقا في الحديث في شؤون مختلفة حتى ذكر حسن انه جاء المدينة في مهمة من خالد بن يزيد الى عبد الله بن الزبير بمكة . ثم قال : « ألم يئن لي أن أبلغ أمنيتي التي منيت نفسي بها منذ أعوام ؟ »

فتجاهل عرفجة وقال : « وما هي يا بني ؟ »

قال : « الزواج من سمية . . خطيبتي »

قال : « هي جاريتك وطوع ارادتك ، ولكنك ذاهب الى مكة كما تقول ، فيحسن ارجاء الامر حتى تعود ، ولاسيما ان سمية ليست هنا الآن ، وسأخبرها بقدومك متى عادت ، ولا أشك انها ستسر بلقياك ، فاذهب الآن في مهمتك ، ومتى عدت نعقد قرانكما باذن الله »

فعجب حسن لانكار عرفجة وجود سمية في المنزل ، ولكنه التمس

له عذرا وشكر الله على انه رآها خلسة . على انه كان يتوقع وهو يخاطب عرفجة أن يسمع خطوات سمية أو يلمح طرف ثوبها وهى مارة أو يسمع كلامها فلم يكن يرى الا بعض الجوارى يخطرن فى الدار لقضاء بعض حاجات المنزل

وسكت كلاهما لحظة وكل يفكر فى شأنه وشتان بين الفكرين . ثم عاد عرفجة الى الكلام فقال : « متى تعتزم المسير الى مكة يا بنى ؟ »

قال : « فى القريب العاجل ، وربما خرجت الليلة »

قال : « وهذا ما أراه ، فان سرعة ذهابك يقرب يوم زواجك فنفرح بك ونتشرف بمصاهرتك »

فسر حسن بما سمع ولم يفقه ماكان يبدو فى عينى عرفجة وفى حركاته من دلائل الخبث والغدر — ولم يكن ذلك سذاجة فيه ولكنه كان سليم القلب صادق النية كبير النفس ، يعتقد ان الناس كلهم مثله — هذا الى أن عرفجة كان مدينا له بانقاذه من القتل ، وقد رحب بمصاهرته أولا وآخرا . وهكذا اقتنع بما سمع منه فقال : « أرى أن أخرج من المدينة الليلة »

قال : « وهل تعرف الطريق ؟ ومن أى باب تخرج ؟ »

قال : « نعم يامولاى انى خارج من الباب المطل على قباء »

قال : « اجعل خروجك عند الغروب من الباب المؤدى الى مكة ، فانه أسهل مسلكا ، ولكننى أخاف عليك من برد الليل فهل احتطت لذلك ؟ »

قال : « عندى عباءة التف بها اذا برد الليل »

قال وهو يبتسم وكأنه اهتدى الى سبيل لتنفيذ مرامه : « لا أرى أن تخرج من المدينة وأنت ملتف بعباءة ، ومن كان مثلك من ذوى الوجاهة لايليق أن يمر فى الاسواق ملتفا بعباءة ، فاسمح لى أن أقدم لك قباء يليق بمقامك » . قال ذلك وصفق فجاءه غلام فقال : « هات القباء الاخضر المعلق فى الحجرة »

فعاد الغلام وعلى يديه قباء من صوف ، فتناوله عرفجة ودفعه الى حسن وقال له : « اليك هذا القباء فالبسه وأنت خارج على ناقتك فى هذا المساء فانه أوقى لك من البرد »

فتناول حسن القباء شاكرا ، مع انه لايرى حاجة اليه ، اذ لم ير من اللياقة أن يرده . وازداد ثقة فى عرفجة وحسن قصده . ولحظ فى حركاته ميلا الى فض الاجتماع ، فنهض وقبل يده مودعا ، وخرج وقلبه ما زال فى تلك الدار ، وقد شق عليه أن يخرج منها دون أن يخاطب حبيبته . ولكنه علل نفسه باللقاء القريب بعد رجوعه من مكة ،

وسار توا الى السوق ليبتاع بعض النبال استعدادا لعاديات الطريق ولكنه لم يكن يعرف أين يبيعون النبال فرأى غلاما رث الثياب على رأسه قفة يلتقط نوى التمر ويضعه فيها ، وهي أحقر مهن أهل المدينة ، فناداه حسن وسأله : « ألا تعرف رجلا يبرى النبال قريبا من هنا ؟ »

قال : « أعرف كثيرين، هل تريد النبال المرَيشة أوالتى بلا ريش؟ »

قال : « انى أفضل المريش منها »

قال : « تعال معى فأدلك على أحسن من يبريها فى هذه المدينة »

□

سار حسن فى أثر الغلام حتى انتهى به الى الطرف الآخر من المدينة ، ووقف به عند حانوت أمامه دكة ، وفى صدر الحانوت رجل من أهل يثرب بين يديه القسي والنبال ، وفيها المبرى بعضها من الخشب والبعض الآخر من القنا ونحوه . فدفع الى الغلام درهما وصرفه ، ودخل الحانوت والقباء على ذراعه فلما رآه الرجل عرف من لباسه انه من أهل الشام فرحب به وأجلسه على الدكة . فجلس حسن ووضع القباء بجانبه وأخذ يقلب السهام ، وفيها الريش المربع والمثلث وذو الجناح الايمن أو الايسر . وجعل ينتقى مايريده منها ثم قال للرجل : « هل أجد عندك جعبة للنبال ؟ »

قال : « كلا يامولاى ، انى لا أصنع الا النبال ، ولكن جارى جعاب يصنع الكنانة والجعبة من الجلد أو من الخشب على أشكال مختلفة فاذا شئت بعثت اليه فيأتيك بأصنافها »

فقال : « اذهب اليه بعد الفراغ من انتقاء النبال » . ثم انتقى ما احتاج اليه منها ودفع الثمن ، وسأل الرجل عن حانوت الجعاب ونهض وقد نسى القباء عند النبال ، وسار والنبال يسير أمامه حتى أوصله الى حانوت واسع فيه جلود واخشاب وجعاب معلقة . فرجع النبال وتقدم حسن حتى انتهى الى باب الحانوت. فرأى الجعاب يخاطب شابا يظهر من لباسه انه من أهل الوجاهة وهو يساومه على جعبة أراد ابتياعها ، فوقف حسن ينتظر الانتهاء من تلك الصفقة ، وقد استأنس برؤية ذلك الشاب وتذكر انه يعرفه . فجعل يتأمله ويتفهم كلامه ، وهو يستحث ذاكرته لعله يذكره والشاب مشتغل بالمساومة . ثم التفت الشاب الى حسن فلما وقع بصره عليه بغت وتفرس فى سحنته ولم يطل النظر اليه حتى ابتسم وصاح : « حسن ؟ » . قال : « نعم ، وأنت .. سليمان ؟ »

وتعانقا ، ثم جلسا على مقعد من حجر بجانب الحانوت وقد نسيا الجعاب وصاحبها ، فقال سليمان : « من أين أنت قادم يا أخي ، ومتى قدمت ؟ »

قال : « انى قادم من دمشق وقد وصلت الى المدينة مساء أمس »

قال : « وهل تنوى الاقامة هنا ؟ »

قال : « كلا ، انى عازم على السفر الليلة »

قال : « لا . لا . انى مشتاق الى رؤيتك ، وقدمضىعلى بضع سنوات وانا أفكر فيك وأتذكر أياما قضيناها فى الكوفة معا ، وقد كانت أياما سعيدة رغم ماشهدناه فيها من القتال »

قال حسن : « لاريب انها كانت سعيدة لكم لأنكم فزتم بالامر الذى قمتم له وقتلتم قتلة الامام الحسين شر قتلة . اظنك لم تنس عبيد الله ابن زياد وهو مضرج بدمه فى ساحة الحرب »

قال : « وهل أقدرعلى نسيانذلك ، انى أتذكره كلما شممت رائحة المسك ، لأنى حين شهدت جثة عبيد الله فى الوقعة شممت رائحة المسك قوية ، اذ كان كثير التضمخ بالمسك . ولكننى لم أفرح بمقتل ابن زياد فرحى بمقتل ذلك الابرص الذى قطع رأس الحسين بيده »

قال حسن : « اظنك تعنى شمر بن ذى الجوشن قبحه الله ؟ »

قال : « اياه اعنى . . فقد رايت هذا الخبيث فى معركة اخرى مقتولا وعليه بردة ، وقد عرفته من بياض برصه »

فقال حسن : « انها لذكرى حسنة ، ولكننا لانستطيع الخوض فى هذا الموضوع ونحن على قارعة الطريق »

قال سليمان : « هلم الى مكان لنقضى فيه بقية هذا اليوم ، فانى أحسبه من أسعد أيامى ، لأنه يذكرنى بأيام النصر وان كنا الآن فى » . . وقطع كلامه لئلا يسمعه أحد

ثم نهضا فابتاع حسن جعبة وضع النبال فيها ، وسار وقد شغل بصديقه عن تذكر القباء وهو لم يتعود حمله

□

كان سليمان هذا صديقا لحسن تعارفا منذ الصبا . وكان مقيما مع ابيه بالكوفة مع دعاة الحسين . فلما قدم الحسينالكوفة فى أهله كان هو وأبوه من الذين تخلفوا عن نصرته . ولما قتل الحسين فى سهل كربلاء وقتل أهله معه أصبح سليمان وأبوه من التوابين الذين ندموا على

تخلفهم عن نصرة الحسين وقاموا بعد قتله للمطالبة بدمه ، فلما جاء المختار بن أبي عبيد الثقفي الى الكوفة يدعو الناس الى بيعة عبد الله بن الزبير ، انضم التوابون اليه فقتلوا قتلة الحسين . ثم طمع المختار في الامر وأرسل عبد الله بن الزبير أخاه مصعبا لمحاربته ، وكان حسن مع مصعب فلما غلب مصعب المختار وقتله تفرقت رجاله ، فانحاز بعضهم الى مصعب ومنهم سليمان وأبوه ، وقد ائتلف قلبا حسن وسليمان. وكان سليمان يعجب بأخلاق حسن . فلما جاء عبد الملك بن مروان وحارب مصعبا بالكوفة وقتله وتفرق رجاله ، سار حسن مع عبدالملك ، وجاء سليمان وأبوه الى المدينة فأقاما بها

فلما تلاقيا بالمدينة على هذه الصورة أنس به سليمان وأحب البقاء معه . فدعاه الى منزله وقال له : « ان أبي يسر بلقياك» . فتذكر حسن أبا سليمان فقال : « فاتني أن أسأل عن أبيك كيف هو وما الذي يعمله الآن ؟ »

قال : « انه في خدمة طارق بن عمر عامل هذه المدينة من قبل عبد الملك بن مروان »

قال : « وهل هو يخدمه عن رضى ؟ »

قال : « أراه راضيا بخدمته ، وكثيرا ما أظهرت عدم رضائي بخدمة هؤلاء القوم الذين قتلوا الحسين . وكنا بالأمس نجرد السيوف عليهم ونطالبهم بدم المقتولين ، ولكنني رأيته راضيا فسكت عنه . ولعل له عذرا »

وكانا يتكلمان وهما ماشيان حتى وصلا الى بيت سليمان ، ولم يكن أبوه في البيت فمكثا هناك وتناولا الغداء معا وقد سر كل منهما بلقاء صديقه ، فلما كان العصر نهض حسن واعتذر باضطراره الى الذهاب لوداع ليلى الاخيلية في بيت سكينة بنت الحسين ، وهو انما كان يرجو أن يستطيع مشاهدة سمية لأن بيتها بجانب بيت سكينة

فألح عليه سليمان أن يؤجل سفره الى الغد ، ولكنه اعتذر شاكرا ، فقال سليمان : « اذا لم يكن بد من سفرك فاني أرافقك في أوائل الطريق لأنك اذا خرجت من المدينة عند الغروب لا تسير الليل كله . فاذا رضيت برفقتي فاني أصاحبك الى العقيق فنمكث هناك ساعة أتملى من حديثك ثم نفترق »

قال حسن : « كيف لا أرضى بذلك وفيه راحتي وحسن حظي »

قال : « أين نلتقي ؟ »

قال حسن : « نلتقي بباب المدينة المؤدي الى مكة ونخرج من هناك معا »

قال : « وهل تعرف الطريق الى الباب ؟ »

قال : « نعم أعرفه فانه على مقربة من حانوت النبال الذى أشتريت هذه النبال منه اليوم »

ولما ذكر النبال تذكر القباء فبغت وقال : « لقد نسيت عنده القباء ، وأخاف اذا أردت الذهاب اليه أن تفوت الفرصة لمشاهدة ليلى »

فابتدره سليمان قائلا : « دع هذا لى ، فأنا أمر بالنبال وآخذ القباء منه وأحفظه لك الى الملتقى »

فشكره حسن وودعه ، وخرجا فسار كل فى طريقه

□

وكانت سمية جالسة فى ساحة بيتها حين قرع حسن الباب ، فدق قلبها وحدثتها نفسها بأن الطارق حبيبها ، ثم استبعدت ذلك ، فعاودها الحزن ، ونهضت لكى تحتجب عن الطارق ، فانزوت فى أقرب غرفة الى الباب وفى نفسها ميل الى معرفة الطارق ، لأن طريقة دقه الباب لم تكن تشبه دقات زوارهم المعروفين . وكثيرا ماتدل الدقة على صاحبها ويعلم أهل البيت من هو صديقهم من قرعه الباب . هذا الى ان عرفجة كان من أكثر الآباء تضييقا على بناتهم فى أمر الحجاب . فكان ذلك يدعو سمية الى التطلع الى القادمين من شقوق النوافذ أو ثقوب الابواب

واتفق فى ذلك الصباح انه لم يكن فى البيت أحد من الرجال غير عرفجة وكان مشغولا فى حجرة خاصة لايدخلها أحد غيره ، وفيها محفة من خشب مقفلة لايفتحها سواه . فاذا دخل تلك الحجرة اقفل بابها ولا يدرى أهل البيت ماذا يفعل هناك . فيقضى فيها ساعة أو بعض الساعة ثم يخرج ويقفل الباب وراءه . وكثيرا ما أحبت سمية استطلاع أمر تلك المحفة ومشاهدة ما فى داخلها فلم توفق الى ذلك . لأن المحفة من خشب متين لامنافذ للبصر فيه . فلما قرع حسن الباب كان عرفجة هناك فأبطأ فى فتح الباب كما تقدم . ثم سمعته بعد أن فتحه وهو يخاطب حسنا ويرحب به ، وكانت تنظر من ثقب فى باب غرفتها يطل على حجرة أبيها فوقع بصرها على حسن وهو يخلع حذاءه بباب الحجرة ، وهى أول مرة راته فيها بعد ذلك الغياب الطويل ، فلم تكد تتحققه حتى شعرت بهزة قوية وخفق قلبها خفوقا شديدا ولكنها ظنت نفسها مخطئة فتفرست فيه جيدا فاذا هو حسن بعينه ، ورات اباها يخاطبه ويرحب به وقد فهمت ذلك من اشاراته وملامحه لأنها لم تكن تفهم الكلام لبعد المسافة ، ثم دخلا واقفلا الباب . فأرسلت جارية لها تتسمع

حديثهما وتعود اليها بما سمعته . والجوارى أكثر الناس رغبة فى نقل الاحاديث وبخاصة اذا كانت من هـذا القبيل . فكانت تلك الجارية تتظاهر بخروجها لغرض تريده من البستان أو الباحة فتقف هناك بحيث تسمع مايدور وربما سمعت بعضه فتكمل الحديث من عندها وتعود الى سمية به . فاطلعت سمية بذلك على مادار بينهما حرفيا . وساءها رفض أبيها أن يجمعها بحسن ولو من وراء حجاب ، ولكنها سرت برؤيته واطمأنت الى انه ما زال على حبها . ولما أخبرتها الجارية انه جاء يطلبها من أبيها زاد اضطرابها واصطكت ركبتاها ولم تعد تستطيع الوقوف فثنت وسادة كانت بجانبها وجلست عليها وعيناها على شق الباب . على انها ما لبثت أن علمت انه غير الحديث واعتزم الخروج من المدينة فى تلك الليلة ، وان أباها حبب اليه الاسراع فى ذلك وأعطاه القباء . فاستغربت اعطاءه اياه . مع ما تعلم من بخله . على ان ذلك أكد لها رضاءه عن تلك الخطبة فانبسطت نفسها وتعللت بقرب اللقاء بعد الرجوع من مكة

فلما خرج حسن وتبعه عرفجة لوداعه ، طارت عيناها شعاعا الى حسن ، ولكنه ما لبث أن غاب عن مدى بصرها من ذلك الثقب . فلما رأت أباها راجعا خرجت من الغرفة لملاقاته وقد توردت وجنتاها من عظم التأثر وبانت دلائل الحب فى وجهها . فلما رآها عرفجة فى تلك الحال انقبضت نفسه وتظاهر بأنه فى شاغل عن الحديث معها

ولكنها لم تصبر على استطلاع أفكاره وأمسكت عن الكلام تهيبا لأنها كانت تخافه كثيرا وتخشى غضبه وقد قاست منه الامور الصعاب ، على انها كانت تحسن الظن به فتحولت الى حجرتها وهى منقبضة النفس ودخل عرفجة حجرة أخرى وقد لحظ ما فى نفس ابنته ولم يفته اطلاعها على ما دار بينه وبين حسن . فبعث اليها فجاءت وليس فى المكان سواهما فوقفت وقلبها يخفق وهى لاتستطيع التطلع الى أبيها ولاتدرى مايريد منها . فأشار اليها فجلست على وسادة بالقرب منه وهى تتشاغل بمداعبة أطراف جدائلها المرسلة . وكانت تضفر شعرها عادة فى طرة اشتهرت فى المدينة يومئذ بالطرة السكينية نسبة الى سكينة بنت الحسين لأنها أول من ضفرها على تلك الصورة

لبثت سمية برهة هكذا ، وأبوها ينظر اليها ويتأمل فى حركاتها فلم يزدد الا وثوقا بتعلقها بذلك الشاب وهو لايحب أن يتقرب منه ، ولكنه لم يذكر ذلك لسمية صراحة . على انه كثيرا ماحاول ان يزوجها بسواه فلم تقبل . وكان قد ظن حسنا مات أو قتل لغيابه عن المدينة ، أوعدل عنها واشتغل بغيرها . فلما رآه فى ذلك الصباح وتحقق انه مازال حيا

بغت واستعاذ بالله ، ولكنه عمد الى الخبث والرياء فتغلب على عواطفه وبش له واستدناه وأظهر له ما أظهره من اللطف والانس على أمل أن يفتك به غيلة . فلما رأى اضطراب سمية قال لها : « أراك مضطربة ، فما الذى دعاك الى هذا ؟ »

قالت وهى لاتزال مطرقة وقد صعد الدم الى وجهها فزاد احمراره « وأى اضطراب تعنى ؟ »

قال : « أعنى مايبدو فى وجهك من الاحمرار على أثر الاصفرار. وكأنى أسمع دقات قلبك . فما هـذا ؟ » قال ذلك بنغمـة رقيقة رفقـا بها واجتيالا فى استطلاع سرها ، وقد كان يحب رضاءها ولـكنه لايريد أن تعمل عملا تستقل به عنه . وكان أهل المدينة يتحدثون بجمال سمية ولطفها ، وكان هو يريد أن يتجر بذلك الجمـال فيزوجها بحاكم أو أمير فيكتسب بزواجها منصبا أو مالا . وكانت له مطالب أخرى ترجع كلها الى الطمع وحب الاثرة مع خبث الطوية . وحب الاثرة مع سلامة الطوية قلما يضر بالنـاس اذ ليس فى البشر من لايحب ذاته ويؤثرها على غيره من الناس ، أما اذا صحبه خبث النية وسوء الخلق فانه يكون وبالا على الناس، لأن صاحبه لايبالى ماقد يضحيه من الانفس أو الاعراض فى سبيل نيل أغراضه . وكان عرفجة ذا مطامع لاحد لها وكان ذلك شأن كثيرين فى ذلك العهد على أثر تزعزع أركان الخلافة وانقسام الناس وكثرة الدعاة وتعدد الدعوات . فكان هذا يدعو الى بيعة عبد الملك ، وذاك يدعو الى بيعة محمد بن الحنفية ، وآخر الى بيعة عبـد الله بن الزبير ، فضـلا عن دعاة آخرين فى البلاد الاخرى . فأصبح الامر فوضى وربما خطر لعرفجة أن يدعو الى أحد هؤلاء أو غيرهم ، ولو أتيح له أن يدعو الناس الى نفسه لفعل ولكنه لم يكن يطمع فى ذلك وهو من ثقيف وهم غير أكفاء للقرشيين . وكان الحجاج والمختار بن أبى عبيد ثقفيين أيضا ، فلما أراد المختار أن يستأثر بالملك تظاهر بالدعوة الى محمد بن الحنفية كما قدمنا

لما سمعت سمية سؤال أبيها ولم تر فيه نغمة الجفاء أجابت وهى تكاد تذوب خجلا : « أتسألنى ياسيدى عما أنت أعلم الناس به ؟ »

فقال وهو يغتصب الضحك اغتصابا : « أظنك تحبين هذا الشاب؟ »

قالت : « لا أقول انى أحبه ولكننى أعلم فضله علينـا لأنه أنقذنا من الموت . وقد اشترط شرطا وعدناه به أفلا نفى بالوعد ؟ »

وكانت تقول ذلك بلهجة المنتصر وهى تنظر فى وجه أبيها متوقعة ان

يكون جوابه الاذعان الصريح. ولكنها رأته ابتسم ابتسام الاستخفاف ، ثم هز رأسه ، وأخذ يلاعب طرف لحيته بأنامله وهو يقول : « ما شاء الله ! وأى فضل تعنين ياسمية ؟ »

قالت : « ألم ينقذنا هذا الرجل من القتل ونحن فى الكوفة. ألم أخرج اليه محلولة الشعر وأطلب نجاتك فأسرع لانقاذك ؟. ولا أراك تنكر ذلك عليه الى الآن» . قالت ذلك وهى تنظر الى وجهه بطرف عينيها وتتوقع اذعانه فاذا هو قد تغيرت سحنته وبان الشر فى عينيه وكان بيده مفتاح الحجرة فرمى به الى الارض من شدة الغيظ وقال : « لا أقدر على سماع هذا الكلام . ان الذى يدعى علينا مثل هذا الفضل يجب أن يموت »

فلما سمعت سمية كلامه اقشعر بدنها وامتقع لونها ، ونظرت الى ابيها والدموع ملء عينيها كأنها تستعطفه ولاتصدق انه يعنى ما يقول. ولكنها ما لبثت أن رأته نهض وجعل يتمشى فى أرض الحجرة ولحيته ترقص أمام عنقه وعيناه محملقتان وأنامله ترتجف . فتهيبت وأطرقت ودموعها تتساقط على ثيابها وبقيت هادئة لاتحرك ساكنا ولسان حالها يقول : « ويلك يا ظالم »

أما هو فبعد أن تمشى هنيهة عاد فوقف أمامها وقال لها : « لو كنت تحبين أباك . ما رضيت أن يكون لمثل هذا الغلام فضل علينا . كيف نعيش ولهذا الغلام منة علينا ؟ وتقولين ذلك جهارا ؟ . لاشك انك تحبينه أكثر مما تحبينني ؟ »

فقالت والبكاء يخنق صوتها : « كيف تقول ذلك يا أبتاه ، وأنت تعلم قلبى وتعلم انى لا أحب أحدا سواك . وأما هذا الشاب فان له علينا فضلا لاينكر — هل نسيت الخطر الذى كنا فيه وكيف أنقذنا وعنى بارسالنا الى هنا ؟ . ثم انك انت الذى وعدته بى ، فاذا كنت أحبه فانما أنت الذى دعوتنى الى ذلك و . . . »

فقطع عرفجة كلامها وقال : « أبلغت بك القحة الى أن تقولى لى انك تحبينه وتعيدى ذكر جميله . ان ذكر هذا الجميل وحده يدعو الى قتله ! »

فاضطربت سمية ، وجثت عند قدمى أبيها والدمع يتساقط من خديها ويمتزج بالعرق المتصبب من جبينها وقالت : « رحماك ياسيدى، بالله لاتذكر القتل .. دعه لاتقتله ولاتزوجنى به .. فأنا لا أخرج عن طاعتك فى أمر من الامور . لاتذكر القتل لأنه يقطع قلبى . افعل بى ما تشاء فانى طوع لك . اشفق على وارحمنى »

فلما سمع تذللها ظنها ارعوت عن محبة حسن ، فأمسكها وأنهضها ومسح دموعها وقال لها : « خففى عنك يابنية وكونى حكيمة عاقلة ،

وانبذي أمر هذا الغلام وارجعي الى أبيك ، واعلمي اني لا أفعل الا ما فيه سعادتك »

قال ذلك وأجلسها على الوسادة وجلس هو الى جانبها فاتكأت على صدره فتحقق انها أذعنت لأمره واستسلمت له ، فلم يعد الى ذكر حسن ولكنه اغتنم هذه الفرصة وقال لها : « يظهر أنك كنت في جهالة عمياء . والحمد لله على أنك أدركت ما أنويه لك . كيف تعيشين مع رجل تعلمين انه ذو فضل على أبيك ؟. أليس ذلك منتهى الذل والضعف ؟. كيف أقدر على حفظ منزلتي بين الناس وفي الدنيا رجل يقول انه أنقذني من الموت وله على فضل ؟ »

فظلت سمية صامتة مخافة أن يعود أبوها الى ذكر القتل ، ولكنها استغربت استنكافه الاقرار بالفضل لأهله . وقد فاتها ان من الناس من يتعمدون الايقاع بالمحسنين اليهم لأن تصورهم فضلهم يهيج حسدهم حتى يقودهم الى الفتك بهم ليتخلصوا من ذكر تلك المنة . وأمثال هؤلاء قليلون والحمد لله — وكان عرفجة واحدا منهم — وتلك غاية الدناءة والخسة

ولم تر سمية خيرا من السكوت ، ولكن ذلك لم يغير شيئا من عواطفها بل لعله زادها تعلقا بحسن ، وتعلق ذهنها بالسعي في تحذيره . وكانت تفكر في ذلك وهي متكئة على صدر أبيها وقد بللت قميصه بدموعها ، فأنهضها وقبلها وقال لها : « قومي يا سمية وارجعي الى رشدك فاني سأزوجك بأعظم رجل يتحدث به المسلمون الآن لتعلمي أني انما أسأتك بأقوالي لأحسن اليك بأفعالي »

فنهضت ومشت وهي صامتة تمسح عينيها بكمها حتى أتت حجرتها فدخلت وأقفلت الباب ثم استلقت على فراشها وقد تمثل لها عظم الارتباك المحيط بها والخطر الذي يهدد خطيبها فأظلمت الدنيا في عينيها وأطلقت لدمعها العنان ، ثم استرجعت رشدها وفكرت في أمرها وأمر أبيها وما تعرضت له بسبب حبها لحسن فجعلت تناجي نفسها قائلة : « كيف تعلقت بهذا الرجل الغريب وفي تعلقي به خطر على حياتي وحياته ؟. أليس هذا أبي الذي رباني وكفلني ولا يريد لي الا الخير والسعادة ؟ كيف أعصاه وأطيع هواي ؟ أليس من التعقل أن انصاع لرأيه ؟. أما حسن فماذا يربطني به ؟. الحب ؟ وما معنى الحب ؟. ان هذا الحب سبب عذابي وعذاب أبي وعذاب حبيبي . لا . الحب عذابه عذب . آه ما أحلى الحب وما أشرف عواطف المحبين . . كيف يعيش الناس بدون الحب وما الفائدة من الحياة بلا محبة ؟. اني لا أرى في العيش لذة الا حين أفكر في حسن . آه ما ألطف هذا الاسم . ولكن كثيرا ما كنت

أسمعه قبل أن أعرف الحب فلا ألتــذ لفظه كما ألتذه الآن . فأنا انما أتلذذ بالحب . آه ما أحلاه وما أحلى لفظه بفمي وذكره بفكرى وما أحلى صورته فى عينى ! »

ثم مسحت دموعها ولبثت هادئة برهة وهى تفكر فى أبيها وقالت : « ولكن أبى ربانى بعد وفاة أمي وبقى وحده لم يتزوج من أجلى وهو يحبنى ويريد سعادتى فكيف أغضبه ؟ »

ثم قالت : « لا . . انه خرج فى معاملته عن حقوق الأبوة ، أن لحسن فضلا كبيرا علينا . ولــكن أبى تنكر له ، بل أراد قتــله من أجل ذلك الفضل. أرا دقتل حسن ؟ !. ان أبى ظالم ، والظالم لايحبه الله فكيف أحبه أنا ؟. أما حسن فشهم تفانى فى سبيل نجاتنا ويكفى انه يحبنى وانى أحبه حبا عذريا نقيا لاعيب فيه . ياالهى ماهذا الحب؟. اذا كنت ترى انى أخطىء فيما أقول فانزع حب هذا الشاب من قلبى . لا . . لاتنزعه . . أو انزعه يا الهى . . أو كما تشاء . . آه مالى أزداد تعلقــا وهياما ؟ الله هو الذى أراد أن يحب أحدنا الآخر ، والحب الذى يكون خاليا من الدنس وغايته شريفة انما هو من عند الله »

قضت سمية ساعة فى مثل هذه التصورات ، ثم تذكرت ما سمعته من تهديد أبيها فخافت أن يتمكن من حسن وهو غافل فرأت أن عليها أن تحذره حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا

وحدثتها نفسها أن تفر معه الى مكة ولكن تعقلها وآدابها زجراها عن ذلك . على أنها أصبحت شديدة الشوق الى رؤيته لتشكوله مافى قلبها ويتعاهدا على الاتحاد والصبر . فتذكرت عزمه على الخروج من المدينة فى تلك الليــلة ، وانه خارج حوالى الغروب من البــاب المؤدى الى مكة فعزمت على اغتنام فرصة اشتغال أبيها ، لكى تخرج وتقف له فى الطريق وتخاطبه

أما عرفجة فقد كان بينه وبين طارق بن عمرو حاكم المدينــة يومئذ صداقة . وكان طارق يكرم عرفجة لأنه ثقفى من قبيلة الحجاج ، وكان الحجاج لذلك قد أوصــاه به خيرا ، ولأنه كان قد عرف سميــة وطلب الاقتران بها فوعده عرفجة بذلك ولكنه استمهله ريثما يسترضيها . ولم يشأ الحجاج أن يحملها أبوها على ذلك بالكره مخافة أن تشكوه الى الخليفة عبد الملك بن مروان فيأمره بالتخلى عنها كما اتفق له مع عبدالله ابن جعفر لما خطب الحجاج بنته أم كلثوم على مال كثير ثم أمره عبدالملك مروان بطلاقها . وجلية الخبر ان الحجاج خطب الى عبد الله بن جعفر ابنته أم كلثوم على ألفى ألف فى السر وخمسمائة ألف فى العلانية ، فأجابه الى ذلك وحملها اليه فأقامت عنده ثمانية أشهر ، ثم خرج عبــد الله بن

جعفر الى عبد الملك بن مروان وافدا ونزل بدمشق ، فأتاه الوليد بن عبد الملك (ابن الخليفة) على بغلة ومعه الناس ، فاستقبله ابن جعفر بالترحيب ، فقال له الوليد : « لكنك انت لامرحبا بك ولا أهلا » . قال عبد الله : « مهلا يا ابن أخي فلست أهلا لهذه المقالة منك» . قال : « بلى والله وبشر منها » . قال : « وفيم ذلك ؟ » . قال : «لأنك عمدت الى عقيلة نساء العرب ، وسيدة نساء بني عبد مناف ، فعرضتها على عبد ثقيف يتفخذها » . قال : « وفي هذا عتبت علي يا ابن أخي؟ » . قال : «نعم» . فقال عبد الله : « والله ما أحق الناس ألا يلومني فى هذا الا أنت وأبوك ، لأن من كان قبلكم من الولاة كانوا يصلون رحمي ويعرفون حقي ، أما أنتما فمنعتماني رفدكما حتى ركبني الدين . أما والله لو أن عبدا حبشيا مجدعا أعطاني بها ما أعطاني عبد ثقيف لزوجتها منه . انما فديت بها رقبتي » . فما راجعه الوليد كلمة حتى عطف عنان بغلته ومضى فدخل على أبيه فقال له عبد الملك : « مالك يا أبا العباس ؟ » . قال : « انك سلطت عبد ثقيف وملكته حتى تفخذ نساء بني عبد مناف ! » . وقص عليه الخبر . فأدركت عبد الملك غيرة فكتب الى الحجاج يقسم عليه ألا يضع كتابه من يده حتى يطلقها ، ففعل . وخاف اذا فعل مثل ذلك بسمية أن تشكوه الى عبد الملك بوساطة سكينة بنت الحسين ، لعلمه انها تحب سمية ولها منزلة وكرامة عند عبد الملك

☐

وكان حسن قد ودع رفيقه وسار ماشيا وخادمه يقود جمله وراءه ، قاصدا الى بيت سكينة ، ولما أشرف على بيت عرفجة اختلج قلبه فى صدره ، ووقف كأن شيئا استوقفه بالرغم عنه ، وتصور انه شاخص الى مكة وهي محصورة فلا يدرى متى يعود منها ولا مايمكن حدوثه فى غيابه . وكيف يسافر وهو لم ير سمية . ثم تمثلت له سمية كما رآها فى صباح ذلك اليوم قاعدة الى جذع النخلة حاسرة رأسها ولم ير غير جانب وجهها . فلما تصور ذلك زاد هيامه واضطربت جوارحه وظل برهة كأنه فاقد رشده لعظم ما اكتنفه من الهواجس . ولم ينتبه لنفسه حتى خاطبه خادمه . وهو رجل من ثقيف اسمه عبد الله وأصله من الطائف وكان فى جملة خدم المختار بن أبى عبيد فى أثناء حربه فى العراق ، فلما قتل المختار سار فى جملة الاسرى الى الشام ثم دخل فى خدمة حسن عندما سمع بعزمه على المدينة رغبة منه فى الاقتراب من أهله فى الطائف ، وكان عبد الله يعرف عرفجة لأنه من قبيلته ولم يكن يحترمه ولا يثق بأقواله ، ولكنه لم يكن يعلم بما بين حسن وسمية .

فلما رأى سيده واقفا مبهوتا استغرب ذلك منه فخاطبه قائلا : «مابال مولاى ؟ هل يفكر فى أمر نسيه فأقضيه ؟ »

فانتبه حسن لنفسه واستحى من خادمه ، ولكنه تذكر ما بين هذا الخادم وعرفجة من رابطة القبيلة ، فلاح له أن يستخدمه فى ذلك لعله يأتى بفائدة فقال : « أتعرف عرفجة ؟ »

فأجاب عبد الله ولم يصبر الى اتمام السؤال وقال : «كيف لا أعرفه وهو أبو سمية »

فلما طرق اسمها سمع حسن خفق قلبه ، ولو لحظ عبد الله وجه سيده لرأى الاضطراب ظاهرا فى محياه ، ولكنه لم يكن يتفرس فى وجهه لفرط احترامه له . أما حسن فقال : « وهل تعرف سمية ؟ »

فضحك عبد الله وقال : « كيف لا أعرفها وهى من قبيلتى ؟ »

قال : « وهل تعرف كل بنات قبيلتك ؟ »

قال : « كلا ، ولكن سمية مشهورة بجمالها وتعقلها ولطفها ، وقد اتفق لى انى رأيتها غير مرة يوم كنا فى العراق »

فسر حسن بهذه المصادفة وأراد ان يستخدم عبد الله فى البحث عن سمية أو مخابرتها فقال : « اذن اسمع ياعبد الله ، أريد أن أرسلك الى سمية فى مهمة فهل تذهب ؟ » . قال : « لك الأمر وعلى الطاعة »

فأعجب بلطف تعبيره وقال له : « بورك فيك ياعبد الله فاعلم انى قدمت فى هذا الصباح الى عرفجة ، وقضيت معه ساعة ، ولم أتمكن من مشاهدة سمية لأنها كانت مشغولة ونحن الآن سائرون الى مكة ولا ندرى متى نعود فهل أخرج من المدينة قبل أن أراها ؟ »

قال : « كلا بل يجب أن تراها وتخاطبها . هل أسألها موعدا للقاء ؟ »

قال : « لاتستعجل ياعبد الله . فانى أخاف أن يغضب أبوها اذا اطلع على ذلك لأنى سمعت بصرامته فى تحجبها ، فلا يليق بى أن أراها خلسة بعد أن خطبتها منه »

فأرسل عبد الله بصره الى بيت عرفجة وقال : « مادامت خطيبتك فلا بأس من رؤيتها وان لم يعلم أبوها . . أتأذن لى فى الدخول الى هذا البيت والاستفهام عن عرفجة فأحتال لابلاغها موعدك ؟ »

فاستعظم حسن الاقدام على هذا الامر ، ولكن رغبته فى رؤية سمية هونت عليه ذلك فقال : « انى ذاهب الى منزل سكينة ، وأنا أعلم ان سمية كثيرة التردد اليه ، فقل لها أن توافينى الى هناك »

قال : « سمعا وطاعة » . ومضى يسوق الجمل وهو يقول : «سأحمل اليك الجواب فى منزل سكينة ان شاء الله »

مجلس سكينة بنت الحسين

اما حسن فسار حتى وصل الى منزل سكينة بنت الحسين ، فرأى بجانب الباب حظيرة تربط فيها دوابها ودواب من يقدم اليها من الوفود، لأن منزلها كان مقصد الشعراء والأدباء وأهل الوجاهة من قريش وغيرهم . وكان حسن قد سمع جعجعة الجمال وجلبة الخدم قبل وصوله الى الدار، فلما وصل رأى كثيرا من الدواب وأكثرها للأضياف، ورأى بينها جمل ليلى الاخيلية

فلما انتهى الى باب بستان الدار دخل ولم يستأذن ، لأن الناس كانوا يدخلون منه الى دار الاضياف ويخرجون بلا استئذان، ومشى فى باحة كبيرة رأى فى بعض جوانبها غرفا عديدة فى صف واحد عرف انها دار الاضياف ، ثم رأى فى صدر البستان بيتا متقن البناء على بابه الخدم ، فعرف انه مسكن سكينة ، فتحول الى دار الاضياف . لعله يرى ليلى هناك فيقيم معها ريثما تأتى سمية فتكون له وسيلة الى مقابلتها ، فبلغ دار الاضياف والخدم يقومون باعداد الاطعمة من الذبائح ونحوها ، وقد سره اشتغالهم عنه لكى يتمكن من البحث عن ليلى ، فطاف الغرف غرفة غرفة فلم يجد أحداً يعرفه ، فظل ماشيا وهو يسمع ضجة من جهة مسكن سكينة بعضها من الخدم فى الخارج والبعض الآخر من الداخل. وكان يتخلل الضجة قهقهة وقوقأة مثل قوقأة الدجاج، فمشى الى مصدر الضحك فاذا هو فى غرفة بجانب باب المسكن وببابها بضعة رجال لم يعرفهم ، فدنا منهم وألقى التحية فردوا السلام وأبصارهم شاخصة الى داخل الغرفة ، فأطل حسن من فوق أكتافهم فرأى هناك رجلا قصيرا دميما ، قليل اللحم ، أزرق اللون ، أحول البصر ، أقرع الرأس ، أثط اللحية ، جلس القرفصاء على أكمة من التبن وهو يحضن بيضا ويقوقىء كما تقوقىء الدجاجة ، فاستغرب حسن ذلك ونظر إلى أحد الوقوف مستفهما فقال له الرجل : « ألا تعرف من هذا ؟ »

قال : « لا . . ومن هو ؟ »

قال : «أشعب الطماع الذى اتخذته سكينة بنت الحسين مضحكا لها»

قال حسن : « أسمع اسمه وأعرف بعض أخباره المضحكة ، ولكن منظره أضحك من أخباره . ما الذى أقعده هذا المقعد وهو يقوقىء كأنه يحضن بيضا ؟ »

قال الرجل : « بل هو يحضن بيضا حقيقة عقابا له على ذنب ارتكبه بين يدى سكينة مولاته ، فأمرته أن يقعد على هذا البيض حتى يفقس وقد مضى عليه أيام وهو على هذه الحال ! »

فشغل حسن بذلك المنظر عن قلقه لطول انتظاره خادمه ، وأراد أن يشغل نفسه هنيهة أخرى فقال : « يا أشعب ما الذى أجلسك هذا المجلس ؟ »

قال : « أجلستنى اياه مولاتى سكينة ، فهل فيكم من يخرجنى من هذا الحبس ؟ »

فقال حسن : « ومن يتوسط لك فى هذا الامر ؟ »

قال : « كأنى بليلى الاخيلية قد دخلت دار مولاتى اليوم ، فاذا كانت هنا ، فلا أرى أقدر منها على اخراجى من هذا المكان »

قال حسن : « هان الامر ، فلك على أن أوسط ليلى فى العفو عنك »

□

ولم يتم حسن كلامه حتى سمع صوتا يناديه ، فالتفت فرأى خادمه عبد الله واقفا على بضع خطوات منه فقال حسن : « ما وراءك ؟ »

فدنا عبد الله منه وقال : « دخلت البيت وسألت عن عرفجة فقيل لى انه خرج فى الصباح ولم يعد بعد ولا يعرف أحد مقره »

فابتدره حسن قائلا : « وسمية ؟ »

فقال : « وسألت عن سمية فعلمت انها ذهبت الى سكينة من برهة قصيرة فسررت بذلك وأتيت لأخبرك ، فهل رأيتها هنا ؟ »

قال : « لم أرها ولعلها فى البيت مع النساء ، فكيف أصل اليها ؟ . بورك فيك ياعبد الله ، امكث أنت بالباب مع الخدم والجمل معك حتى أخرج أو أحتاج اليك فى شىء »

قال : « سمعا وطاعة » . وخرج

وعاد حسن وقد شغل عن أشعب ونجاته بالبحث عن سمية ، ولما تصور انه سيتمكن من مقابلتها خفق قلبه . فلم ير وسيلة الى ذلك الا ليلى ، فجاء باب القاعة التى تستقبل سكينة فيها ضيوفها ، فرأى عليه

رجلا واقفا وقوف الحاجب فقال له حسن : « هل في مجلس بنت الحسين أحد ؟ »

قال الرجل : « ان مجلسها غاص بالناس ، وفيهم جماعة من الشعراء والشاعرات »

قال : « وهل فيهم ليلى الاخيلية ؟ »

قال : « نعم »

قال : « قل لليلى ان حسنا بالباب يدعوك اليه »

فدخل الرجل ثم عاد وليلى معه ، فلما رات حسنا رحبت به فمشى بها الى خلوة وقال لها : « انى مسافر الليلة وقد جئت لوداعك »

قالت : « رافقتك السلامة ووفقك الله فى مهمتك »

قال : « ولكنى أعرض عليك أمرا أرجو مساعدتك فيه الآن وهو لايتعبك »

قالت : « وما هو ؟ »

قال : « أتعرفين سمية بنت عرفجة ؟ »

قالت : « نعم أعرفها وقد رأيتها من برهة وجيزة جالسة بجانب سكينة تخاطبها وسكينة تلاطفها لأنها تحبها كثيرا . وأنت ما شأنك معها ؟ »

قال : « شأنى معها شأن الخطيب وخطيبته فهل هى لاتزال هناك ؟ »

قالت : « لقد سرنى انك خطبتها فانها زينة بنات المدينة . وأظنها باقية لأنى لم أرها خرجت . وعلى كل حال تعال معى فندخل القاعة فتمكث أنت مع الجلوس من الرجال وأدخل أنا الى مجلس النساء وراء الستار حيث تقيم سكينة وصاحباتها فأبحث عن سمية »

قال : « أرجو أن تجمعينى بها ساعة لايرانا فيها أحد سواك ، لانى خطبتها منذ ثلاثة أعوام وجئت المدينة بالامس ، وها أنذا خارج الآن ولم أشاهدها أو أخاطبها »

قالت : « لك على ذلك »

قال : « خير البر عاجله ، فانى مسافر عند الغروب »

قالت : « ألا تؤجل سفرك الى غد ؟ »

قال : « كنت أود ذلك ولكننى على موعد مع صديق لكى نسير معا ، وسيوافينى عند الغروب الى باب المدينة » . ثم غير مجرى الحديث فقال : « وأوصيك بأشعب الطماع فانه يحضن بيضا عقابا له على ذنب ارتكبه وقد وعدته بأن تتوسطى له لدى مولاته سكينة ، فلا تنسيه »

فضحكت وقالت : « قبحه الله ما أكثر مزاحه ، ولكنه وافق هوى فى نفس سكينة ، فهى كذلك تحب المزاح ، وقد تعودت معاقبته بمثل ذلك العقاب ، وحضن بيضا مرة حتى فقس وخرجت فراريجه فملأت الدار ، وهى تسميها (بنات أشعب) . انى ذاهبة وسأكلمها فى شأنه . فتعال معى واجلس مع الجالسين فاذا لقيت سمية أومأت اليك فتخرج »

◻

دخلت ليلى ودخل حسن فى أثرها . ثم أطل على القاعة فاذا هى واسعة وقد فرشت بالطنافس الثمينة ، وحولها الوسائد المزركشة وفى صدرها ستارة عليها صور أشجار وطيور ملونة خلفها سكينة ونساؤها بحيث ترى ضيوفها ولا يرونها

ورأى فى القاعة جماعة قد تصدرهم خمسة عليهم لباس البدو ، فسألها : « من هؤلاء المتصدرون ؟ »

قالت : « هم الشعراء . ألا تعرف أحدا منهم ؟ »

قال : « أظننى أعرف الجالس على الوسادة المثناة ، فهو الفرزدق ، وقد عرفته بضخامة بدنه وعبوسة وجهه وغلظه أليس هوالفرزدق ؟ »

قالت : « نعم انه هو بعينه . ألا تعجب من اجتماعه هو وجرير فى مجلس واحد مع ما اشتهر بينهما من المهاجاة ؟ »

قال : « وأين جرير ؟ »

قالت : « هو ذاك الذى كف شعره وادهن ، ومتى تكلم سمعت لكلامه غنة يخرج بها الكلام من أنفه كأن فيه نونا »

قال : « ومن هو الآخر القصير الدميم العظيم الهامة ؟ » . قالت : « هو كثير عزة العاشق المشهور »

قال : « أعاذ الله عزة من منظره فانه قبيح . ومن ذاك الشاب الجميل العريض المنكبين الحسن البزة . وكأنه جالس القرفصاء ؟ »

قالت : « هو جميل بثينة أحد عشاق بنى عذرة . ألا تراه حزينا لما اشتهر من حبه لها وحرمانه لذلك منها ؟ »

قال : « ومن ذلك الأسود . ؟ انى لأستغرب منظره ، والشعراء يندرون فى السود ؟ »

فضحكت وقالت : « هو نصيب الشاعر الفحل . وأما سواده فلأن أمه أمة ، وهو من قضاعة » . ثم أشارت عليه بأن يجلس على احدى

الوسائد وأن ينتظر ما يكون من شأنها مع سمية

فجلس وهو يخاف فوات الوقت ولم يكد يستقر به المقام حتى سمع لغطا من وراء الستار فاستبشر وظن أن ليلى تخاطب سكينة أو سمية . ثم رأى جارية وضيئة خرجت وقالت : « أيكم الفرزدق ؟ »

وكان حسن يتوقع أن تناديه فلما سمعها تنادى الفرزدق التفت اليه فرآه يقول : « ها أنذا »

قالت : « أنت القائل :

« هما دليانى من ثمانين قامة — كما انحط باز أقتم الريش كاسره
فلما استوت رجلاى بالأرض قالتا : — أحي فيرجى ؟ أم قتيل نحاذره ؟
فقلت: ارفعوا الأمراس لا يشعروا بنا — وأقلت فى أعجاز ليل أبادره »

قال : « نعم »

قالت : « فما دعاك الى افشاء السر ؟ خذ هذه الالف دينار والحق بأهلك » . فأخذها وانصرف . ثم دخلت الجارية على مولاتها وخرجت فقالت : « أيكم جرير ؟ » . فلما عرفها جرير نفسه قالت : « أنت القائل :

«طرقتك صائدة القلوب وليس ذا — حين الزيارة فارجعى بسلام
تجرى السواك على أغر كأنه — برد تحدر من متون غمام
لو كان عهدك كالذى حدثتنا — لوصلت ذاك وكان غير ذمام
انى أواصل من أردت وصاله — بحبال لا صلف ولا لوام »

قال : « نعم »

قالت : « أفلا أخذت بيدها وقلت لها ما يقال لمثلها ؟ . أنت عفيف وفيك ضعف ، خذ هذه الألف والحق بأهلك » . فأخذها وانصرف . ثم دخلت على مولاتها وخرجت وقالت : « أيكم كثير ؟ » فلما عرفته قالت : « أنت القائل :

« وأعجبنى يا عز منك خلائق — كرام اذا عد الخلائق اربع
دنوك حتى يدفع الجاهل الصبا — ودفعك أسباب المنى حين يطمع
وانك لا تدرين صبا مطلته — أيشتد ان لاقاك أو يتضرع
وأنك ان واصلت علمت بالذى — لديك فلم يوجد لك الدهر مطمع»

قال : « نعم »

قالت : « قد ملحت وشكلت ، خذ هذه الألف واذهب لأهلك » . ودخلت وخرجت وقالت : « أيكم نصيب؟ » . قال نصيب : « أنا هو »

قالت : « أنت القائل :

« ولولا أن يقال صبا نصيب — لقلت بنفسى النشأ الصغار

بنفسي كل مهضـــوم حشاها   اذا ظلمت فليس لها انتصار »
قال : « نعم »

قالت : « ربيتنا صغارا ومدحتنا كبارا ، خذ هـذه الألف والحق بأهلك » . فأخذها وانصرف . ثم دخلت وخرجت فقالت لجميـل : « مولاتى تقرئك السلام وتقول لك : (ما زالت مشتاقة لرؤيتك منذ سمعت قولك :

«ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة   بوادى القرى انى اذن لسعيد
لـكل حديث بينهن بشـاشة   وكل قتيل عندهن شهيد »

فجعلت حديثنا بشاشة وقتلانا شهداء خذ هذه الألف دينار والحق بأهلك » . فأخذها وانصرف

وكان حسن ينظر ويسمع ولا يستغرب مثل ذلك المجلس ، لأن اهتمام النساء بالشعر والأدب وجلوسهن لمثـل تلك المطارحة كان شائعا فى تلك الأيام ونبغ من النســاء شاعرات ماهرات منهن ليلى الاخيلية وغيرها . ولكنه استغرب اهتمام سكينة على رفعة مقامها بمباحثة الشعراء فيما قالوه ونظموه . وكان يسمع ويرى وهو قلق البال لتأخر ليلى عنه ولم يكن يدرى كيف يدعوها أو يستعجلها فرأى أن يسمعها صوته ، وكان قد لاحظ وجود صور للطير والأشجار على الســتار الحاجز بين مجلسى الرجال والنســاء ، كما لاحظ وجود أمثالها على الوسائد ، فرأى أن يتخذ من ذلك موضوعا لاسماع ليلى صوته . وما كادت الجارية تفرغ من مخاطبة الشعراء وتهم بالدخول بعد أن انصرفوا ، حتى استوقفها وقال : « تمهلى يا بنية »

فوقفت والتفتت اليه فقال لها : « لقـد باحثت هؤلاء الشعراء وأفحمتهم فانصرفوا فهل أسألك سؤالا ؟ »

قالت : « قل ما تشاء »

قال : « أرى على ستاركم صورا وقد قال رسـول الله (صلعم) : (أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون) . . ؟ »

فأشارت الجارية اليه أن يتمهل ودخلت الى سيدتها ، ثم عادت اليه وقالت له : « وما يضرنا وما نحن من المصورين ؟ »

قال : « ولكنكم اتخذتم تلك الصور أســتارا . ولو كانت تلك صور أشجار فقط لهان أمرها ، ولكنها صور لذوات أرواح ، وفى الحديث (ان الملائكة لا تدخل بيتا فيه الصورة) . . »

وهنا سمع صوتا جهوريا من وراء الستار يقول : « لا تنس تتمة الحديث (الا رقما فى ثوب) . » . فأدرك أن ليلى هى المتكلمة ، وسكت

بينما عادت الجارية الى مجلس النساء ولبث هو على مثل الجمر لا يدرى ماذا يصنع ، والتفت نحو نافذة عالية فرأى الشمس قد مالت الى الغروب فازداد قلقه وخشى أن يطول انتظار صاحبه سليمان بباب المدينة

▭

وبينما هو يفكر فى ذلك اذ سمع لغطا وراء الستارأعقبه ضحك كثير وصوت يقول : « قد أطلقنا سراحه اذهبى يا بنانة وأخرجيه ، قبحه الله ما أخبثــه » . فأدرك ان سكينة هى المتكلمة ، ولكنه ظنهـا تريد اخراجه هو فاضطرب . ثم ما لبث أن رأى ليلى خارجة وهى تشير اليه أن يتبعها ، فسار فى أثرها حتى خرجا من القاعة فدنت منــه وقالت : « لا تخف انها لم تأمر باخراجك ولكنها أمرت باخراج أشعب الطماع لأنى أوصيتها به عملا باشارتك »

فقال : « بورك فيك ، ولكن أين سمية ؟ »

قالت : « ليست هنا ، كانت فى المجلس وخرجت قبل أن أراك »

فاستعاذ حسن بالله وانقبضت نفسه ثم قال : « هل أنت على يقين مما تقولين ؟ »

قالت : « لقد تحققت خروجها فلعلها خرجت الى بيت أبيها لانها لا تستطيع الغياب طويلا عنه »

وفيما هما يتكلمان رأيا أشعب مهرولا نحوهما ، فلما بلغ مكانهما هم بتقبيل يد حسن وقال : « جزاك الله عنى خيرا فقد أنقذتنى من عذاب طويل لأن البيض لم يكن ليفقس قبل بضعة أيام ، فأسأل الله تعالى أن يقدرنى على مكافأتك . هل أستطيع خدمتك فى شىء ؟ »

قال حسن : « انى لم أفعل مايستحق هذا الثناء » . ثم التفت الى ليلى كأنه يريد الرجوع الى الموضوع ، فتنحى أشعب قليلا وقال حسن : « أستودعك الله يا ليلى ، وأرجو أن أراك فى خير » . فقالت : « أسأل الله لك السلامة والنجاح »

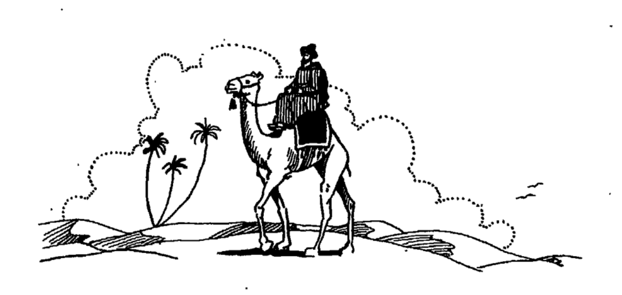
وعجل حسن بالخروج لعله يلقى سمية فى الطريق أو فى البيت أو فى مكان آخر . فلما خرج وجد خادمه عبد الله فى انتظاره ومعه الجمل ، فركب والشمس قد آذنت بالمغيب وبان الشفق الأحمر ، وما زال يحث جمله حتى بلغ بيت عرفجة فأحس بشىء استوقفه بغتــة وما هو الا عامل الحب أوقفــه بجانب منزل الحبيب . فلم يتمالك أن نادى

عبد الله ، فجاء هذا ووقف بين يديه وهو يقول : « هل أسأل عن سمية فلعلها عادت ؟ »

فأعجب حسن بنباهته ودقة شعوره ، وابتسم ولم يجب ، فأسرع عبد الله الى البيت ثم عاد وهو يقول : « انها لم تعد يا سيدى »

فتنهد حسن ، وخيل اليه أن سمية باقية هناك فى بيت سكينة ولكن ليلى لم ترها ، أو انها رأتها واخفت أمرها . وتكاثرت عليه الهموم وتراكمت الظنون ـ والمحب سيء الظن كلما اشتد حبه كثرت هواجسه وزاد سوء ظنه بحبيبته وأكثره من قبل الغفلة ، فاذا رأى حبيبه يخاطب أحدا مهما يكن من شأنه أو مقامه أو قرابته تبادر الى ذهنه أن يغازله أو يسر اليه أمرا ، واذا أبطأ عليه بالزيارة سبق الى فهمه أنه فى موعد مع آخر أو لا يحبه أو يحب سواه . وقد يخيل له ان أهل الحبيب كلهم ضده وأنهم يمنعونه منه فاذا تخاطبوا همسا أو قصروا معه فى شأن خيل له أنهم يريدون به سوءا أو هم ينصبون له أحبولة فالمحب كثير الهواجس سيء الظنون

فلا تلم حسنا اذا أساء الظن بليلى وحسبها تآمرت على اخفاء سمية عنه . وقضى برهة فى مثل هذه الهواجس وهو على جمله ، ثم انتبه فاذا بالظلام يتكاثف وتذكر صديقه سليمان فأجفل وشق عليه تأخره عن الموعد مع ما أبداه الرجل من الرغبة فى مرافقته وبالغ فى اكرامه والتقرب منه ، فاستحث جمله وطلب باب المدينة وقد يئس من مشاهدة سمية ، وان علل نفسه بلقائها عند رجوعه من مكة



المفاجاة السارة

سار حسن بضع دقائق صامتا حتى أشرف على باب المدينة ، ومن ورائه المستنقعات والتلال وغابات النخيل . وفيما هو ينظر الى ما وراء الباب اذا بشبح وقف له فى الطريق هاتفا باسمه فالتفت حسن وقلبه يخفق لشدة وقع ذلك الصوت على أذنه ، ثم أمسك زمام جمله ونظر الى الشبح فاذا هو امرأة ، فحدثه قلبه بأنها سمية فوثب على الارض حتى وقف بين يديها ، وتنحى عبد الله وقد أخذ بزمام الجمل وتشاغل باصلاح الرحل .

أما حسن فانه نادى : « سمية ؟ »

قالت : « نعم ، ومن الذى معك ؟ »

قال : « هو خادم أمين لا تخافى منه . ما الذى جاء بك الى هنا فى هذا الليل ؟ أأنت سمية حقيقة ؟ !.. ما ألطف هذا اللقاء وما أسعد هذه الساعة ! . سمية حبيبتى قولى ما بدا لك »

فتنهدت وأسندت كتفها الى حائط هناك وتشاغلت باصلاح نقابها ، وسكتت

وقد سر حسن لسعيها الى ملاقاته ، ولكنه أوجس خيفة مما دعاها الى ذلك لما يعهده فى أبيها من الشدة والغلظة فقال لها : « انى لا أرى فى هذه الدنيا أحدا أسعد منى الآن ، وقد بذلت الوسع فى سبيل الحصول على هذه المقابلة فلم أفز ، وها قد أتتنى الساعة عفوا فالحمد لله ، ولكننى أخشى أن يكون لهذه المخاطرة سبب يسوء » . فتحيرت سمية ولم تدر بم تجيبه فلبثت صامتة ، فازداد هو قلقا وقال لها : « ما بالك ؟ قولى . لعلك علمت بذهابى الى مكة فخفت خطرا يهددنى هناك ؟ »

فلما سمعت ذكر الخطر أجابته والبكاء يخنق صوتها : « نعم أخاف عليك الخطر ، ولكن ليس فى مكة فقط بل .. » . وشرقت بالدمع فانقطع صوتها

فتقطع قلب حسن ومد يده فأمسك أناملها ، وهى أول مرة قبض فيها على تلك الأنامل ، فأحس برعشة تملكته وقال لها : « ماذا ؟ . قولى يا سمية . يا مالكة قلبى . هل تخافين على أحدا فى هذه المدينة أيضا ؟

انك ما دمت لى لا تحبين سواى فلست أبالى بعد ذلك اذا كان أهل الارض كلهم أعدائى ! »
قالت : « واذا كنت أنا عدوتك ؟ »
فحمل منها ذلك على قصد المزاح وقال لها : « اذا كنت أنت عدوتى فلا غرض لى فى الحياة . بالله قولى ما فى نفسك . ممن تخافين على ؟ فأريك دمه مسفوكا ولو كان حوله جيش جرار . قولى »
فتنهدت ومسحت دموعها بطرف نقابها وهى تقول : « لا أريد أن أرى دمه مسفوكا »
فتعجب وقال : « وماذا اذن ؟ افصحى يا سمية . قولى . ممن تخافين على ؟ فقد نفد صبرى وطال تأخرى عن الخروج من المدينة ولى صديق ينتظرنى فى الخارج . قولى »
قالت : « انى أعد قولى عقوقا منى . ولكننى أسيرة حبك لا أرى لى حياة الا بك »
فقطع حسن كلامها وقد أدرك ما تريده فقال : « قد فهمت ماتريدين . انك تخافين على من أبيك . أليس كذلك ؟ »
قالت : « نعم » . واستغرقت فى البكاء حتى كاد يغمى عليها وكان هو ما زال ممسكا بيسراها ، فأمسك بيدها الأخرى وقال لها : « ولا هذا يهمنى ما دمت تحبيننى . هل تحبيننى يا سمية ؟ »
فصعدت الزفرات ولم تجب ، فقال : « فاذا كنا متحابين فمن ذا يحول بيننا ؟ »
وسكت برهة وقد عظم عليه الأمر ثم قال : «وما الذى دعا أباك الى بغضى والحاق الأذى بى وأنا لم أرتكب منكرا ولا أسأت اليه فى شىء ؟ »
قالت : « ذنبك أنك أحسنت اليه . أو لعل ذلك من سوء حظى . ولكن ما لنا ولهذا ، ان الوقت لا يأذن بطول الشرح . فأخبرك أن أبى لايريدك ، وأخاف أن يسعى فى أذاك ، وقد علمت ذلك على أثر خروجك من منزلنا ، فأردت اطلاعك على جلية الخبر لتكون على بصيرة »
قال : « أما الحاق الأذى بى فانى لا أخافه ، ولكننى أخاف أن يلحق الأذى بك أنت »
قالت : « لقد أظهرت له الطاعة والرضا ريثما أراك ثم أفعل ما تأمرنى بى »
فأطرق حسن ثم قال : « انى مغلول اليدين بما أخذته على نفسى من أمر السفر الى مكة عاجلا فى مهمة لرجل أحبه وله على فضل كبير .

وكنت أحب أن أدعوك للذهاب معي ولكنني ذاهب الى مكان به الحرب قائمة فلا أريد تعريضك لهذا الخطر »

فقطعت كلامه قائلة : « وكيف تعرض نفسك للخطر ؟ ان مكة اليوم فى أضيق حصار وأهلها فى ضنك شديد . بالله ألا عدلت عن الذهاب ثم تفعل ما تريد ؟ »

قال : « أما الذهاب فلا بد منه فامكثى أنت هنا واظهرى الطاعة حتى أعود ونرى ما يكون . ولست أخشى بأسا ولا خطرا ما دمت لا تحبين سواى » . ثم سمع جعجعة الجمـل فانتبه للوقت وقال لها : « كنت أود ألا نفترق منـذ الآن ولكن للضرورة أحكاما . وسأرسـل عبد الله معك الى منزلك لأن الليل قد أظلم ولا آمن عليك المسـير وحدك ، فهل تسيرين الى بيت أبيك ؟ »

قالت : « لا ولكنى أعود الى بيت سكينة لأن أبى يعلم أنى سرت اليها فاذا استبطـأنى سأل عنى هناك فاعتذر عن تأخرى ، وذلك من غيرأن يرانىعائدة الى البيت وحدىفىهذا الليل. ولكنكيف أفارقك؟ »

قال : « تشددى يا سمية ان سفرى هذا لابد منه ، ولكنه سيكون آخر الأسفار باذن الله ثم نعود ونعيش معا »

فلما قال ذلك بكت سمية حتى سمع صوت بكائها فانفطر قلبه ، وكاد يشاركها البكاء لولا أنه تجلد وقال لها : « لا تبكى يا سمية بل اتكلى على الله واعلمى أنى عائد اليك على عجل » . قال ذلك ونادى عبد الله وقال له : « أوصل سمية الى بيت سكينة ، ثم الحق بى فى الطريق المؤدى الى العقيق ، فانى سابقك الى هناك ، فقد ابطأت على سليمان وأخاف أن يكون قد سبقنى أو عاد الى منزله »

☐

سارت سمية وهى تقول لحسن : « سر فى حراسة الله ، وأساله ان ينصرك على أعدائك » . وظل صوتها يرن فى أذنيه حتى توارت عنه ، فركب جمله وساقه الى باب المدينة ولم يكن مقفلا فالتفت يمنة ويسرة فلم ير سليمان

فخرج وهو يمشى الهوينى ويصيخ بسمعه لعله يسمع صوتا ، وجعل يحدق بعينيه لعله يرى أحدا فسار والجمل دليله بين تلك المستنقعات . ولكنه لم يسر طويلا حتى سمع جعجعة جمل عن بعد فاستوقف جمله وأصاخ بسمعه وحول الزمام الى جهة الصوت وساق

الجمل سوقا بطيئا فمشى به بين النخيل والظلام سادل ستاره والسكوت سائد فلم يكن يسمع غير وقع خفاف الجمل على العشب أو الطين

وبعد قليل سمع حسن صوت بكاء وأنين ، فوقف وأصغى ، فسمع صوتا عميقا ، وخشي أن يجعجع جمله فيشوش الصوت فترجل عنه وعقله وشده الى نخلة ، ثم مشى على قدميه وهو يتلمس الارض مخافة أن يخوض فى الأوجال حتى تحول عن الطريق الأصلى الى ساحة لا نخيل فيها ولا عشب ، فرأى جملا معقولا وشبحا متوسدا الى جانبه وفوق رأس الشبح شبح آخر يبكى وينتحب . فاختبأ حسن فى منعطف بحيث يرى ويسمع ولا يراه أحد ، فسمع صوتا يقول : « يا لتعاستى وشقائى ! . لقد فتكت بك يا ولدى وفلذة كبدى ، انى لأستحق هذا القصاص ، ولكن ما ذنبك أنت ؟ تبا لى ما أتعس حظى ! . ولدى ! حبيبى ! كلمنى يا سليمان . سليمان . . سليمان »

فلما سمع حسن اسم سليمان علم أنه صديقه ، فاقشعر بدنه وخشي أن يكون قد أصابه سوء بسببه ، فنهض ومشى ويده على قبضة سيفه حتى أقبل على الشبحين ولم ينتبه له أحد

ثم سمع الشبح الراقد يقول بصوت ضعيف : « لا تحزن يا أبى فقد ذهبت فداء صديق لى هو أحق بالحياة منى »

فقال الآخر : « أظنك تعنى هذا الشقى لأنه وفى بعهده . انى عاهدت الله على نصر الحسين والقتال فى سبيله وجعلت نفسى فى عداد التوابين ، ثم رجعت لخدمة هؤلاء الطغاة . وكثيرا ما رايتك غير راض بذلك ، فلم أكن أصغى اليك حتى ضربنى الله هذه الضربة على قلبى ! »

فتحقق حسن أن الراقد سليمان ، وأنه فى ضيق ، فلم يتمالك عن أن صاح قائلا : « سليمان ؟ »

فأجفل الرجل الجالس وحسب الجن تخاطبه ، فوقف للحال وقال : « انسى أنت أم جنى ؟ » . وكان الرجل كهلا فى نحو الستين من عمره والشيب قد جلل رأسه وهو طويل القامة دقيق العضل قصير اللحية صغير العمامة . ولم يتم الرجل سؤاله حتى كان حسن بين يديه وقد أكب على سليمان وهو راقد على ظهره وفوقه القباء وقد تلطخ بالدم فتفرس فى عينيه فاذا هو يفتحهما فتحا ضعيفا ويتألم فأمسكه حسن بيده وقال له : « سليمان ؟ . أخى سليمان ! ماذا أصابك ؟ »

وكان لذلك الصوت وقع عظيم على أذنى الجريح ، ففتح عينيه وصاح : « حسن ؟ أشكر الله على أن جعلنى فداءك »

ولم يتم سليمان كلامه حتى تقدم الرجل الآخر وقال : « حسن ؟

انت حسن ؟ . يا لله ما هذه المصيبة التى نزلت بى بسببك ولكن الذنب ليس ذنبك وانما هو ذنبى أنا الشقى التعس ! »

فأدرك حسن ان الكهل والد سليمان ، وانه كان يترصده فأصاب ابنه خطأ . فصرف عنايته الى انقاذ حياة سليمان ، وحاول أن ينهضه قائلا لأبيه : « الى بالماء» . فجاءه بشىء منه من مستنقع قريب ، فرش به وجه سليمان وغسل موضع الجرح فى أعلى الصدر ، وكان قدأصيب بنبلة أخرجها أبوه

وكان حسن قد تعلم بعض الوسائل الطبية من معاشرة خالد بن يزيد الاموى فى دمشق ، لأن خالدا كان شديد التعلق بالعلوم الطبية حتى فاق بها سائر قريش ، وكان بصيرا بصنعة الكيمياء والطب متقنا لهما ، وألف فى ذلك بعض الكتب والرسائل وقد أخذ العلم عن راهب اسمه « يانس » . ولم يكن مجلس خالد فى دمشق يخلو من اهل العلم فكان حسن يجالسهم ويسمع أقوالهم

فلما غسل الجرح ضغطه ، وأمر أبا سليمان بايقاد النار فأوقدها بالزناد ، ثم انتظر حسن حتى تكون بعض الرماد فأخذ قليلا منه وذره فوق الجرح وربطه

ثم سأل عن ماء للشرب فقال الرجل : « ليس معى قربة »

فقال حسن : « اسند ظهره لآتيك ببعض الماء من قربتى » . قال ذلك ونهض ، ثم تحول نحو النخلة التى عقل جمله عندها فلم يجد الجمل هناك فطار صوابه لأنه كان قد ترك كتاب خالد بن يزيد فى مخبأ بالرحل الذى فوق الجمل حرصا عليه ، وهذا الى ان الجمل كان عزيزا عنده وعليه عدته وثيابه والماء وكل شىء . على انه لم يشأ أن يضيع الوقت وسارع الى اقتفاء آثار الجمل ، وكان قد لاحظ ان حل عقال الجمل لايدل على حدوث عنف ، فتبادر الى ذهنه انه لم يعقله عقلا متينا فانحل من تلقاء نفسه ، وانطلق الجمل هائما على وجهه أو يطلب المرعى هنا وهناك

وسار حسن فى طلب الجمل مضطربا خائفا لأنه غريب فى تلك البلاد ، ثم وقف ونظر الى ماحوله من الغياض والبساتين والظلام حالك ، فلاح له ظل يتراءى بين النخيل أمامه ، فتفرس جيدا وأصغى بسمعه فسمع هدير جمل هناك فأخذ طريقه اليه ، ولاحظ ان ذلك الشبح يبتعد ، فسارع السير فى أثره وهو يتعثر بالاعشاب والاحجار ونظره شاخص اليه ، وما زال يمشى والشبح يمشى أمامه حتى خرجا من بين النخيل الى الفلاة ، فما كاد حسن يتفرس فى الشبح حتى أدرك انه هو جمله فواصل السير فى أثره ، وكان الجمل أجفل من المطاردة فأسرع فى سيره ، وظل سائرا مدفوعا برغبته فى القبض عليه حرصا على ما يحمله

جميـــل وبثينـــة

وفيما هو يركض ويلهث اذا به يرى شيخا عليه لباس الرعاة يسير عارى الراس وقد غرس عصاه فى قفا طوقه ، وعليه عبـاءة قصـيرة وخشونة البداوة بادية فى وجهه مع شـدة الظلام . فنـاداه حسن : « يا أخا العرب ، ألم تر بعيرا راكضا هنا ؟ »

وما اتم حسن سؤاله حتى أسرع الرجل اليه وامسك بذراعه وضغطها بشدة فى حين أشار اليه أن يسكت وينتظر ، فالتفت حسن الى ماحوله فرأى شجرة كبيرة على أكمة ورأى هناك ظلا يتحرك ، فهمس فى أذن الشيخ قائلا : « ما شأنك ؟ . أخبرنى »

قال : « لقد اتفق لى اليوم حادث غريب مع رجل لقيته على غير معرفة فاذا أصغيت لى قصصت الخبر عليك ، ثم نذهب ونستطلع بقيته معا عند تلك الشجرة » .

قال حسن : « ولكن هل رأيت جملا راكضا من هنا ؟ »

قال : « نعم رأيته وأظنه طلب هـذا الوادى ، ولا تخف عليه فانى كفيل برده اليك ، لأنى أعرف رجال الحى وهم يعرفوننى ، والابل سارحة عندهم ولاخوف عليها »

قال حسن : « وأى واد هذا ؟ »

قال : « هو وادى القرى »

قال حسن : « أليس هو موطن بنى عذرة المعروفين بشدة عشقهم وعفتهم ؟ »

قال : « هو بعينه . والحادث الذى وقع لى اليوم يكشف لنا عن حقيقة ما نسمعه عن هؤلاء . فأعرنى سمعك لأقص عليك الخبر » .

فمال حسن الى سماع الحديث ، وأهل الغرام يميلون الى أحاديثه ، فقال الرجل : « قضيت فى هذه الاودية معظم فصل الربيع أرعى ابلى ، فجاءنى فى أصيل اليوم رجل طويل القامة منطو على رحله كأنه جان ، فسلم على ثم قال : (ممن أنت يا عبـد الله ؟) . فقلت : (أحـد بنى حنظلة) . قال : (فانتسب) . فانتسبت حتى بلغت فخذى الذى أنا منه . ثم سـألنى عن بنى عذرة أين نزلوا فقلت له : (هل ترى ذلك

السفح انهم نزلوا من ورائه) . قال : (يا أخا بنى حنظلة ، هل لك فى خير تصطنعه لى ، فوالله لو أعطيتنى ما ترعاه من هـذه الابل ما كنت بأشكر عليها منى لك عليه)

« فقلت : (نعم ومن أنت ؟) . قال : (لاتسألنى من أنا ، ولن أخبرك بأكثر من انى رجل بينى وبين هؤلاء القوم مايكون بين بنى العم ، فان رأيت أن تأتيهم فانك تجد القوم فى مجلسهم فتنشدهم بكرة ادماء تجر خفيهـا عقـلاء من السـنة . فان ذكروا لك عنها شيئا فذاك ، والا فاستـأذنهم فى دخول البيـوت وقل : ان المرأة والصبى قد يريان مالا يرى الرجال . فاذا أذنوا لك فادخل بين البيوت واسـأل أهلها حتى لاتدع أحدا تصيبه عينك ولا بيتا من بيوتهم الا وقفت به وسألت) . . »

فدهش حسن واشتدت رغبته فى سماع بقية القصة ، وعاد الشيخ الى الـكلام فقال : « فأتيت القوم فاذا هم على جزور يقتسـمونها ، فسلمت وانتسبت لهم ونشدتهم ضـالتى ، فلم يذكروا لى شيئا ، فاستأذنتهم فى دخول البيوت وقلت : (ان الصبى والمرأة قد يريان مالا يرى الرجال) . فأذنوا . فأتيت أقصاها بيتا ثم مضيت أطوف بها بيتا بيتـا أسألهم فلا يذكرون شيئا . حتى اذا انتصف النهار وآذانى حر الشمس وعطشت وفرغت من البيوت وذهبت لأنصرف ، حانت منى التفاتة فاذا بثـلاثة أبيات فقلت فى نفسى : (ماعنـد هؤلاء الا ماعنـد غيرهم) . ولكنى عدت فقلت لنفسى : (أيثق بى رجل يؤكد ان حاجته تعدل كل مالى ثم آتيه فأقول عجزت عن ثلاثة أبيات ؟) . فانصرفت عامدا الى إعظمهـا ، فاذا أهله قد أرخوا مؤخره ومقدمه ، فسـلمت فردوا السلام . وذكرت ضالتى فقالت جارية منهم : (ياعبـد الله قد أصبت ضالتك، وما أظنك الا قد اشتدعليك الحر واشتهيت الشراب) . قلت : (أجل) . قالت : (أدخل) . فدخلت فأتتنى بصفحة فيها تمر من هجر ، وقدح فيه لبن ، والصفحة مصرية مفضضـة والقدح لم أر اناء قط احسن منـه . فقالت : (دونك) . فأكلت التمر وشربت من اللبن حتى رويت . فقلت : (يا أمة الله ، والله ما أتيت أكرم منـك ولا أحق بالفضل ، فهل ذكرت عن ضالتي شيئا) . فقالت : (هل ترى هذه الشـجرة فوق الشرف ؟) . قلت : (نعم) . قالت : (ان الشـمس غربت أمس وهي تطوف حولها ، ثم حال الليل بينى وبينها) . فظننتنى فهمت مرادها فقلت : (جزاك الله خيرا ، والله لقد تغديت ورويت) . ثم مضيت فأتيت تلك الشـجرة وطفت بها فمـا رأيت أثرا . فأتيت صاحبى فاذا هو متشح بكسائه وقد قبع بين الابل ورفع عقيرته يغنى فقلت : (السـلام عليكم) . قال : (وعليكم السـلام ، ما وراءك ؟) . قلت : (ما ورائى شيء) . قال : (لا عليـك ، فأخبرنى بما فعلت) .

فقصصت عليه القصة حتى انتهيت الى ذكر المرأة وأخبرته بما صنعت فقال : (قد أصبت طلبتك) . فعجبت لأنى لم أجد شيئا . ثم سألنى عن صفة الاناءين والصفحة والقدح ، فلما وصفتها له تنفس الصعداء وقال : (قد أصبت طلبتك والله) . ولما ذكرت له حديث الشجرة وغروب الشمس وهى تطوف حولها ، بدا البشر فى وجهه وقال : (حسبك) . ففهمت أنها ضربت له موعدا للقائه عند هذه الشجرة بعد الغروب . ومكث حتى أوت ابلى الى مباركها ، فدعوته الى العشاء فلم يدن منه وجلس منى بمزجر الكلب . حتى اذا ظن انى نمت ، قام الى عيبة له فأخرج منها بردين، ارتدى أحدهما وائتزر بالآخرثم انطلق نحو الشجرة . وهو الذى تراه جالسا هناك بقرب جذع الشجرة ، وسنرى مايكون من اجتماع الحبيبين »

□

أمسك الشيخ حسنا بيده ، وجذبه الى الجلوس بجانبه على الارض بين شجيرات هناك ، ثم أشار بيده صامتا نحوشبح صاعد من الوادى وعليه لباس النساء ، ومعه شبح آخر وقال : « هذه هى الفتاة ومعها خادمتها ، اضطجع مكانك لنرى مايكون »

فانبطحا ، وبعد قليل زحفا حتى اقتربا من الشجرة واختفيا فىمكان بحيث يريان ويسمعان مايدور بين الفتى والفتاة

ولو أن الليلة كانت مقمرة ، لتبين لهما ما ارتسمعلى وجه الفتى حين وصلت الفتاة ، فوقف وتقدم للقائها وهويحسب نفسه فىخلاء وظلمة. وكان قلب حسن فى أثناء ذلك يضرب ضربات سريعة مخافة أن يرى من الحبيبين ما يخجله أو يهيج غيرته ، فندم على اصغائه للشيخ الراعى لما فى اختلاس أسرار الناس من أمر منكر . على انه أحس بميل شديد لاستطلاع مايدور بين هذين العاشقين . واستطلاع مثل هذه الاسرار مما تتوق اليه النفس . والميل الى ذلك عام فى الناس على اختلاف طبقاتهم وان تفاوتوا فى احترام تلك الاسرار والاغضاء عن استطلاعها عملا بالآداب العامة

وملتقى الحبيبين على هذه الصورة تميل النفس الى رؤيته ولا سيما عند أهل الغرام فلا عجب اذا اختلج قلب حسن واصطكت ركبتاه واقشعربدنه. ولم يكنسبب ذلك التأثر الا توقعه أمرا يخاف أن يراه ولايريد أن يفوته . ولكنه ماكاد يرى العاشق واقفا لرد التحية حتى عرف من طول قامته وغنة صوته انه جميل الذى رآه أصيل ذلك اليوم فى مجلس سكينة . فتحقق ان الفتاة هى بثينة ، لأنه كثيرا ماكان يسمع

أحاديث غرامهما وكيف منعه أهلها منها ولكنه مازال يحبها حبا مفرطا ، كما انها تحبه هي أيضا . وكان حسن يسمع بحب بني عذرة وعفافهم ولكنه لم يكن يصدق ان مثل ذلك الملتقى في ذلك الخلاء على غفلة من الرقباء يكون مقصورا على القاء التحية

وكانت الفتاة مقنعة فجلست على حجر وجلس جميل على حجر لايمس ثوبه ثوبها ولايده يدها . جلسا متقابلين ينظر أحدهما الى الآخر ولايفوه بكلمة الا ماكان عتابا أو تشاكيا ، ولايقولان فحشا ولا هجرا . فاستغرب حسن مارآه من العفة الصادقة ، ثم سمع الفتاة تنادي خادمتها وكانت الخادمة قد وقفت على مقربة منهما ، فجاءت تحمل قصعة من الطعام فجلسا يأكلان ويتحادثان فلما فرغا من الطعام قالت بثينة : « بلغني انك قلت في أشعارا فهل أنت على حبك ؟ »

قال : « لا أعرف في لغة البشر لفظا يعبر عما في قلبي ، فانه أعظم من الحب ، وأشد من الغرام ، وأرقى من العبادة . لا أدرى ما هو يا بثينة فاذا اكتفيت بتسميته حبا فاني لا أراه يؤدى ما في قلبي »

قالت : « وكيف ذلك ؟ »

قال : « لا أدري ياحبيبتي . لا أدرى كيف هو ولا ما هو ! » . ثم صعد الزفرات وقال : « انما أعلم انك نصب عيني أينما سرت وحيثما جلست وكيفما نظرت . ان بثينة أمام عيني ، أراها جسما واضحا ومن عداها من الناس أراهم أشباحا أوظلالا . ولم أسمع اسمها الا اضطربت جوارحي وخفق قلبي ، ولا أرى راحة الا بالبكاء ، حتى قلت :

(خليلي فيما عشتما هل رأيتما قتيلا بكى من حب قاتله قبلي؟) . »

فقالت بثينة : « اذا كنت أنت كذلك فكيف أنا ، ولكننا معشر النساء مقضي علينا بالتعب والشقاء ، فلا تقدر احدانا على بث شكواها الى أحد لئلا يثلم عرضها . وأما أنتم معشر الرجال فلكم الحرية كلها . وانت تزعم انك تحبني حبا لاتدرى مقداره . فهل يهجر محب حبيبه وقد أحبه الى هذا الحد ؟ فوالله ما أعلم ماتسمعه عني أوتقوله في أثناء الغياب الطويل . ولا أدرى موقع بثينة ممن يقع بصرك عليهن ؟ » . قالت ذلك بنغم الدلال فازداد جميل هياما وقال لها :

« اني لأحفظ غيبكم ويسرني اذ تذكرين بصالح أن تذكري
ويكون يوم لا أرى لك مرسلا أو نلتقي فيه ، على كأشهر
يا ليتني ألقى المنية بغتة ان كان يوم لقائكم لم يقدر
لا تحسبي اني هجرتك طائعا حدث لعمرك رائع أن تهجري
بهواك ماعشت الفؤاد وان أمت يتبع صداي صداك بين الأقبر»

فما تمالكت بثينة عند سماعها قوله أن غصت بريقها وقالت .
« وهل أنت الذى قلت :

« ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة بوادى القرى انى اذن لسعيد
وهل ألقين فردا بثينة مرة تجود لنا من ودها ونجود »

قال : « نعم »

قالت : « وما الذى ترجو أن نجود به ونحن بنو عذرة ؟ »

قال : « لا أطمع منك بغير الحديث والنظر ولو كان من وراء نقاب

« لا ، والذى تسجد الجباه له مالى بما تحت ثوبها خبر
ولا بفيها ولا هممت بها ما كان الا الحديث والنظر »

فأطرقت بثينة خجلا ثم قالت : « ذلك عهدنا بجميل ، ولولا ذلك ما رأيتنى أسعى اليك وحدى »

فلا تسل عن استغراب حسن والراعى مارأياه حتى هانت على حسن نفسه لأنه لم يكن يظن إنه يستطيع ما استطاعه جميل اذا التقى بسمية

قضى جميل وبثينة ساعة فى مثل ذلك ثم نهضت فودعته أحسن وداع ، فودعها بمثله ، وانصرف كل منهما فى سبيله وكل منهما يمشى خطوة ثم يلتفت الى صاحبه

فلما تواريا نهض حسن من بين الاعشاب مذهولا وقال للرجل : « لقد رأيت منظرا طالما تاقت نفسى لمشاهدته ، انه منظر يخجل منه كل ضعيف النفس دنىء الطبع . ان العفة يا أخا العرب خير ما فى الفضائل »

فقال الشيخ وهو ينقر بعصاه على عباءته لنفض التراب عنها : «كيف لا وقد سمعت ابن عباس رضى الله عنه يقول قال رسول الله — صلعم — (من عشق فعف فمات فهو شهيد) . وقال أيضا : (عفوا تعف نساءكم) . »

فقال حسن : « صدق رسول الله ، وان بنى عذرة كلهم لشهداء فقد بلغنى مثل ذلك عن كثير من عشاقهم ولكننى لم أصدق حتى رأيت ذلك رأى العين »

ثم انتبه حسن لما هو فيه من أمر جرح سليمان وضياع الجمل فقال للراعى : « أين الجمل يا أخا العرب فقد وعدتنى باحضاره »

قال : « امكث هنا حتى آتيك به » . قال ذلك وانحدر فى الوادى حتى توارى عن النظر ، ولكن صوت الاحجار المتدحرجة تحت قدميه مازال مسموعا ، ثم ساد السكون فجلس حسن تحت الشجرة ولبث ينتظر عودة الشيخ وقد استوحش المكان

ولما خلا حسن الى نفسه تحت الشجرة جالت به هواجسه فى عالم الخيال فانتقل ذهنه مما شاهده فى ذلك المساء الى سمية وحاله معها . ثم الى خادمه عبد الله وتأخره ، ثم الى سليمان وأبيه ، ثم عاد الى الجمل الهارب بكتاب خالد فرأى انه أهمل البحث عنه بتربصه هناك لمشاهدة لقاء ذينك الحبيبين . ولكنه اعتذر بأنه انما فعل ذلك مرغما ؛ فلو انه لم يطع الشيخ الراعى وظل فى مسيره لما وجد الى جمله سبيلا لأنه يجهل تلك البقاع ولا يعرف طرقها

وفيما هو كذلك وظلام المساء لايريه على الآكام والاودية المحيطة به الا ظلالا ضعيفة ، سمع خربشة بين الاعشاب فوقف بغتة ثم فطن الى انها خربشة ضب سارح فلم يلتفت اليه . ولكنه ظل واقفا وقد تزايد قلقه لابطاء الراعى وهم باللحاق به ولكنه خاف أن يختلفا فى الطريق

ولما طال انتظاره مل الوقوف فمشى على غير هدى ، واتخذ علامة علقها على الشجرة لتهديه الى المكان من بعيد . وجعل مسيره فى جهة الوادى الذى سار اليه الراعى يطلب الجمل وهو يتوقع أن يلتقى بالشيخ وهو عائد أو يسمع جعجعة الجمل عن بعد أو يعود الى مكانه . ولذلك فانه كان كلما مشى بضع خطوات التفت الى الشجرة مخافة أن تتوارى عن بصره وراء بعض التلال ، فمشى مسافة طويلة لم يسمع فى أثنائها صوتا ولا رأى شبحا ، ثم نسى أمر الشجرة فانحدر فى الوادى وهو يتلمس الارض ولايرى الطريق فكانت رجله تزلق طورا ، وترتطم أصابعه طورا من فوق النعال بأصول الاعشاب الباقية بعد المرعى ، وهو بين أن يحملق نحو الوادى بعينيه أو يصيخ بأذنيه أو يتفرس فى الطريق بين يديه . فلما طال به المسير ولم يهتد الى شىء ندم لنزوله من مكانه

وبعد مسير طويل على تلك الصورة سمع نباح كلاب فى الوادى فالتفت الى جهة الصوت فرأى نورا ضئيلا فتأثر الصوت فاذا به يتعاظم كلما اقترب من النور ، فعلم انه على مقربة من بعض القرى الكثيرة فى وادى القرى منتشرة فى بطنه وعلى جانبه . ولكنه استغرب النباح فى الليل لعلمه أن ذلك لايكون الا اذا طرق الحى غاز أو لص . فوقف ليستريح ويفكر فى أمره فالتفت الى مايحيط به فاذا هو فى واد بين جبلين والظلام حالك والمكان موحش ولكنه استأنس بتلك النار على بعدها فمشى نحوها فرأى شبحا يعدو صاعدا من الوادى كأنه غزال نافر فلما اقترب منه علم انه الراعى واستغرب مجيئه وحده فصاح فيه : « ما وراءك يا اخا العرب ؟ . أين الجمل ؟ »

قال : « ما الذى جاء بك الى هنا ؟ »

قال : « جاء بى قلقى على الجمل ورغبتى فى التعجيل بالاياب »

قال : « وما الفائدة من انحدارك فى هذا الوادى والليل دامس وأنت لاتعرف الطريق وقد تعرضت للخطر بطرقك هذا الحى ليلا اذ نبحتك الـكلاب ، لأنها لم تألفك من قبل كما ألفتنى لكثرة ترددى الى هـذه القرى »

فقطع حسن كلامه قائلا : « مالنا ولهذا ؟ قل لى أين الجمل ؟ »

قال : « لم أعثر عليه فى المـكان الذى كنت أظنه فيه ، والظاهر أنه قصد ماء آخر وقد كنت ذاهبا للبحث عنه فى العقيق بجوار المدينة »

فاستعاذ حسن بالله وقال : « يالله ! ما هذه المصيبة ؟ »

فابتدره الراعى قائلا : « لاتخف ياسيدى فلن يضيع الجمل ولو غاب عنك طويلا فان أهل البادية يرسلون ابلهم للمرعى وقد لايرونها أياما ثم تعود بنفسها أو يعود بها غلام أو فتاة . وقد كان ذلك شـأننا فى زمن الجاهلية فكيف ونحن الآن فى ظل الاسلام ، وأما أنتم معاشر أهل المدن فاذا غفل الرجل منكم عن عمامته خاف اختطافها »

فمل حسن من جدال الراعى فقال له : « مالنا ولهذا الجدال ؟. أين الجمل وكيف السبيل اليه ؟ »

فقال : « يغلب على ظنى انه سار الى العقيق وهو ماء يخرج أهـل المدينة اليه فيقيمون عنده ساعات أو أياما فى خيـام يحملونها معهم ، وربما ذبحوا الذبائح وأولموا الولائم »

فقطع حسن كلامه قائلا : « ثم ماذا ؟ »

قال : « فالعقيق مجتمع أهل الرخاء من اليثربيين وهو يذكرنى أيام الشـباب ، فقد كان العقيق موعدنا لنلقى نسـاء المدينـة . لا تغضب ياسيدى اننا سائرون الآن جنوبا نحو المدينة والعقيق فى طريقنا اليها »

□

استغرب حسن بعده عن المدينة شمال المـكان الذى ترك سليمان وأباه فيه ، فقال للشيخ : «هلم بنا » . « فمشيا والراعى على شيخوخته أسرع عدوا منه لأنه تعود المشى فى الوعر . أما حسن فلما صـعد من الوادى والتفت الى السماء وتبين الـكواكب فعلم انه فى أواخر الليـل بغت لضياع الوقت وهو لم يأت عملا بعد ، وتشاءم مما تأتى له فى ذلك المساء وهو انما أمسك عن رؤية حبيبته رغبة فى المسير الى مكة على عجل ، فكيف يعود الى الوراء بعد قضاء الليل فى المشى والقلق ؟

قضى مدة سائرا فى أثر الراعى ، على أرض رملية ، بعضها رطب بما يرشح فيه من الماء . وفكره تائه حتى رأى نجم الصبح فعلم ان الفجر

دنا ثم رأى الراعي وقف وأشار اليه قائلا: « ألا ترى الماء أمامنا عن بعد؟»

قال: « اني أرى سطحا لامعا وكأني أرى فيه سماء أخرى من انعكاس أنوار الكواكب ».

ولما رأى الماء شعر بانشراح الصدر واستبشر ببلوغ أمنيته وجعل يتفرس في ضفاف ذلك الماء لعله يرى أناسا أو جمالا فلم ير شيئا . ثم سمع الراعي يقول: « ها اننا على ضفاف العقيق ولا نرى فيه أحدا سوى آثار أناس كانوا هنا ورحلوا في أوائل الليل فاقعد على هذا الحجر واغسل رجليك في هذا الماء واسترح ريثما آتيك بالخبر »

قال: « دعني أسر معك »

قال: « لا . أمكث هنا واغسل رجليك وسأعود اليك على عجل فاني لا أتحقق الامر حتى أطوف حول هذا الماء . ولا حاجة الى مسيرك معي فقد تعبت ، وان كنت في عنفوان الشباب لأن أهل المدن لا يقوون على المسير مثلنا » . قال ذلك والتحف العباءة وسار وحسن يتبعه بنظره حتى توارى ، وما لبث أن سمع الشيخ يناديه فنهض وأسرع حتى أقبل عليه فاذا هو واقف تحت شجرة منبسطة الاغصان وقد قبض بيده على شيء وهو يقول: « متى خرجت من المدينة ؟ »

قال حسن: « نحو الغروب »

قال: « هل أطعمت الجمل قبل خروجك ؟ »

فتحير حسن بماذا يجيب لأنه وكل أمر الجمل الى خادمه فقال: « أظن الخادم أطعمه »

فبسط الشيخ يده فاذا فيها أبعار فقال: « ان هذه الابعار لجمل من جمال المدينة جاء وحده الى هذا المكان من مدة قصيرة ورجع »

فاستغرب حسن بته في الامر وقال: « وكيف عرفت ذلك ؟ »

قال: « عرفته من هذه الاوساخ ، فان فيها النوى وهو علف جمال المدينة لأن النوى كثير عندهم . ويظهر من قلة جفافها أنها وضعت من عهد قريب . ولم أر واضعها فيكون قد عاد »

فوجد حسن كلامه معقولا ولكنه لم يقتنع بأن الجمل الذي يشير اليه هو جمله ، اذ لا يبعد أن يكون جمل أناس آخرين فقال له: « وما الذي ينبئك انه جملي وليس من جمال أناس مروا بهذا المكان الليلة ؟ »

فضحك الشيخ وقال: « لو كانت أبعار الجمال كثيرة لرأيناها أصنافا وألوانا . فهي اذن لجمل واحد ، وهذا الجمل لم يقم هنا الا قليلا . وأي جمل من جمال أهل المدينة يخرج الى هذا المكان بعد منتصف الليل الا أن يكون فارا مثل جملك ؟ »

فأعجب حسن ببداهة أهل البادية وتذكر اشتهارهم بقيافة الاثر ولكنه ما زال مشككا فى أن يكون ذلك الجمل جمله فقال: « لا أرى ما يمنع بعض أهل المدينة من الخروج الليلة على جمله يلتمس بعض الاحياء فمر بالعقيق ليشرب أو يسقى جمله أو يستريح »

قال: « قد يكون ذلك ، ولكن حال المكان ، لايدل عليه ، لأنى لا أرى على الارض آثار آدميين »

فقطع حسن كلامه وقال وهو يظن انه أفحمه: « الظاهر ان الراكب لم ينزل عن جمله وانما وقف ريثما شرب ثم ساقه »

فقال: « لا ، لأن الجمل لايستطيع الوقوف تحت هذه الاغصان المدلاة وعليه راكب لأنها تمس ظهر الجمل بانبساطها وانحنائها وليس عليه أحد »

قال حسن: « ربما برك الجمل ؟ »

قال: « لو فعل لشاهدنا آثار ركبه ، فما الجمل الذى مر من هنا الا جملك ، واذا صبرت هنيهة أريتك الطريق الذى سار فيه فيهون عليك طلبه »

قال: « وكيف ذلك ؟ » . وكان الفجر قد لاح ، وتبينت الارض جيدا فنظر حسن الى ماحوله وراجع ما قاله الشيخ فترجح لديه قوله ، وتحقق ما كان يسمعه عن مهارة أهل البادية فى قيافة الاثر ، فلبث ليرى ما يفعله الشيخ فاذا هو قد مشى خطوات قليلة ثم قال: « أنظر الى هذه الخطى فانها آثار خفاف جمل يعدو عدوا سريعا ، يدلك على ذلك عمقها وعدم نظامها ، ويظهر ان الجمل عاد الى المدينة » .

فالتفت حسن الى يساره وقد بان الصبح فاذا هو مشرف على المدينة عن بعد ولا بد له من الذهاب اليها . فتذكر حبيبته فيها ولكنه عاد الى التفكير فى أمر الجمل فقال: « انى لأستغرب ما رأيته اليوم من جملى ولم يكن عهدى به مثل ذلك من قبل »

قال: « للجمال طبائع غريبة وقد يكون الجمل هادئا ساكنا فلا تراه الا وقد دلق لسانه وأرغى وأزبد وأركن الى الفرار كأنه أصيب بجنة ، وقد يصيبه ذلك على أثر خوف ورعب أو جوع . ومهما يكن من الامر فاطلب جملك فى المدينة . وأما انا فانى أستأذنك فى العودة الى ماشيتى مخافة أن يكون قد أصاب ابلى ما أصاب جملك وهى وحدها هناك ما عدا غلاما وأمه تركتهما لحراستها »

فأثنى حسن على الشيخ وودعه وسار قاصدا المدينة وقد أنهكه التعب والقلق وأحس بالجوع وتشاءم مما اتفق له فعول على أن يسير توا الى المسجد للصلاة والتبرك ثم يبحث بعد ذلك عن الجمل ، ثم تذكر

حديث سليمان وأبيه وما فيه من الاشارة الى الفتك به فأحب استطلاع سر أبى سليمان قبل دخوله المدينة لئلا يكون فيه ما يمنعه من دخولها، فسار يلتمس المكان الذى تركهما فيه بالامس فاستشرف أكمة قرب سور المدينة فرأى قرب المستنقعات شيئا كالجمل البارك ثم ما لبث أن سمع جعجعة فأسرع حتى دنا من الجمل فاذا هو جمله بعينه وقد وقع عند حافة المستنقع وقد كسر فخذه ولم يعد يستطيع النهوض ولكنه رآه عاريا لا رحل على ظهره ولا خطام فى رأسه فشك فى أن يكون جمله وظنه جملا آخر، فتفرس فيه جيدا فلم ير فرقا بينه وبين جمله، ثم تذكر ميسمه وهو العلامة التى يسمون بها الجمال بسمات القبائل فنظر فى الميسم فاذا هو الميسم الذى يعرفه فتحقق انه جمله وانه لم يعد يقوى على المسير فلم يهمه ضياعه وود لو أن الراعى معه ليهبه الجمل فينحره لأهله. ثم عاد الى التفكير فى الرحل وماكان عليه من أمتعته وبينها كتاب خالد بن يزيد، فزاد تشاؤمه من تلك السفرة وقال فى نفسه: « لم يعد لى وطر فى المدينة الآن » . ووقف برهة ثم مشى الى الجهة التى ترك فيها سليمان مطروحا وبجانبه أبوه فرأى المكان خاليا الا من آثار الدم على صخر منبسط، ورأى بجانب الصخر ثوبا معفرا فرفعه فاذا هو القباء وقد تلوث بالدم وتمزق قطعا قطعا فاستغرب تمزقه، ثم طرح بقاياه وفكر فى أمر سليمان والكتاب فقال فى نفسه: « لعل أبا سليمان عثر على الجمل وهو سائر الى المدينة فلما رآه معطلا حمل رحله معه على نية أن يدفعه الى عند الملتقى » .
فارتاح حسن الى هذه الفكرة وهدأ اضطرابه وترجح لديه أن أبا سليمان حمل ابنه الى منزله فى المدينة لمداواته، فعول على الذهاب اليه

وفيما هو سائر الى المدينة رأى غبارا يتطاير فى عرض الأفق مما يلى طريق مكة، فوقف ينتظر ما يكون فاذا بثلاثة من الابل عليها ثلاثة رجال قد تلثموا وساقوا الابل سوقا عنيفا، ثم سمع قرقعة اللجم فعلم أنها ابل البريد وكان لدواب البريد قعقعة خاصة كأن أرسانها من سلاسل الحديد، أو لعلهم كانوا يعلقون فى أعناقها جلاجل أو نحوها، فمكث هنيهة ريثما مر البريد فعلم من لباس الرجال وهيئة الركب أنهم من العراق فترجح عنده أنه بريد الحجاج بن يوسف الى عامل المدينة

حسن وسليمان وأبوه

سار حسن فى أثر البريد قاصدا بيت سليمان من أقرب الطرق فلما وصل اليه سأل عن سليمان فعلم انه مريض فتحقق انه هناك فاستأذن وأقبل على حجرة رأى فيها سليمان راقدا وأبوه الى جانبه فخلع نعليه بالباب ودخل فوقف له أبو سليمان مرحبا به ، وأراد سليمان النهوض فأمسكه وأجلسه وجلس على طرف الفراش بجانبه وجعل يسأله عن حاله وسليمان يحمد الله على أنه أحسن كثيرا ، ويعزو الفضل فى شفائه الى نجدته اياه». فقال حسن : « ما أظن المصيبة جاءتك الا بسببى »

فقال سليمان : « أشكر الله لأنه نجاك من هذا الخطر »

فتقدم أبو سليمان والدمع ملء عينيه وقبل حسنا وقال له : « اغفر زلتى يا بنى ، فان الله هددنى بالقصاص حتى خفت فقد ابنى ووحيدى ، وأشكره على السلامة ولأنه أكسبنى ابنا آخر »

فنظر حسن الى ذلك الكهل فاذا هو على ما وصفناه من طول القامة ونحافة العضل وقصر اللحية وصغر العمامة ، ولكنه رأى فى وجهه دلائل السويداء وانقباض النفس فاذا ابتسم فكأنما يبتسم تكلفا ، واذا ترك ساعة أو ساعات ظل صامتا لا يفوه بكلمة كأنه يفكر فى مصاب محدق به

ثم سألاه عن سبب غيابه ، فقص حسن عليهما الحديث مختصرا ، وكان يتكلم وأبو سليمان يصغى اليه وهو مثبت بصره فيه وكأنه لم يعره كل انتباهه . فلما جاء على آخر الحديث وذكر لقاء الجمل وضياع الرحل قال : « فلما رأيت جملى بلا رحل على مقربة من المكان الذى كنا فيه ظننتكم عثرتم على الجمل ورأيتموه معطلا فحملتم رحله معكم لتحفظوه لى عندكم »

قال أبو سليمان : « كلا يا ولدى فاننا عدنا ليلا ، ولم نلتفت يمنة ولا يسرة لانشغالنا بجرح أخيك سليمان ، وأنت هل مررت بالمكان الذى كنا فيه ؟ »

قال : « نعم وصلت اليه فرأيت أثر الدم ، ووجدت القباء ممزقا

وعليه جلط الدم فعجبت لتمزيقه »

فقال الرجل : « لا تعجب يا ولدى لتمزيقه لأنه مزق قلبى فانتقمت منه فاعذرنى »

فاستغرب حسن ذلك وقال له : « بالله ألا قصصت على خبر هذا القباء ؟ »

فقال له : « اعفنى من خبره واقنع بما قلته لك ولو تلميحا »

قال : « وماذا قلت ؟ »

قال : « ألم أقل ان هذا القباء هو الذى مزق قلبى لأنه كان دليلى الى الفريسة المطلوبة فاذا هى ولدى وفلذة كبدى »

ففطن حسن لأمور كثيرة كانت موضع شكه ، وتذكر انه ليس من يعلم بوجود ذلك القباء معه غير عرفجة لأنه أخذه من عنده ولم يلبسه قط ، فاحتاطت به الشكوك وتناوبته الهواجس ، وظل صامتا برهة لا يتكلم ثم قال : « ألا تقول لى من الذى أغراك بقتلى ؟ . فانى أخشى أن أتهم أناسا أبرياء »

قال : « أمرنى بذلك رجل كبير فى هذه المدينة ، وهو صاحب السلطان الأقوى فيها »

ففهم حسن أنه يشير الى عامل المدينة طارق بن عمرو ، وكان يعلم بما بين طارق وعرفجة من الصداقة . فترجح لديه ان لعرفجة يدا فى هذه المكيدة ، لكنه أسرها فى نفسه واعتصم بالصبر الى أن يتم مهمته بمكة

وأراد سليمان أن يذهب الانقباض عن صديقه فقال لأبيه : « كيف رايت هذا الصديق يا أبى ؟ »

فتنهد أبوه وحاول الابتسام وقال : « لم أكن أشك فيما قلته لى ، ولكن سوء حظى ساقنى الى ما ارتكبته ولكنى أحمد الله على خلاصنا من هذا الخطر » . ثم التفت الى حسن وقال : انى أعتذر اليك من تعمدى قتلك على غير معرفة بك ، ولا أظننى دفعت الى ارتكاب الجريمة الا بما جنيته من الذنب برجوعى عن المطالبة بدم ذلك المقتول ظلما » . قال ذلك وشرق بريقه فسكت برهة وحسن ينظر اليه ويعجب . ثم عاد أبو سليمان الى الكلام فقال : « كنت من التوابين الذين ندموا على تخلفهم عن الحسين بن على ، حتى قتل ظلما فى سهل كربلاء . ولكننى لم أثبت على توبتى فانتظمت فى خدمة الذين قتلوه ، ولا ريب أن عملى لم يرض الحق سبحانه وتعالى ، وعلى أن أكفر عن ذلك بتكريس ما بقى من حياتى لنصرة أعدائهم ، وقد علمت أنك سائر الى مكة فهل تستصحبنى ؟ . والا فانى هائم على وجهى فى هذه الصحراء »

فقال حسن : « اذا رافقتنى فانى آنس بك وأتخذك أبا لى لأن سليمان أخى ، ولكن أرى أن . . . » . وأسكته الحياء

فقال أبو سليمان : « تكلم يا بنى ولا تخف فانى بمنزلة أبيك ، بل أنا خادم لك ولا أستنكف من أمر أجريه فى خدمتك . قل ما بدا لك »

قال حسن : « اذا كنت ترى أن تتفضل على وتعاملنى معاملة الأب لابنه فان لى عندك طلبا أستحيى أن أكلفك به »

قال : « لا تستحى يا بنى . قل »

قال : « أحب فتاة فى هذه المدينة ، وقد خطبتها وانا مضطر للسفر قبل العقد عليها ، ولا يخفى عليك قلب مثلى فى هذه الحال »

قال : « نعم . ماذا تريد منى ؟ هل تريد أن أوقف نفسى لخدمتها ؟ »

قال : « كلا فانها فى بيت أبيها ولكننى قليل الثقة بمن حولها »

قال : « من هى الفتاة ومن هو أبوها ؟ »

فوجم حسن برهة ثم قال : « اذا لم يكن بد من معرفتك اسمها — ولا أرى بدا من ذلك — فأخبرك انها سمية ابنة عرفجة الثقفى »

فلم يتم حسن قوله حتى بهت أبو سليمان وازداد لونه امتقاعا وأطرق وصارت لحيته ترقص فى صدره ، وكان حسن يلاحظه وقد أدرك ما جال فى خاطره . وجعل أبو سليمان يهم بالكلام ثم يمسك لأنه كان مطلعا على تردد عرفجة على مجلس طارق ، وعرفجة مشهور فى المدينة بخيانته وسوء نيته

أما حسن فلم يمهله ريثما يتكلم فابتدره قائلا : « لا أكلفك اطلاعى على سر ، فقد فهمته وهذا يكفى . اما الفتاة فخطيبتى ولا شىء يمكن أن يثنيها عنى أو يثنينى عنها . وانما أرجو أن تبحث عنها وتعرف أحوالها وهذه هى وصيتى اليك فاذا قبلتها كان ذلك فوق ما أتمناه »

فقال أبو سليمان : « أنا عند ما تريد ، وسأولى أمرها اهتمامى ، كما أهتم بولدى هذا . كن فى سكينة وراحة بال »

فلما فرغ حسن من أمر سمية عاد الى التفكير فى الكتاب والخادم فتبادر الى ذهنه أنه قد يلقى خادمه فى المدينة فيساعده على البحث عن الكتاب وعزم اذا لم ير الخادم فانه يكتفى بابلاغ عبد الله بن الزبير فقد الكتاب ويرى ما يكون ، فنهض مودعا . فقال له أبو سليمان : « اذا لم يكن بد من سفرك فاجعله من غير الطريق الذى كنا فيه أمس . أخرج من باب آخر وأنا ارسل معك خادمى يهديك الى الطريق ويسوق جملك بدلا من خادمك ، وسأقدم لك جملا أحسن من جملك فأنعم بالا وكن على ثقة اننا أنا وسليمان فى خدمتك حتى تبلغ مرامك » .

ثم صاح : « يا بلال » . فجاء عبد خفيف السواد حسن الملامح فقال له : « هيىء الجمل الاشرم ، واملأ القرب ماء وأعد زاد السفر » . فذهب بلال ثم عاد وقد أعد كل شيء فقال أبو سليمان لحسن : « اذا كان لا بد من سفرك فسر على عجل ولا تقف ولا تسترح حتى تبعد عن المدينة »

فقطع حسن كلامه وقال : « فاتنى أن أخبركم عن ابل البريد ، فقد رأيت ثلاثة منها دخلت المدينة فى هذا الصباح وأظنها قادمة من مكة »

قال أبو سليمان : « لا يبعد انهم جاءوا لطلب نجدة أو مدد ، أو بخبر فتح أو شيء من ذلك ، أما أنا فانى سأنتقل من هذا البيت الى سواه وأختفي يومين أو ثلاثة حتى لايرانى أحد لئلا يطلبوننى للمسير معهم »

ثم ودعهم حسن وركب الجمل وسار بلال فى ركابه ، وبود حسن لو يعيد النظر الى سمية قبل سفره ولكنه أراد العجلة وخاف الوقوع فيما هو شر من ذلك .



سمية فى منزل سكينة

فلنترك حسنا قاصدا الى مكة مع بلال ولنعد الى المدينـة لنرى ما كان من أمر سمية بعد سفره ، فقد تركناها عائدة الى بيت سكينة ومعها عبد الله خادم حسن يسير فى خدمتها . فلما وصلا الى باب البيت قالت له سمية : « قد وصلت الى مأمنى فانصرف » . وكانت قد استأنست به لأنه ثقفى مثل أبيها فلمـا ودعها قالت له : « قد علمت يا عبد الله منزلة حسن منى فارعه وكن صادقا فى خدمته »

فقال انى عبدك وعبده يا مولاتى ، وانى أفديكما بروحى »

فاطمأنت سمية وأشارت اليه برأسها اشارة الوداع ، فتحـول مسرعا يلتمس باب المدينة ليلحق بسيده

أما سمية فانها أقبلت على بيت سكينة حوالى العشاء ، فتظاهرت بأنها كانت فى بعض جوانب المنزل ، وسارت الى مجلسها ، فرحبت بها وسألتها عن سبب تخلفها . فقالت : « كنت مشتغلة فى بعض الغرف هنا » فقالت لها ليلى : « قد بحثنا عنك فلم نجدك ، وأخشى أن يكون أباك استبطأ عودتك »

قالت : « ربما استبطأنى ، ولكننى هنا فى مأمن من غضبه ، ومتى استبطأنى بعث فى أثرى »

فلما سمعتها سكينة تقول ذلك أمسكت بيدها وقربتها اليها حتى أقعدتها معها على الوسادة وضمتها وقبلتها وقالت لها : « أهلا بك يا سمية انك من أعز الأحباء » . وكانت سكينة تستلطف سمية وتحبها

فقالت سمية : « لا حرمنا الله من محبتك يا بنت سبط الرسول ، ان اقامتك بهذه المدينة بركة وسعادة لنا جميعا »

ثم جاء الخدم يدعون سكينة الى المائدة ، وقد مدت الأسمطة فقمن للعشاء . وأما سمية فعادت الى هواجسها واستغربت سـكوت أبيها عنها الى ذلك الحين . ثم خطر لها أنه غائب عن البيت ويحسبها فيه . فرأت أن تستأذن سكينة فى العودة الى البيت فأذنت لها ، وبعثت معها بعض الجوارى ليوصلنها اليه

ولما وصلت سميـة الى باب البيت قرعته بطريقة يعرفهـا الخـدم

فأسرعت جارية الى فتحه واستقبلت سيدتها وهى تقول : « لقد أبطأت علينا الليلة وشغلت بالنا »

وكانت هذه الجارية حبشية الأصل اسمها أمة الله ، تحب سمية كثيرا ، كما أن سمية كانت تستأنس بها وتكرمها فلما أبطأ قدومها فى تلك الليلة شغل بال الجارية ولم تستطع رقادا ، حتى طرقت سمية الباب ففتحت لها ، وترامت عليها وقبلتها ورحبت بها ، فقالت لها سمية : « ألم يأت أبى ؟ »

قالت : « جاء نحو الغروب ودخل الحجرة المعلومة وأقفل بابها ، وما زال هناك ولا يدرى أحد ماذا يعمل لأنه أنار السراج وحمله بيده الى الغرفة على عادته »

فدخلت سمية غرفتها وخففت ثيابها لتوهم أباها اذا رآها أنها فى البيت من مدة طويلة . ولم تستغرب مكثه فى تلك الحجرة طويلا لأنه كثيرا ما كان يفعل ذلك وأهل البيت يستغربون تكتمه ولا يعرفون ما فى تلك المحفة المخزونة هناك . ولولا خوفهم من غضبه واستبداده لتوصلوا الى فتحها ولكنهم كانوا يخافون سطوته وشدة وطأته

ثم رأت سمية أن تلجأ الى فراشها قبل خروج أبيها من مخبئه مخافة أن يراها ويسألها عن سبب غيابها وربما أساء الظن بها ، فجلست على فراشها ، ودعت امة الله لتمشط لها شعرها قبل النوم فجثت الجارية خلفها وجعلت تسرح الشعر وتمشطه ووجه سمية الى باحة الدار ، وكانت سمية ترتاح الى مكاشفة امة الله ببعض شؤونها الخاصة فقالت لها : « هل شغل بالكم غيابى الليلة ؟ »

قالت : « نعم يامولاتى ، لأنك قلما تطيلين الغياب ، ولا سيما ان عبد الله جاء للسؤال عنك »

قالت : « وأى عبد الله ؟ »

قالت : « الرجل الذى جاء صباح اليوم »

فعلمت سمية أنه عبد الله خادم حسن ، فبغتت لعلمها أنه فارقها ليلحق بسيده على عجل فأدارت وجهها الى الجارية وقالت لها : « متى جاء ؟ »

قالت : « جاء قبل وصولك بقليل »

قالت : « وهل جاء وحده ؟ »

قالت : « لم أر معه أحدا »

ففكرت سمية فى الامر ، فوجدت انه جاء بعد أن فارقها بساعة أو ساعتين ، فتبادر الى ذهنها انه لم يأت الا لغرض أراده حسن منها ، أو

لشر أصابه ، فتوالت عليها الهواجس واستغرقت فى التفكير ، وعادت الجارية الى تمشيطها وهى فى غفلة عن كل ذلك

وبينما سمية غارقة فى لجج الهموم لاحت منها التفاتة الى باحة الدار فرأت فيها نورا يتحرك وسمعت صوت باب يقفل فعلمت ان أباها خرج من الحجرة السرية . ثم اختفى النور وسمعت تصفيقا فعلمت ان أباها يدعو الخادم فخافت أن يكون عازما على استدعائها ، فتظاهرت بالميل الى الرقاد وقالت للجارية : « لم يعد لى طاقة بالجلوس فقد أخذ منى النعاس مأخذا عظيما فاتركينى ، واذا سأل عنى أبى فأخبريه بأنى نائمة منذ حين » . ففهمت الجارية غرضها فضحكت وقالت لها : « لاتخافى » . وتمددت سمية فى فراشها وتظاهرت بأنها استغرقت فى النوم ، وبعد قليل سمعت الخادم يسأل الجارية عنها ، وسمعتها تذكر له انها نائمة فانصرف

وأصبحت فى اليوم التالى وهى ما زالت فى حاجة الى النوم ، فظلت فى الفراش حتى الضحى ، ثم جاءتها جاريتها بماء للغسل وبطعام ، فسألتها عن أبيها فقالت : « أفقت قبيل الصبح على قرع الباب ، ثم علمت ان بعض الناس جاءوا يطلبون سيدى على عجل ، فخرج وهو لم يتم لف عمامته »

فأطرقت سمية وفكرت فى الامر ، فحدثتها نفسها بأن لهذه الدعوة علاقة بخطيبها . ولما تذكرت سوء قصد أبيها وما سمعته من قدوم عبد الله اليها أمس ، تبادر الى ذهنها ان شرا عظيما أصاب حسنا — وذلك شأن المحب البعيد عن حبيبه فانه لايكاد يطمئن قلبه عليه واذا سمع أحدا يذكره تبادر الى ذهنه انه فى خطر وقد يفسر الاشارات والرموز والحوادث بما يؤكد ذلك — فكيف بسمية وهى تعلم ما ينويه ابوها لخطيبها ؟ . فلم تتناول من الطعام الا قليلا ، ولبثت جالسة تفكر فى سبب خروج أبيها وتخاف أن يكون فيه ما يسوء خطيبها

□

قضت سمية أكثر النهار فى قلق واضطراب ، تارة تمشى فى الدار ، وآونة تخرج الى البستان ، وهى تتوقع أن ترى عبد الله آتيا أوتسمع خبرا . ثم سمعت أذان العصر فالتفتت الى مصدره جهة باب البيت فرأت أباها داخلا فخفق قلبها ولبثت تنتظر مايبدو منه . فدنا منها وابتسم وناداها اليه فتبعته وهى مازالت فى اضطراب ، ولكنها تظاهرت بارتياح حتى أقبل على غرفة الجلوس فوقف بالباب ينزع نعاله وقال :

« كيف قضيت يومك أمس عند سكينة ؟ »

قالت وهى تتبعه الى وسادته التى تعود الجلوس عليها : « قضيته مسرورة ، وعدت وانت فى الحجرة فنمت ونهضت فى هذا الصباح ، فعلمت انك خرجت مبكرا فشغل بالى »

فقطع كلامها ودعاها الى الجلوس بجانبه وعلى وجهه ابتسامةمتكلفة فلما جلست قربها منه وضمها وقبلها فأحست ببرد شفتيه واقشعر بدنها لاحتكاك شعر لحيته بذقنها وعنقها لعظم ماكانت فيه من التهيج العصبى الناتج عن القلق ، وقبلت يده فاذا هى أبرد من شفتيه . وتوقعت أن تسمع منه شيئا بعدهذا التملق فاذا هويقول لها : « اظنك مللت طول المكث فى هذه المدينة ؟ »

قالت : « اذا كنت أنت فى خير وسعادة فكل حال ترضينى »

فأعجبه قولها وألقى يده على كتفها وجعل يلاعب شعرها بين انامله ثم قال : « بورك فيك من ابنة مطيعة ، ان مثل هذا القول يجبر قلب الوالد ، هذا هو البر الذى كنت أرجوه منك . فالحمد لله الذى أذهب ماكان يخامر ذهنك ، وعدت الى ماهو جدير بأمثالك من النزول على حكم آبائهن »

فأحست سمية من هذا التعريض كأن صخرة وقعت على راسها ، وأسرع خفقان قلبها . ولو انتبه أبوها وهى مستلقيةعلى صدره لسمع دقات قلبها ولأدرك اضطرابها . أو لعله أدرك وتجاهل خبثا ورياء . ثم قال ولم يترك لها مجالا للتفكير : « سنذهب غدا لترويح النفس فى العقيق فانه متنزه جميل ، فهل يسرك أن نأخذ طعامنا وشرابنا ونقضى يومنا هناك ؟ »

فعجبت سمية من عناية أبيها بأمر نزهتها والترويح عنها ، ولاسيما انه كان لايخاطبها بالحسنى أو يلاطفها الا اذا كان له مأرب من وراء ذلك . فأصبحت لاتسمع منه مثل هذه الملاطفة الا توقعت شرا ، ولكنها لم تكن تستطيع غير مداراته فقالت : « اشكرك يا أبى على هذه العناية »

فقطع كلامها وقال : « لاشكر على واجب ، فانى ابوك ، وسأخبر الخدم ليعدوا لنا خياما وطعاما ويسيروا أمامنا الى العقيق قبل الفجر ، ثم نركب أنا وأنت عند طلوع الشمس ونقضى يومنا فى العقيق ، فقد مللنا المدينة وأسواقها ونخيلها » . قال ذلك بنغمة الاب الحنون ، فلم يسع سمية الا مجاراته ، على انها كانت أشد حاجة منه الى النزهة ، وخطر لها انها ربما استطاعت فى أثناء مرورها بالشوارع والطرق ان ترى عبد الله أو تسمع خبرا عنه أو عن حسن . فأثنت على أبيها وقبلت

يده ، فقبلها ثم صفق فجاء عبد أسود كان قد فوض اليه ادارة شؤون منزله وجعله رقيبا على أهل بيته. وكان ذلك العبد قبيح الخلقة عظيم الشفة السفلى أفطس الانف يكاد الشرر يتطاير من عينيه ، ويندر أن يبتسم فاذا فعل فانه يكشر عن أنيـابه . فلما وقف بين يديه قال له : « ياقنبر ، اننا عازمون على الخروج فى صباح الغد الى العقيق فأعد ما نحتاج اليه من الخيام والاطعمة ، وهيىء الهودج لسمية ، ثم اسبقنا مع الخدم عند الفجر ، وسنلحق بكم بعد ذلك »

قال : « الامر لمولاى » . وخرج

ثم نهض عرفجة ودخل الحجرة السرية ، واتجهت سمية الى غرفتها وطلبت من جاريتها أمة الله أن تتهيأ لمرافقتها فى صباح الغد

□

باتت سمية ليلتها والاحلام المزعجة تنتابها ، وتريها حسنا فى خطر ، ورأت مناظر مخيفة أخرى ، فنهضت وهى فى اضطراب شـديد . فاذا أبوها قد خرج وتهيأ للرحيل ، وجاءتها الجارية فمشـطتها وألبسـتها ثيابها . ثم ركبت معها الهودج ، وركب أبوها بغلة ، وساروا وقد أمسك بخطام الجمل أحد الخدم

وجعلت سمية تطل من خلال الستور على المارة فى الطرق وتتفرس فيهم ، فاستغربت أمة الله ذلك منها لعلمها بأدبها وحشمتها . وزاد فى استغرابها شدة مالاحظت فى وجهها من القلق . فلما خرجوا من باب المدينة بالغت سمية فى التطلع نحو الطريق الذى يؤدى الى مكة لعلهـا ترى أثرا او تسـتطلع خبرا فرأت بجانب باب المدينـة خياما ورايات وخيولا وجمالا ، وقد تفرق العبيد بين النخيل وحول المستنقعات يجمعون العيدان للوقود ، فذهلت ولم تفهم أمر هـذا المعسكر ، ولم تر بدا من أن تسأل أباها فأخرجت رأسـها من بين الستور لتبحث عنه فاذا هو قد اركض بغلته نحو المعسكر فظنت انه ذهب لاستطلاع الخبر فأمرت الغلام أن يظل فى مسيره فسار حتى بعدوا عن المعسكر وسمية تشرف على الطرق وتتطلع الى كل جهة والقلق باد فى عينيها

وفيما هى تتطلع سمعت جعجعة جمل يتألم فالتفتت فرأت جمل حسن الذى ذكرنا أمره ولم تكن قد رأته الا فى أثنـاء مقابلتها حسنا فى المساء ، ولكن صورته انطبعت على ذهنها . فلما رأته خفق قلبها كأنها تنسمت منه رائحة الحبيب ، فأوقفت الهودج عنـده ونظرت اليه فرجحت انه جمل حسن وجعلت تفكر فى الامر ، فخيل اليها ان حسنا

قتل وقد أخذ قاتلوه رحل الجمل وخطامه وتركوه . فلما تصورت ذلك تساقطت دموعها وخفق قلبها جزعا واشفاقا .

وكانت أمة الله تلاحظ قلق سيدتها ولكنها لم تجرؤ على مخاطبتها فى هذا الشأن الا لما رأت دموعها تتساقط فقالت لها بصوتها الناعم الرخيم : « ما بالك ياسيدتى تبكين لا أراك الله سوءا ؟ »

فلما سمعت سمية سؤال الجارية أجهشت فى البكاء حتى علا صوتها ، فأمسكتها أمة الله وقبلت يدها وقالت لها : « بالله كفى عن البكاء وأخبرينى ما سبب ذلك فلعلى أنفعك فى شىء »

فتنهدت سمية ومسحت دموعها بكمها ، ثم التفتت الى خارج الهودج فلم تجد أباها عاد ، ولارأت أحدا يسمعها ، فقصت على جاريتها الحديث مختصرا ، وأطلعتها على مكنون قلبها . فشاركتها الجارية البكاء ثم قالت لها : « انك لم تتحققى ان هذا الجمل جمل حسن ، وهبى انه جمله فليس معنى هذا انه أصيب بسوء ، ولا أحسب هذا الجمل الا لبعض أهل هذا المعسكر انكسر فتركوه ، ومهما يكن من شىء فليس هناك مايدعو الى الاخذ بالظن والتوهم » .

فارتاحت سمية لهذا التعليل ، ولكنها تذكرت عبد الله ورجوعه إلى منزلها فى تلك الليلة فقالت : « ولكن ماسبب رجوع خادمه الينا ؟ »

قالت الجارية : « قد يكون جاءك برسالة من حسن فلما لم يجدك عاد اليه بها وسافر معه ، ولولا ذلك لرأيته أمس . وقد مضى يوم ونحن الآن فى ضحى اليوم الثانى ولم نره »

فقطعت كلامها وقالت : « أتظنينه اذا علم بسوء أصاب حسنا ، ينقل ذلك الخبر الى ؟ » . قالت : « دعى عنك هذه الافكار وتوكلى على الله »

وفيما هما فى الحديث سمعتا وقع حوافر البغلة ، فعلمتا ان أبا سمية قد عاد ، وبعد قليل وصل الى محاذاة الهودج فنادى سمية فأطلت عليه فقال لها : « لعلى غبت عنك طويلا ؟ »

قالت : « نعم ، وقد رأينا خياما وجمالا وخيولا فلم نفهم سبب وجودها »

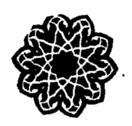
فأجابها وهو يحاول اصلاح الرسن فى راس البغله « ان هذا معسكر طارق بن عمرو عامل المدينة ، وقد خرج برجاله وحده قاصدا مكة » قالت « ولماذا ؟ »

قال : « جاء بريد الحجاج بن يوسف أمس يستقدم طارقا ورجاله مددا له فى حصار مكة وعما قليل سيسافرون» . قال ذلك وساق بغلته

متظاهرا بأنهـا هي التى أسرعت من تلقاء نفسـها ، فانقطع الحديث .
وسرت سمية بانقطاعه لتعود الى التفكير فى حسن لعلها تلتمس تعليلا يريح بالهـا . والمرء ميـال الى التماس مثل ذلك التعليل ، والنـاس يتفاوتون فى مقدرتهم على ذلك . فبعضهم اذا وقع فى مصيبة هان عليه تطبيق عواطفه على تلك المصيبة فيجعل لنفسه مخرجا من سوء عواقبها ومنهم من يزيده قلقا ولكنه لايلبث وان طال قلقه أن يتوصـل الى حل يتوكأ عليه ريثما يرى ما يأتى به القدر

وكانت الجارية قد رفعت أستار الهودج منذ الخروج من المدينـة ، فظلت سمية تسرح نظرها فيما حولها من الهضاب والبطاح وبرك الماء وغابات النخيل ، وهى كأنها لاترى شيئا لاستغراقها فى عالم الخيـال ، فلم تنتبـه الا على رائحة الشـواء ، فالتفتت فاذا هى على مقربة من ثلاث خيام : اثنتين قرب الماء وواحدة منفردة بظل نخلة كبيرة . فنظرت فرأت نفسها على غير ماء العقيق ، وكانت تعرفه فتفرست فيما حولها فاذا هى ما زالت على مقربة من المدينـة وخيـام المعسكر ظـاهرة . وتفرست فى الخيام فأدركت أنها خيامهم ، فاستغربت ذلك ولكنها لم تعلق عليه أهمية اذ لم يكن لها رغبة فى العقيق أو غيره

وجاء الخدم فأناخوا الهودج بقرب الخيمـة المنفردة فنزلت سـمية وجاريتها ودخلتا الخيمة ، ثم رأت سميـة أباها واقفـا مع عبده على انفراد ، وكانت تكره هذا العبـــد كرها شديدا لغلظ طبعه وفظاعة خلقته ، فاستعاذت من شرهما بالله



القتل أو الزواج بالحجاج

عادت سمية الى هواجسها بعد أن دخلت الخيمة ، فأخذت تفكر فى حسن وجله ، وتصورت وقوع ما تخشاه عليه من القتل فازداد بلبالها . ثم خرجت أمة الله لمساعدة بقية الخدم فى اعداد الأطعمة وظلت سمية فى الخيمة وحدها

وفيما هى على تلك الحال سمعت سعال أبيها ، ثم رأته والعبد قنبر قادمين نحو خيمتها فاستعاذت بالله من شر ذلك القدوم ، ثم رأت العبد يبطىء بينما أسرع أبوها حتى وصل الى الخيمة فنهضت للقائه ، فقال لها : « كيف رأيت هذا النهار ؟ انه نهار جميل أليس كذلك ؟ »

فتظاهرت بالابتسام وقالت : « انه نهار جميل ، ولكننى سمعتك تقول اننا ذاهبون الى العقيق ، وأرانا ما زلنا بباب المدينة ! »

قال : « ان العقيق بعيد فأحببت أن نستريح قليلا ثم نستأنف المسير الى العقيق . وما أريد الا أن تكونى مسرورة فرحة والا أراك منقبضة النفس وقد تهيأت لك أسباب السرور وانك لتعلمين حبى لك ، وانى انقطعت عن العالم لأجلك . . ولا أدخر جهدا فى سبيل راحتك وسعادتك »

فلما رأت مبالغته فى التلطف خافت ما وراء ذلك وظلت ساكتة ، فعاد هو الى اتمام حديثه فقال : « ولقد سرنى منك انصياعك الى مشورة أبيك فى شأن ذلك الشاب ، ورجوعك الى ما هو جدير بأمثالك . ويسرنى أيضا أن أبشرك بسعادة قد وفقك الله اليها ، ويندر أن تنالها فتاة من فتيات المدينة بل هن يغبطنك عليها »

فازداد قلقها وأحست من وراء ذلك الكلام نذير سوء يزيد فى اضطرابها ، فظلت ساكتة وقلبها يخفق ، ومالت الى استطلاع ما فى نفس أبيها ولكنها خافت أن يكون فى علمها بذلك ما يسوؤها ، فلبثت صامتة لا تدرى ما تقول . وكان هو ينظر الى وجهها خلسة ، ويتشاغل بالعبث بلحيته . فتوقع أن يسمع منها استفهاما ، فلما بقيت صامتة دنا منها وهى مستندة الى عمود الخيمة ووقف أمامها وأسند يده الى العمود وجعل يده الاخرى على كتفها . فاضطربت وازداد قلقها فلم

تعد تصبر على السكوت ، ثم اذا هو يقول لها : « لماذا لم تسأليني عن تلك السعادة التى أعددتها لك ، ألا يسرك أن تعلمى بما يبذله أبوك فى سبيلك ؟ انك ستصيرين عما قليل سيدة نساء هذا الجيش » . قال ذلك وأشار الى المعسكر

فلما سمعت قوله علمت انه يعرض بخطبتها لأحد كبار رجال الجيش ، فتحققت سوء ما أضمره لها بالأمس وأنها مقبلة على خطر شديد ، فارتبكت وحارت فى أمرها ولم تدر بماذا تجيب ، ولكن الاضطراب بدا على وجهها. ولو أنه تفرس فى قرطيها لرآهما يرتعشان ارتعاشا يحاكى خفقان قلبها — وما ارتعاشهما الا من رجع ذلك الخفقان — واحمرت وجنتاها فتشاغلت باصلاح دمالجها فى معصميها والنظر اليها فى حين انها لم تكن ترى شيئا لأن الدمع غشى بصرها ثم تساقط كاللؤلؤ على معصميها. فلما رآها تبكى تحقق أنها لاتزال عالقة القلب بحسن، فأراد أن يقطع أملها منه فقال لها : « ما بالك لا تجيبين ؟ . ألم يعجبك ما دبرته لك من أسباب السعادة ؟ أم لم تفهمى مغزى كلامى ؟ انك ستكونين سيدة نساء هذا الجند وجند بنى امية المحاصرين مكة الآن ، واذا أشكل عليك فهم مرادى فاعلمى أنك ستزفين الى الحجاج بن يوسف كبير أمراء مولانا الخليفة عبد الملك بن مروان ، وهو من ثقيف مثلنا ، وله ما لا أزيدك بيانا عنه من علو الشأن »

فلما سمعت تصريحه لم تعد تتمالك نفسها ، فغطت وجهها بكمها وأسندت رأسها الى العمود وظلت صامتة وقد حبست نفسها عن البكاء أو التنهد حتى كادت تختنق وهى لا تدرى بماذا تجيب ، مخافة أن يفتك بها ، فلم تر سبيلا غير البكاء . فلما رآها تبكى أمسك يدها وأبعدها عن العمود بلطف فطاوعته وهى تبالغ فى الاطراق فقال لها : « أحسب صورة ذلك الغلام فى ذهنك ، مع أنه قد مضى وانتهى أمره فلم يبق لك سبيل اليه . فاذا كان فى قلبك بقية أمل فيه فانزعيها واطرحيها جانبا »

فأجفلت سمية ، ورفعت رأسها ونظرت الى أبيها وعيناها تقطران دمعا وكأنها فى شك من قوله ، فابتدرها قائلا : « صدقينى انه لم يعد لك سبيل الى حسن ، ولا سبيل له اليك ايضا ، لأن أمره قد انقضى وأصبح فى عداد الأموات »

فلما سمعت قوله صاحت صيحة سمعها كل من فى الخيام ، ولطمت وجهها وقالت : « حسن مات ؟ مات ؟ لا . لا. انه لم يمت ، انه حى» . قالت ذلك واستغرقت فى البكاء ، وجلست على حصير من سعف النخل كانوا قد فرشوه فى أرض تلك الخيمة وجعلت رأسها بين كفيها

وأطلقت لدموعها العنان وأبوها ما زال واقفا وقد بغت لما رآه منها ، على أنه قال لنفسه : « انها لا تلبث أن تفرغ من البكاء ، فمتى تحققت موت حسن عادت الى رأيي » . فصبر هنيهة وهو يظهر الاستخفاف بما بدا منها ، ثم عاد فقال لها : « أراك كأنك لم تصدقي قولي مع انك تعلمين أني لم أكذبك قط . صدقيني أن حسنا قتل فى أثناء خروجه من المدينة فلا سبيل الى رجوعه . أم تريدين أن تقتلي نفسك من أجله ؟ »

فصاحت مولولة وقالت : « نعم أقتل نفسي ، ولاغرض لى فى الحياة بعده . لقد قتلتموه ظلما وغدرا ! . ويلك يا ظالم ! . كيف قتلته ؟ . أقتلني معه . . اقتلني ! » . قالت ذلك وعادت الى البكاء ، فلما رأى عرفجة تصلبها عمد الى الملاينة فقال لها : « أنا لم أقتله ولكنه قتل بذنبه . ولا فائدة من البكاء عليه ، فاشكري الله على أنه مات قبل أن يقترن بك ، والا ما وجدت حظوة فى عيني الحجاج »

فقطعت كلامه وقالت : « ما لى وللحجاج ؟ اني لا أريد غير حسن . حسن خطيبي . هو وحده حبيبي حيا أو ميتا » . ثم أجفلت وقالت : « لا لا ، لم يمت حسن ، بل هو حي وأيدي الظلمة اللئام تقصر عنه »

فقال عرفجة : « ألا تزالين تنكرين قتله ؟ هل أريك جثته لكي تصدقي ؟ » . فوثبت سمية من مجلسها وقالت : « لا . لا . لا تريني اياه ميتا . ويلاه ! . قتل حسن . قتلته أنت يا ظالم !. فاقتلني وأرح نفسك مني وأرحني من الحياة . أقتلني كما قتلت رجلا أنقذك وأنقذ أهل بيتك من القتل . ويل لك من مشهد يوم عظيم » . قالت ذلك وقد أحست بقوة عجيبة ويئست من الحياة . فلما سمع عرفجة تقريعها صاح بها : « اقصري يا فاجرة ، أبمثل هذا الكلام تخاطبين أباك ؟. والله لولا حرمة البنوة ولولا أن يقال اني قتلت فتاة لمزجت دمك بهذه المياه . . . . ولكني أعاملك معاملة صبية حمقاء ، وسأصبر عليك قليلا فاذا أبيت الا ما بدا من وقاحتك فاني قاتلك بهذا الخنجر ! »

قال ذلك واستل من منطقته خنجرا لمع نصله كالبرق فلما رأت النصل تعرضت له وقد حسرت ثوبها عن صدرها وهي تقول : «اضرب. أغمد خنجرك فى هذا القلب ، اطعن ، أتخوفني بالموت ؟ . ان الموت أحب الى من الحياة »

فلما رأى منها ذلك العناد صاح قائلا : « أهذه نتيجة تعبي فى تربيتك يا فاجرة ؟ لقد حل لى قتلك ، ولكني لا ألوث يدي بدمك وسترين قبل موتك جميع أصناف العذاب » . ثم صاح : « قنبر » . فأقبل ذلك العبد بأسرع من لمح البصر كأنه كان فى جيب عرفجة وأخرجه بيده ،

وقال : « لبيك يا مولاى » . فقال له : « شد يدى هذه الخائنة بالأمراس وقيد رجليها بالحبال وسأريها عاقبة العناد »

فلما رأت سمية قنبر مقبلا نحوها وثبت من مقعدها وصاحت به : « اذهب يا عبـد السـوء لا تدن منى . اغرب من وجهى ، لا تدن منى . اذهب قبح الله وجهك » . قالت ذلك وهى لا تعى ما تقول

أما قنبر فأخرج من جيبه حبلا كان قد أعده لمثل هـذا الغرض ، وهجم عليهـا وهو لا يبالى صياحهـا فقبض على يدها وهى تحاول التخلص منه ، وقد اشتد ساعداها حتى صارت مثل أشد الرجال ونسيت حزنها ، ودفعته عنها وهو يحاول اخضاعها بلا عنف ، فلما رآها تدفعه وتقاومه عزم على استعمال العنف فصاح فيها صيحة دوت دويا عظيما وجذبها من يدها فلطم رأسها عمود الخيمة ، فوقعت مغشيا عليها ، فأخذ فى شد وثاقها غير مكترث لحالها .

وكان الخدم قد سمعوا صياح سمية ، ولكن لم يجرؤ أحد منهم على الاقتراب من الخيمة الا أمة الله جاريتها فانها هرولت خلسة واستترت وراء نخلة حولها عشب العليق ولبثت تسترق السمع . فلما رأت هجوم قنبر على سيدتها علمت أنه لن يحجم عن قتلها ، ثم سمعت لطمة عقبها سكوت فخافت أن يكون قد أصاب سمية سوء ، فلم تر سبيلا الى نجدتها الا بالحيلة ، فأسرعت الى عرفجة وترامت على قدميه وقبلتهما وقالت : « بالله الا أشفقت على سيدتى وأغضيت عن جرأتها وأنا أضمن لك كل ما تريده منها »

وكان عرفجة يعامل سمية بذلك العنف لـكى يحملها على قبول الزواج بالحجاج ، لأنه يرجو من وراء ذلك منفعة كبرى لنفسه . وقد ذكرنا ما فطر عليه من حب الذات والطمع مع سوء النية ، وقد بلغ منه الطمع حدا هون عليه تقديم ابنته ضحية على مذبح أغراضه ، ومات ضميره فلم يعد يهمه ما يرتكبه فى سبيل بلوغ مقاصده . وكان يعلم أن الحجاج يرغب فى الزواج بسمية ويبذل لها مهرا كبيرا ، ولكنه كان يخاف أن تشكوه لعبد الملك بن مروان بوساطة سكينة بنت الحسين أو غيرها من أهل الوجاهة والنسب فى المدينة . فلما اطمأن الى مقتل حسن أخبر طارقا بن عمرو أمير المدينة بأن مثل ابنته لا تليق بغير الحجاج بن يوسف وانه يعلم برغبته فيها . وكان طارق أيضا مثل عرفجة قسوة وطمعا ولا سبيل له الى غرضه الا اذا تقرب الى الحجاج بما يرضيه ، فرأى أن يتقرب اليه بسمية فيخطبهـا له ويحملهـا اليه . فوافق عرفجة وساعده على التخلص من حسن ودفع اليه بعض مهر سمية ، على أن يأخذ بقية المهر بعد وصولها الى الحجاج بالقرب من مكة

وكان عرفجة يعلم ميل ابنته الى حسن ، ونفورها من الحجاج وغيره، ويتوقع اباءها فهيأ الأسباب لاقناعها بأية وسيلة ، وتواعد مع طارق على أن يخرج بها الى قرب المعسكر ويحاول اقناعها بالحسنى فاذا لم تقتنع عمد الى العنف فيحملها الى الحجاج مكرهة ولم يكن هو ينوى الذهاب معها لغرض له بالمدينة يتعلق بتلك المحفة السرية ، فأراد اقناعها خارج المدينة وارسالها توا الى مكة مخافة أن تفر الى سكينة وتلتجىء الى بيتها فى المدينة فتحميها أو تساعدها فى ابلاغ أمرها الى عبد الملك بن مروان قبل وصولها الى الحجاج . اما بعد أن تسير الى مكة ويتزوجها الحجاج فلا يعود هناك محل للشكوى . ولا يهمه أن تشكو سمية اذ يكون قد نال بغيته ، ولذلك أوصى طارقا بأن يعقد الحجاج قرانه بها حال وصولها حتى ينقطع لديها كل أمل فى النجاة . تم احتال فى اخراجها الى المعسكر كما تقدم . فلما رأى نفورها مما عرضه عليها من أمر الحجاج ، أصدر أمره الى قنبر بشد وثاقها وخرج هو من الخيمة لا يلتفت اليها

فلما لقيته أمة الله وترامت على قدميه ووعدته باقناعها ، نادى عبده فخرج ، وأمر أمة الله فدخلت الخيمة وحدها ، فرأت سيدتها مغمى عليها فبادرت الى ركوة من جلد فيها ماء فرشت سمية به حتى أفاقت ، وأخذت فى حل وثاقها . فلما رأت سمية جاريتها فوق رأسها تقبلها وتحاول انعاشها ، ارتدت روحها اليها ، وسمعت أمة الله تقول لها بصوت منخفض : « ماذا فعلت بنفسك يا سيدتى ؟ ما هذا الذى أرى ؟ »

فعادت سمية الى البكاء وقالت : « أتسألينني يا أمة الله عن ما تريته ، لقد مات حسن قتله الظالمون قبحهم الله »

فقطعت أمة الله كلامها ووضعت يدها على فمها وهمست فى أذنها وقالت : « اخفضى صوتك لنتدبر الأمر بالحكمة لأن العنف لا يجدى »

قالت سمية : « دعينى يا أمة الله . فانى لا أريد الحياة بعد مقتل حبيبى ومنية فؤادى حسن . لقد قتلوه لعنهم الله ! . ليتهم قتلونى عوضا عنه »

فتقطع قلب أمة الله حزنا على سيدتها ، ولكنها كانت عاقلة حكيمة صاحبة دهاء ، فتجلدت وقالت : « من قال لك انهم قتلوه ؟ »

قالت : « أتسألينني ؟. اما رأينا معا جمله مكسورا مهجورا ؟. وهبى أن ذلك لم يكن يدل على قتله فما قولك وقد اخبرنى بقتله أبى الظالم الخائن ، وعرض على أن يرينى جثته رأى العين ؟ . هل بعد ذلك من شك ؟ وهل تلومينني اذا ندبت حياتى ونحت على شبابى ؟ . وهل

ترين سبيلا الى راحتى غير الموت ؟ »

فقالت الجارية : « ان أمر القتل لا يمكن أن نعده يقينا حتى الآن ، وليس يخفى عليك رغبة أبيك فى تزويجك بالحجاج ، فلعله ادعى أن حسنا قتل لكى يحول قلبك عنه ، ومع ذلك فان قتلك نفسك أمر مستدرك ولا يجوز لك ذلك الا بعد أن تتيقنى أنهم قتلوا حبيبك . فعليك أن تصبرى ، ثم اذا لم يفتح الله عليك بابا للفرج ورأيت الحجاج أوشك أن يبلغ مرامه منك ، فليس أسهل من أن تقتلى نفسك بتجرع السم قبل وصوله اليك »

قالت : « ومن أين آتى بالسم ؟ »

قالت : « أنا آتيك به ، فاشترطى على أبيك أن أكون فى خدمتك ، وانا أهيىء لك السم ، ومتى تحققت انقطاع الأمل ، أسعفتك به ، وتجرعته منه معك ، أما الآن فدعى العناد وتظاهرى بالرضا ، ولا يبعد أن يفتح علينا قبل وصولنا الى هذا المعسكر ، أو قبل وصولنا الى مكة ، أو لعلنا نجد حسنا فى الطريق فتذهبين اليه . وليس يليق بك أن تطلقى لنفسك عنــان اليأس ، اذ ماذا يكون الشأن اذا قتلت نفسك وكان حسن لا يزال حيا ؟ »

فلما سمعت سمية كلام أمة الله أحست بانشراح صدرها وارتاح بالها وعادت اليها الآمال . والانسان سريع الرجوع الى الأمل لأن طبيعة الوجود تبعده عن اليأس ، وحب ذاته يهون عليه الرجوع عن الانتحار حبا فى البقاء ، ويندر أن يرتكب أحد جريمة الانتحار بعد اعماله الفكرة والتبصر . وما لبثت سمية أن استحسنت رأى جاريتها فقالت لها : « افعلى ما بدا لك ، فأنت تعرفين ما فى قلبى ، فعسى أن يأتينى الله بالفرج على يدك »

فسرت الجارية لنجاحها فى اقناع سيدتها ، ولـكنها شعرت بهول الموقف ، وكانت ترجح موت حسن . على أنهـا عمدت الى الصبر وخرجت الى سيدها وكان واقفا مع عبده تحت نخلة ، فلما رآها أومأ اليها أن تدنو منه . فمشت منحرفة عن موقفه ففهم انها تريد الاختلاء به . فمشى وحده حتى التقيا . فقالت : « انى رأيت سمية مطيعة لك فى كل ما تريد ، لكنها استوحشت معاملة قنبر فلا تدعه يخاطبها أو يكلمها . ولا يخفى على مولاى أن من كان فى حال سمية لا يؤخذ بالعنف ، وقد خاطبتها الآن باللين فرأيتها لانت ، ولا بد من جلسة أخرى اتمم بها المراد . فاذا كان لا بد من ارسالها الى معسكر طارق اليوم فدعنى اكن فى خدمتها حتى نأتى الحجاج ولك على كل ما يسرك »

فاطمأن بال عرفجة وهان عليه ابعاد قنبر عنها ، وأطاع أمة الله فى

ارسالها معها وقال لها : « لا بد من ذهابها الآن الى خيمة أعدوها لها فى معسكرهم ولا آمن أن تسير وحدها ، فاذهبى أنت معها وأكدى لها انى لم أفعل ما فعلته الا رغبة فى راحتها »

فقبلت أمة الله يده وقالت : « بارك الله فيك ، ولكن سمية تحتاج الى احضار ثيابها وأدواتها »

فقطع عرفجة كلامها وقال : « كل شيء معد لها فى خيمتها بالمعسكر وما عليها الا الرجوع اليه »

فقالت أمة الله : « أدخل الآن عليها فى الخيمة ، وكلمها كلاما لينا » . قالت ذلك ومشت فمشى عرفجة حتى دخل الخيمة فرأى سمية جالسة باكية ، فدنا منها وأمسك بيدها وقال : « لقد ساءنى ما ألجأتنى اليه من الكلام الجافى ، ولكنى علمت من أمة الله أنك فعلت ذلك بالرغم منك ، فانهضى وسيرى معها الى خيمتك فى المعسكر ، وقد أوصيتها بأن تكون فى خدمتك »

فنهضت سمية مطرقة ، فأسرعت أمة الله الى يد عرفجة وقدمتها الى سمية وهى تقول : « قبلى يد أبيك ليتم رضاؤه عنك » . فقبلتها . وكان الهودج لايزال معدا فقبلها وأركبها ، وأمة الله معها ، وركب هو بغلته وسار أمامهما حتى أوصلهما الى المعسكر وسلم الجمل الى عريف الجند . فتسلمه العريف وسار معهم الى خيمة فى بعض أطراف المعسكر

□

كانت سمية فى أثناء الطريق غارقة فى هواجسها وقد زال أثر كلام أمة الله فى نفسها . ولما مرت بالمكان الذى كان الجمل المكسور فيه رأت بعض العبيد قد نحروه وأخذوا فى سلخ جلده ، فتصورت أنهم قتلوا حسنا ونحروا جمله ، وعظم عليها الامر ولكنها تجلدت ، وكانت أمة الله تراقب حركاتها خلسة . وبعد هنيهة وصلوا الى المعسكر فتحققت سمية أنها وقعت فى الشباك وعز عليها أن تزف الى رجل فظ غليظ القلب بدلا من حبيبها ، فاستوحشت وزاد قلقها ـ والفتاة اذا زوجوها برجل تعرفه وترضاه لا بد من استيحاشها فى أوائل أيامها الا اذا كان زواجها عن غرام متبادل فكيف بسمية وهى ترجح قتل حبيبها ظلما ، وترى أن أباها قد باعها لرجل لا تحبه والناس يتحدثون بقساوته وشدته وبأن أمره نافذ لامرد له ؟

فلما وصل بعيرها الى الخيمة المعدة لها أناخوه وأنزلوها وأمة الله معها ، ثم دخلتا الخيمة فرأت سمية صندوقها وفراشها وكل معداتها

هناك فجلست على بساط كانوا قد فرشوه لها . وجلست امة الله الى جانبها تحادثها وتلاطفها ، وسمية تنظر الى خارج الخيمة تتشاغل بما تراه من حركات الجند والعبيد والخيل والجمال وهى مستغرقة فى الهموم . وكان أشد ما شغل ذهنها أن رأت كلبا ينهش خرقة سوداء ويلاعبها بين يديه فيقذفها ثم يعدو فى أثرها عدوه الى فريسة ، وتلك عادة الكلاب اذا لم تكن جائعة ثم اتفق أن قذف الكلب تلك الخرقة فوقعت بين يديها ، فما كاد بصرها يقع عليها حتى أجفلت وخفق قلبها ومدت يدها اليها ففر الكلب من أمامها

فأمسكت الخرقة بأنملتين ورفعتها وتفرست فيها فاذا هى ملوثة بالدم . وما لبثت أن قلبتها وصاحت : « ويلاه هذا هو القباء . هذا قباء أبى قتل حسنا به ! »

فتناولته أمة الله من يدها وقد عرفته ولكنها راحت تغالط سمية لتخفف عنها فقالت : « كيف عرفت أنه قباؤه والأقبية تتشابه ؟ »

فقطعت سمية كلامها وقالت : « قد عرفته من هذا الوشى على هذا الكم فانى طرزته بيدى وأنا أعلم الناس برسمه » . قالت ذلك وشرقت بدموعها ولم تنتظر جوابا من أمة الله وأخذت تبكى وتقول : « قتلوه . لم يبق عندى شك فى قتله »

فقطعت أمة كلامها وقالت : « وما علاقة هذا القباء بقتله ؟ »

قالت : « الا تتذكرين أن أبى أهداه اليه يوم عزمه على السفر ، وألح عليه أن يلبسه للوقاية من البرد ؟ ويل له من مشهد يوم عظيم . لقد ألبسه القباء وأوعز الى أحد من صنائعه أن يقتله وكأنه اتخذ القباء دليلا عليه فأصابوا غرضهم منه ، وهذه هى بقية القباء وعليها الدم . فهل من بعد هذا شك فى أنهم قتلوه ؟ . وما العمل ؟ كيف أسلم نفسى الى قوم قتلوا حبيبى ؟ » . قالت ذلك وغصت بريقها

فقالت أمة الله : « سلمى أمرك الى الله ولا تيأسى من رحمته. واعلمى ان ما يقدره الله واقع . فاصبرى والله مع الصابرين »

فلم تر سمية غير الصبر فصبرت نفسها . والمرء قبل وقوع المصيبة يتوهم أنها اذا وقعت يستحيل عليه احتمالها ، وقد يتوهم ذلك أيضا أهله وذووه ، ولكنه متى وقعت لا يعدم سبيلا لاحتمالها والصبر عليها وأمثال هذه الحوادث كثيرة نراها كل يوم . فلا غرو اذا صبرت سمية بعد ما تحققته من مقتل حبيبها

وفى أصيل ذلك اليوم نودى الجند : « الخيل الخيل » فركبوا بعد أن قوضوا الخيام ، وساروا والفرسان فى مقدمتهم وأصحاب الرايات بينهم وفيهم رؤساء القبائل يحيطون بطارق بن عمر ، وكلهم بلباس أهل

البادية الا هو فانه لبس درعا فارسية كان قد جاء بها من العراق

اما سمية فحملوها على هودج ومعها خادمتها ، وكان يقود الجمل عبد ، ويسوقه عبد ، والى كل من الجانبين حارس على هجين . وكان طارق يتردد الى الهودج يتعهده ويسأل أهله هل يحتاجون الى شيء ، ثم يركض فرسه الى أطراف الجند يتفقده ويدير شؤونه

□

فلنترك سمية فى هودجها تفكر فى مصيرها ولنرجع الى المدينة للبحث عن عبد الله خادم حسن فقد تركناه راجعا من بيت سكينة بعد أن أوصل سمية اليه. ثم أخبرت أمة الله سمية انه جاء الى المنزل للسؤال عنها فلم يجدها فرجع على أعقابه

وكان عبد الله لما رجع من بيت سكينة قد أسرع لملاقاة سيده خارج باب المدينة ، وهو قلق لما سمعه من حديث سمية مع حسن فى تلك الليلة . وتصور ما يحدق بسيده من الاخطار فسار وهو يفكر فى الامر ، ونسي نفسه فأخطأ الطريق وخرج من غير الباب الذى خرج منه حسن ، ثم سار من طريق آخر يؤدى الى جهة أخرى . وكثيرا ما يتفق ذلك فى مثل هذه الحال فيتجه الرجل شرقا وهو يرى انه يسير غربا . وبعد أن سار ساعة وهو لايرى راكبا ولايسمع صوتا وقد اشتد الظلام ، وقف ونظر الى ماحوله فاذا هو بين النخيل لايتبين الطريق ولايدرى اين هو ، ولكنه لم يكن له علم بطريقة الاستدلال بالكواكب ، فحول سيره الى جهة أخرى ، ولكنه لم يصل الى المكان المقصود ، على انه كان كلما بعد عن المدينة استدل عليها ببعض مايبدو فيها من الانوار فيرجع الى جوارها . وحدثته نفسه بدخولها ولكنه خاف أن يكون سيده فى انتظاره ببعض ضواحيها ، ثم بدا له ان سيده ربما كان قد عاد الى بيت سمية لسبب ما ، فرجع الى المدينة وجاء منزل عرفجة فلم يجد سمية هناك كما تقدم ، فعاد الى خارج المدينة وقضى ليلته فى هذا الاضطراب

وقبل الفجر سمع جعجعة جمل يتألم فولى وجهه شطر جهة الصوت ، وقد خيل اليه انه جمل سيده ، فاستأنس به ، واخذ ينادى الجمل بما تعود أن يناديه به من الاسماء والاصوات فازداد الجمل جعجعة ولكنه بقى فى مكانه حتى بلغه عبد الله فعرف انه جمل سيده حقا غير انه لايستطيع النهوض كأنه معقور ، فغاص عبد الله فى الماء حتى دنا منه فأدار الجمل رأسه اليه كأنه يحييه ويستنجده

ولما تحقق انه معقور، ولم يجد حسنا عنده، اضطرب وشغل باله، فأسرع الى الرحل فنزعه عنه، ووقف مدة وهو يفكر فيما عسى أن يكون قد حدث لحسن. واشتد به الاضطراب والقلق. ولم يجد فائدة من أن يسأل عنه فى بيت عرفجة لأنه لم يجده هناك بالامس، وقد خشى اذا سأل سمية عنه أن يزيد فى بلبالها. فخطر له أن يقصد الى المكان الذى باتا فيه ليلة وصولهما الى المدينة مع ليلى الاخيلية، فسار اليه، ومر أثناء مسيره بمنزل عرفجة فتنسم الاخبار، ولما لم ير أثرا لحسن واصل السير حتى أتى البيت فلم يجد به أحدا، فجلس وقد أخذ التعب منه مأخذا عظيما، ووضع الرحل بين يديه وجعل يفتشه فوجد اسطوانة مختومة وعليها اسم عبد الله بن الزبير فعلم انها الرسالة التى يحملها حسن الى مكة. فلما رآها ازداد قلقه وقال فى نفسه لو أن حسنا ترك الجمل باختياره لحمل هذا الكتاب معه، لأنه انما جاء هذه الديار من أجله. فترجح لديه انه قتل أو أصيب بمكروه، فقضى نهاره لم يذق طعاما، وأخذ يندب مولاه تارة، ويعلل نفسه بلقياه تارة أخرى. ولم يغادر سوقا ولا دربا من دروب المدينة الا مر به وهو يتفرس فى وجوه الناس ويتنسم الاخبار، فلم ير الا انهماك الناس فى اعداد النجدة للحجاج عملا بما حمله البريد اليهم. وبات ليلته بالمدينة وهو يفكر فى الامر، فقر رأيه أخيرا على أن يحمل كتاب خالد الى عبد الله بن الزبير فى مكة فيتم المهمة التى جاء حسن من أجلها، على أن يبحث عنه فى أثناء ذلك



عبدالله بن الزبير

كان عبد الله بن الزبير بن العوام من كبار الصحابة . وكان قد رفض المبايعة ليزيد بن معاوية كما رفضها الحسين بن علي ، وخرجا من المدينة الى مكة ، ودعا كل منهما الى بيعته هو ، على ان عبد الله رأى ألا يتظاهر بذلك والحسين فى مكة لعلمه انه أولى منه بالبيعة . فلما كان شخوص الحسين الى الكوفة ومقتله فى كربلاء ، خلا الجو لابن الزبير فبايعه الناس واستفحل امره ، وجعل مكة عاصمته . وبايعه أهل الحجاز واليمن . وحاربه بنو أمية ولكنهم لم يبلغوا منه وطرا ، فلما كانت خلافة عبد الملك بن مروان ، وكان الحجاج يومئذ أحد أمراء عبد الملك ، ولهذا ثقة فى شجاعته ، رغب الحجاج فى قتال عبد الله ، وقص على عبد الملك رؤيا قال انه رأى نفسه فيها وقد أخذ ابن الزبير وسلخه ، وطلب من عبدالملك ان يشخصه لقتاله ، فأشخصه فى ثلاثة آلاف من اهل الشام ، وأعطاه كتاب أمان الى ابن الزبير ومن معه أن أطاعوا ، وأوصاه بأن يرفق بالكعبة

فسار الحجاج سنة ٧٢ هـ . وحدثت بينه وبين ابن الزبير مناوشات لم يتم الفوز فيها لأحدهما ، فمل الحجاج ، وأرسل الى عبد الملك يستأذنه فى دخول الحرم وحصر ابن الزبير ، فأذن له وأنجده بخمسة آلاف آخرين ، فاشتد بذلك أزر الحجاج ، وحاصر الكعبة ورماها بالمنجنيق . فعظم ذلك على المسلمين وأنبوه ، ولكنه أصر على رأيه . وطال الحصار على أهل مكة حتى قل زادهم وأصابهم جوع شديد . وكانت مكة يومئذ قليلة العمارة ليس فيها غير المسجد وفى وسطه الكعبة وبعض الابنية ، وكانت الكعبة قد تهدمت فى حصارها قبل قدوم الحجاج فأعاد ابن الزبير بناءها على أوسع مما كانت عليه

ونصب الحجاج المنجنيق على جبل أبى قبيس المشرف على مكة من جهة الشمال والشرق

وكان ابن الزبير مقيما مع أهله بالمسجد الحرام ، ومعه جماعة من رجاله قد بايعوه حتى الموت وصبروا معه صبر الرجال . وأما الحجاج فكانت خطته أن يستمر فى تضييق الحصار على عبد الله ، وبعث بسراياه يطوفون حول مكة يمنعون الدخول اليها والخروج منها . ولما طال أمد

الحصار دون أن يستسلم المحاصرون استنجد الحجاج طارقا أمير المدينة كما تقدم

□

ولنرجع الى حسن وقد خرج من المدينة على جمل أهداه اياه أبو سليمان ، ومعه العبد بلال . وبعد مسيرة أيام أشرفا على مكة عند الغروب فرأياها محاطة بشراذم من الفرسان يطوفون حولها . فقال بلال : « انى أرى الطلائع الاموية حول مكة ، ولا آمن اذا واصلنا السير أن يمنعونا ، فهل تأذن لى فى الخروج اليهم للاستطلاع ثم أعود اليك ؟ »

فوافقه حسن على ذلك ، وأوصاه بالرجوع اليه عند حائط انتظره فيه بعيدا من الطريق العام

وسار بلال ، واتجه حسن الى ذلك الحائط ، وهو من آثار بناء قديم هناك ، وترجل وعقل جمله وراء الحائط ثم اتكأ بجانبه بحيث لا يراه أحد من المارة . ولبث مدة وقد طاب له الاتكاء لعظم ما قاساه من الجهد فى أثناء ركوبه الطويل من المدينة الى مكة فأحس براحة ، ولكنه ما لبث أن رأى الشمس تغرب والظلال تتقلص وبلال لم يرجع . فلما آن العشاء استبطأه وحسب لتأخره ألف حساب، ثم وقف وتسلق الحائط وجعل ينظر الى الافق لعله يراه قادما

وفيما هو فى ذلك سمع سعال بلال ، فالتفت فرآه قادما يعدو عدو الغزال والارض رملية لا يسمع وقع الخطى عليها ، فلما وصل اليه قال : « لا سبيل لنا الى مكة الليلة لأن رجال الحجاج مضيقون عليها الحصار ، من كل ناحية حتى لا يدخلها أحد ولا يخرج منها أحد »

قال حسن : « وما الحيلة ؟ . لابد من دخولنا »

قال : « ليس لنا يامولاى الا أن نصبر الى الغد ، لأبحث عن سبيل الى دخولنا »

فقال : « أنبقى وراء هذا الحائط الى الغد ؟ »

قال : « كلا يامولاى ، فقد دبرت وسيلة أظنها تريحك وتسهل عليك الدخول »

قال : « وما هى ؟ »

قال : « أتعرف محمدا بن الحنفية ؟ »

قال حسن : « كيف لا وهو ابن الامام على ، وأخو الحسن والحسين من أبيهما ؟ »

قال : « ان له حرمة عند الحجاج وعنـد ابن الزبير ، فاذا وسطناه دخلنا مكة على أهون سبيل »

قال : « كيف تكون له هذه الحرمة وهو عدو لابن الزبير ولعبدالملك ، لأنه يزاحم الاول على الخلافة فى الحجاز ، ويزاحم الآخر على الخلافة فى الشام . ألم تسمع بحديث المختار ؟ »

فقال بلال : « كيف لم أسمع به ؟ »

فقال حسن ولم ينتظر اتمام جوابه : « لقد كان المختـار يطالب بالخلافة لمحمد بن الحنفيـة ، ثم قتله مصعب أخو عبـد الله بن الزبير المحصور فى هذا الحرم الآن ، وجاء عبد الملك بن مروان فحارب مصعبا وقتله وأخذ العراق منه »

قال : « صدقت يامولاى ، ولكن المختار طلب من تلقاء نفسه البيعة لابن الحنفية دون أن يكلفه هـذا بذلك ولا أراده ، وقد لجـأ المختار الى هذه الخطة تمهيدا لاستقلاله بالامر لنفسه ، وعلى هـذا حمل الكرسى المشهور أمره عنـد النـاس ، وزعم انه كرسى الامام على ، كما ادعى مايشبه النبوة حتى كرهه الناس ونفروا منه »

فقال حسن : « هل رأيت ذلك الكرسى وهل تعرف أصله ؟ »

قال : « ان سر هـذا الكرسى عندى ، وطالما جلست عليه قبـل أن يصبح مقدسا كما ادعى المختار »

قال : « وكيف ذلك يابلال ؟ انك والله لواسع الاطلاع »

قال : « ان الذى يعيش طويلا يرى كثيرا . فقد اتفق لى منذ بضع سنين وأنا فى المدينة انى اصطحبت رجلا اسـمه الطفيل بن جعدة بن هبيرة ، وكانت جدته أم جعدة أخت على بن أبى طالب . وكان يتردد الى جار له زيات كنت أتردد اليه أحيانا ، فأصيب الطفيل يوما بضيق ولم يبق معه ماينفقه على نفسه . وكان المختار يومئذ قد قام لمحاربة قتلة الحسين ، فأراد الطفيل أن يحتال عليه ليكسب منه مالا ، فاشترى من جاره الزيات كرسيا قديما كان مهملا عنده ثم غسله وسقاه الدهن حتى لمع ، وذهب به الى المختار وقال له : انى كنت أكتمك شيئا وقد بدا لى أن أذكره لك . ان أبى جعـدة كان يجلس على كرسى عنـدنا ، ويروى أن فيه أثرا من على . فقـال له المختار : سـبحان الله لمـاذا كتمت خبره ، ابعث به الى . فبعث به اليه وقد غشاه بملاءة ، فدفع له اثنى عشر ألف درهم . فأخذها الطفيل وانصرف . ثم غشى المختار الكرسى بالديباج وزينه بأنواع الزينة ، ودعا الناس الى المسجد حيث أراهم اياه بعد الصـلاة وقال لهم : (ان هـذا الكرسى من ذخائر أمير

المؤمنين على عليه السلام ، وهوعندنا بمنزلة التابوت لبنى اسرائيل) . فصدقوه وصار اذا حارب خصومه حمل الكرسى معه الى ميدان القتال وقال لمن معه : (قاتلوا ولكم الظفر والنصر ، هـذا الكرسى محله فيكم محل تابوت بنى اسرائيل ، وفيه السكينة والبقية ، والملائكة من فوقكم ينزلون مددا لكم) .. »

فقال حسن : « لعلك تعرف ابن الحنفية ؟ »

قال : « نعم يامولاى ، وقد شـهدت كثيرا مما يتناقله النـاس من أحاديث قوته البدنيـة . واذكر انى رأيته فى حيـاة أبيه الامام على ، وكنت غلاما ، وفى يد أبيه درع طويلة فأراد أن ينقص بعض حلقـاتها فدفعها الى محمد وأمره أن ينقص منها كذا حلقة ، فقبض محمد باحدى يديه على ذيلها وبالاخرى على فضلها ، ثم جذبها فقطعها من الموضـع الذى حدده أبوه . وهو يعرفنى أيضا » .

فقال حسن : « وماذا ترى أن نصنع الآن ؟ »

قال : « ان ابن الحنفية مقيم الآن بالشعب فى جوار مكة ، فاذا شئت نزلنا عنده الليلة ثم نرى مايكون فى الغد »

فقال : « وهل تعرف الطريق اليه ؟ »

قال : « عرفته فى أثناء غيابى عنك الآن ، وقد أوصـانى بك مولاى أبو سليمان خيرا أراك أهلا له .. فأنا خادمك حتى تبلغ مأمنك »

فقال حسن : « بورك فيك » . وأخذ يهيىء رحـله للركوب وبلال يساعده ويقول : « انى أرى مكة فى ضيق شـديد ، وأخاف على ابن الزبير من عاقبـة هـذا الصبر ، فان الامويين غالبون آخر الامر على ما أرى »

فتذكر حسن ما هو قادم لأجله وخاف الفشل ، ولكنه صبر ريثما يدخل مكة فى الغد

سار حسن وبلال حتى أتيا أرضا صخرية مشيا بين شعوفها ، ثم صعدا تلالا أشرفا منها بعد قليل على شعب بعيد أوقدت به نار لهداية الضيوف كما هى العادة عند العرب . وهم حسن بأن يسأل بلالا فاذا بهذا يقول له : « اننا على مقربة من الشعب ، وعما قليل تبدو لنا الخيام ونسمع صهيل الخيل ، فهل تريد أن ننزل فى دار الاضياف رأسـا أم نقصد خيمة محمد نستأذنه ونخاطبه فى أمر دخولنا مكة ؟ »

قال : « أخشى أن يكون فى ذهابنا الآن الى خيمته مايزعجه ، فلنترك ذلك الى صباح غد »

قال : « اذن نذهب الى دار الضيافة فانهم لايسألون القادم الينا عن

سبب قدومه ، ومتى أصبحنا نرى مايكون . وربما خرجت أنا الليلة لأدبر الامر »

فأثنى حسن على غيرته . وبعد قليل لاحت لهما خيام عديدة منصوبة على غير نظام يتوسطها فسطاط كبير عرفا من اتساعه ووقوف بعض الخدم ببابه انه فسطاط محمد بن الحنفية ، فوقف بلال برهة وهو يتفرس فى الخيام حتى تبين خيام الاضياف وعرفها من انفرادها عن سواها وقربها من النار. فسارا حتى اقتربا منها فسمعا لغطا وكلاما . ثم ترجل حسن ، وسبقه بلال الى أقرب الخيام فلقيه رجل رحب به وسأله عما يريد ، وطلب اليه أن ينتسب ، فانتسب وقال : « اننا اضياف غرباء » . فأنزلهما على الرحب والسعة ، وأفرد لهما خيمة ليس فيها أحد . فدخل حسن ، وأعطى بلال الجمل لأحد الخدم ليأخذه الى المعالف ، ثم عاد الى حسن فوجد عنده طعاما أعده القوم ، فأكلا ، ثم خرج بلال ، على أن يعود بعد قليل ، وتوسد حسن على فراش من جلد فرشوه له ، وكان التعب قد أخذ منه مأخذا عظيما فغلب النعاس عليه فنام ، ولكن هواجسه لم تنم معه فتحولت الى أحلام مزعجة رأى فيها انه دخل مكة وقد دخلها الحجاج وقبض عليه وحبسه وقيده ، فشق ذلك عليه وانزعج ، ثم أفاق من نومه مذعورا فشكر الله لأن ذلك كان حلما ولكنه تشاءم وغلب عليه الارق فجعل يتقلب والنوم لا يأتيه. فأراد رؤية بلال لعله يقص عليه ما يتسلى به ريثما يطلع النهار، وخرج للبحث عنه عند باب الخيمة حيث ظن انه نام هناك ، وناداه فلما لم يجب ظنه مستغرقا فى النوم ، ثم ما لبث أن تبين انه لم يعد بعد ، وتفرس فى النجوم فعلم انه فى الهزيع الاخير من الليل ، فقلق على بلال، ثم التف بردائه اتقاء للبرد ، وخرج ليبحث عنه حول الخيام

□

وفيما هو فى ذلك سمع جعجعة جمل قادم نحو الخيام فالتفت فاذا هناك جملان على أحدهما ما يشبه الهودج ويقوده رجل ماش لم يستطع تبين وجهه لاشتداد الظلام ، فتبادر الى ذهنه ان رجلا وامرأته وخادمه قادمون للمبيت هناك الى الصباح . ولكنه استغرب مسيرهم فى أواخر الليل بجوار مكة وهى فى حصار شديد . فعاد الى خيمته وفى نفسه أن يستطلع حقيقة القادمين ، فجعل ينظر من شقوق فى الخيمة تطل على الطريق ، فرأى ان الجملين قد أنيخا ونزل راكب أحدهما وهو رجل قصير القامة ، ملثم بعمامته وقد التف بعباءته . ثم رأى الرجل الذى كان ماشيا يقود الجمل فاذا هو عبد كبير الجثة سريع

الحركة ، تسلم جمل الراكب الاول وعقله بجانب الجمل الآخر وهو يقول : « أترى يامولاى أن ابقى هنا مع الجملين ، أم أسير فى خدمتك ؟ »

فرد عليه الرجل بصوت منخفض قائلا : « امكث أنت هنا واحتفظ بما على الجمل فانه أعز شيء عندى كما لايخفى عليك »

قال : « هل أسير فى خدمتك الى خيمة الاضياف ؟ »

قال : « لست ذاهبا الى هناك ، فامكث أنت هنا ريثما أعود اليك». قال ذلك ومشى

وكان حسن يتوقع أن يرى زوجة الرجل الاول تنزل من الهودج ، ولكنه رآه ما زال مجللا بغطائه ، ثم رأى العبدعاد الى الجمل الذى يحمل الهودج وجلس بجانبه مستندا الى بطن الجمل ، وما لبث أن نام نوما عميقا وعلا شخيره . فاستغرب حسن مارآه ، وكان قد تعب من الوقوف ، فعاد الى فراشه وفكره مضطرب . وبعد أن جلس قليلا عاد الى باب الخيمة للبحث عن بلال وقد ازداد قلقه لغيابه ، فأطل برأسه من الباب وتلفت يمنة ويسرة فلم يجد أحدا ، وحال الظلام بينه وبين الاشباح البعيدة فعاد الى فراشه وقد احدقت الهواجس به ، فحدثته نفسه بأن يخرج الى ذلك العبد ويسأله عن سر الهودج ، ولكنه أحجم وقال : فى نفسه : « لو كان بلال هنا لكلفته بهذه المهمة »

وفيما هو فى ذلك سمع وقع أقدام خارج الخيمة تقترب من بابها ، فأدرك ان بلالا قادم ، ولم يشأ أن يناديه لئلا ينتبه العبد الآخر النائم بجانب الجمل . فوقف ومشى الى الباب، فرأى بلالا يهم بالاتكاء ، ورآه بلال فوقف وقال : « ما الذى أيقظك فى آخر الليل يامولاى ؟ »

قال وهو يشير اليه أن يخفض صوته : « لقد استيقظت من زمن ، فقلقت لغيابك ، ثم رأيت بعض الناس حطوا رحالهم وراء خيمتنا ، وظهر لى من امرهم ما أقلقنى »

فقال بلال : « وما الذى تبغيه منى فأفعله ، انى رهن اشارتك »

قال : « هل مررت من وراء هذه الخيمة ؟ »

قال : « كلا وانما جئت من هنا »

قال : « تعال اذن » . وأمسكه بيده فأدخله الخيمة وأراه الجملين والعبد النائم تحت الهودج ، وقص عليه ماكان من امرهم الى أن قال : « فهل تستطيع مخاطبة هذا العبد لتعرف منه الغرض من قدومهم ؟ »

قال : « ذلك شيء يسير » . ثم خرج من باب الخيمة ودار حتى دنا من الجملين وحسن ينظر اليه من شق الخيمة فرآه يقترب من العبد رويدا رويدا حتى دنا منه وتفرس فى وجهه والعبد نائم ثم انكفأ راجعا

سرعا حتى دخل الخيمة ، فبادره حسن سائلا : « لماذا لم تخاطبه »

قال : « لأنى أعرفه واعرف حكايته »

قال : « وكيف ذلك ؟ »

قال : « اجلس لأقص عليك ما يغنيك عن كثرة البحث . لقد نمت اول الليل بباب هذه الخيمة ولكننى ما لبثت أن استيقظت وأخذت أفكر فى حيلة نستطيع بها مقابلة محمد غدا حتى لا يطول مكثنا . وخفت ان يكون علينا بأس اذا عرفوا مدخلنا ومخرجنا وغرضنا فرأيت أن أذلل العقبات وأنت نائم ، فنهضت وسرت الى رجل من المقربين الى الامير كنت قد عرفته أيام كنا بالمدينة ولى عليه دالة . فلقيت الرجل فى خيمة له بقرب خيمة ابن الحنفية وبينهما طريق مفتوح ، يدخل عليه صاحبى منه من باب خاص دون سائر الناس ، فلما أتيته رحب بى وأكرمنى وسألنى عن أمرى ، فقلت له اننا جئنا نلتمس من الامير وسيلة ندخل بها مكة . فوعدنى خيرا ثم اجلسنى وجعل يسألنى عن حوادث مرت بنا قديما وأمور يهمه الاطلاع عليها ، وكلما هممت بالنهوض أقعدنى حتى طال بى الجلوس . وبينما أنا أهم بالنهوض سمعنا وقع أقدام خارج الخيمة على غير انتظار فأقعدنى صاحبى وخرج وهو يقول : (من الرجل؟) . وسمعت من يجيبه قائلا : (أنا عرفجة) . ولما كنت أعرف رجلا اسمه عرفجة كان يتردد على عامل المدينة وكثيرا ما رأيته فى دار الامارة خرجت لأحقق أمره فرأيت الرجل ملثما ولكننى عرفت انه هو صاحبى هذا من صوته وقامته »

وهنا تذكر حسن أن الصوت الذى سمعه لما أناخ الرجل الجملين يشبه صوت عرفجة ، فبغت واستغرب مجيئه فى هذا الليل ، وتبادر الى ذهنه انه ربما علم بقدومه فجاء للوشاية به لدى ابن الحنفية ، ولكنه استبعد ذلك لعلمه انه ليس على وجه البسيطة رجل عرف بخروجه من المدينة غير سليمان وأبيه وخادمه بلال . ثم على فرض أن عرفجة عرف بمسيره الى مكة فكيف يعرف انه فى هذا الشعب . ولكن اذا كان هو عرفجة فمن عسى أن تكون التى جاءت معه فى الهودج ؟ انه غير متزوج وليس عنده من النساء الا ابنته سمية ، فهل هى التى فى الهودج ؟ وخفق قلبه وتصاعد الدم الى وجهه . كل ذلك وبلال واقف بين يديه ينتظر اشارته لاتمام حديثه

فقال حسن : « وهل عرفت الغرض من قدوم هذا الرجل فى هذا الليل ؟ »

قال : « كلا يامولاى لأنى رأيته يحدث صاحبى همسا فرأيت أن أنصرف لأخلى لهما المكان . ولما استأذنت صاحبى نادانى اليه وقال :

« موعدنا غـدا ان شـاء الله » . فعلمت انه لايزال على وعده فأتيت وآثرت النوم بباب الخيمة الى الصباح »

فقال حسن : « وما الذى عرفته من أمر العبد النائم بجانب الجمل؟ »

قال : « عرفت انه قنبر خادم عرفجة ، وهو عبد سـمج الخلق فظ الطبع يعرفه كل أهل المدينة »

قال حسن : « وما ظنك بمن فى الهودج ؟ »

قال : « لا أظنه هودجا وانما هو محفة . ولايبعد أن يكون فيها بعض النساء أو ربما كانت فيه ابنته سمية لأنه ليس له سواها »

فلما سمع حسن اسم حبيبته تجددت أشـجانه ، وتذكر ان بلالا لايعلم شيئا من أمره مع سمية ، فضاقت نفسه عن كتمان سره ولكنه تجلد وقال : « أتظنه يحمل ابنته معه الى هنا فى مثل هذه الظروف؟ »

قال : « لا أخاله يفعل ذلك ، وهب انه حملها فلا أظنه يبقيها محبوسة لانسمع لها صوتا ، ولاسيما ان المحفة ضيقة لاتكفى لكى تنام فيها »

فاطمأن قلب حسن على سمية ولكنه بقى مشغول الخاطر بأمر المحفة ، وهم بأن يعود الى سؤال بلال فى شأنها ، فاذا بهذا يبتدره قائلا : « ليس فى المحفة فتـاة ولا امرأة ، فقـد تذكرت الآن ان لهذا الرجل محفة قد احتفظ بها فى منزله لايطلع احدا على مافيها ، وأهل المدينة مشتاقون لمعرفة سرها . فلعلها هى هذه »

فازداد حسن شوقا الى معرفة سر المحفة ، ولـكن القلق عاوده من جهة ماحمل عرفجة على القدوم فى هذا الليل، فقال لبلال : « متى نذهب الى ابن على ؟ »

قال : « عند طلوع الشمس »

فعاد حسن الى فراشـه ، واضطجع بلال بباب الخيمة . وقضـيا مابقى من الليل بين نوم وتقلب وهواجس، ولما طلع النهار نهضا وخرجا فما كاد حسن يلتفت الى موضع الجملين وراء خيمته حتى بغت اذ لم يجد لهما أثرا ، وظن ان عرفجة قد سافر

وواصلا سيرهما بين الخيام ، وهى على مرتفع من الارض متشعب ، به للخيل والجمال مسارح وقد خرج الخدم ليقدموا لها علفها . فلمـا بلغا خيمة محمد ، وكانت رحبة عالية قائمة على عمد عديدة ، رأيا بابها مسدلا فعلما ان محمدا فى شاغل ، فتحولا الى خيمة صاحب بلال وهى ملتصقة بها ، فلما دخلا عليه رحب بهما وأدخلهما وهو يشير اليهما الا يتكلما . فدخل حسن ونظر من كوة فى الخيمة تطل على خيمـة الامير فرأى محمدا جالسا وبين يديه رجل قصير القـامة عرف انه عرفجة ، فقال فى نفسـه هذه فرصة لاينبغى أن نضيعها ويجب أن نطلع على سر

هذه المقابلة . وتفرس حسن فى محمد فاذا هو كبير الوجه وقد بانت فيه ملامح الشيخوخة وهو لايزال كهلا ، ولكنه كان يخضب لحيته بالحناء والكتم فلا يظهر فيها الشيب على ان دلائل القوة لاتزال ظاهرة فى كفيه ووجهه وعينيه

وخاف حسن أن يكون فى تطلعه هكذا مايؤاخذ به صاحب بلال ، فأراد أن يعتذر فتظاهر بالرغبة فى الخروج فقال له الرجل : « تفضل يامولاى واجلس فانى أحب الاطلاع على غرض هذا الرجل من هذه المقابلة السرية التى يزعم انها ذات بال ، ولقد ساءنى بخشونته حتى صرت لا أبالى كتمان سره »

فنزل هذا القول بردا وسلاما على قلب حسن ، وفرح لتمكنه من نيل بغيته ، ولكنه تظاهر بعدم اكتراثه للاطلاع على السر ، وجلس بحيث يرى ولايرى فرأىعرفجة جالسا بين يدى ابنالحنفية ويخاطبه متهيبا ، وسمعه يقول له : « انت تعلم أيها الامام انك أولى الناس بهذا الامر بعد الحسن والحسينسيدىشباب أهل الجنة . ان الخلافة بعدهما لك فأنت وحدك ولى هذا الامر وليس بنو أمية سوى معتدين »

وظل محمد صامتا لايتكلم، فظنه عرفجة راضيا بما يقول، فاستأنف الكلام قائلا : « وانت تعلم يامولاى ان المختار قام بالدعوة لبيعتك ، ولكنه لم يثبت على عهده فلم يوفقه الله ، كما تعلم ان السر الذى كان يستعين به على بث الدعوة جدير بأن يقوم به من تندبه لذلك » .

وظل محمد صامتا مطرقا كأنه يفكر فى أمر آخر، فىحين مضىعرفجة فى حديثه فقال : « ولايخفى على مولاى الامام ان بنى امية الآن فىشغل بعبد الله بن الزبير ، وأكثر جندهم منهمكون فى حصاره ، والعراق خال ممن يدعو أهله الى الحق ، فاذا ندبت أحدا وسيرته الى العراق ليدعو الى بيعتك كان ذلك من سداد الرأى »

فرفع محمد رأسه وقال : « ان الفشل لم يأتنا الا من العراق ، ففيه قتل أبى وأخى غدرا وخيانة »

فزحزح عرفجة نفسه على البساط وقال : « ان السبب فى ذلك الفشل لم يبق منه شىء الآن . وانى أرى السبل قد تمهدت والوقت دنا لظهور الحق »

فقال محمد : « ومن تراه يليق لهذه المهمة ؟ »

قال : « انك أنت الذى ستضع سرك بين يديه وتعهد اليه فى النداء بصوت الله ، فأمر اختياره اليك »

قال : « وبمن تشير ؟ »

فسكت عرفجة وأطرق ، وكأنه يخشى أن يصرح بترشيح نفسه

لهذه المهمة لئلا يساء الظن به ثم قال : « ان هـذا الانتداب لايكون الا بالهام من الله ، فاختر من يلهمك الله اختياره »

قال : « واذا لم يلهمنى الله ؟ »

فارتبك عرفجة فى أمره وتهيب التصريح له بغرضه . وكان غرضه الاول من هذا الامر كسب المال فباع ابنته للحجاج وجاء لنصرة عدوه

وكان محمد بن الحنفية يومئذ على الجياد وقد طلب الحجاج منه أن يبايع لعبد الملك ، وطلب منه ابن الزبير أن يبايع له ، فأبى البيعتين ولبث فى انتظار مايكون من أمر مكة وحصارها ، وذلك لأنه كان عاقلا لايجهل عجزه عن القيام بدعوة جديدة الى بيعته هو بعد ذلك الفشل . على انه ظل يساير عرفجة وهو لاينوى ترك الجياد

أما عرفجة فلم ير بدا من الاجابة فقال : « اذا لم تلهم اختيار أحد لهذه المهمة فاختر صاحب الكرسى »

فقال محمد : « وأى كرسى ؟ »

فنهض عرفجة وتحول الى باب الخيمة ونادى قنبر عبده ، ثم رجع ، وبعد هنيهة دخل قنبر وعلى كتفه المحفة وعليها ستار ، فوضعها بين يدى محمد وخرج . فقال محمد لعرفجة : « ما هذا ؟ »

قال : « هذا تابوت العهد ! » . ثم أخرج مفتاحا ورفع الستار عن المحفة وجعل يعالجها بالمفتاح حتى فتحت فرفع سقفها وحسن ينظر ويتطاول بعنقه وهو يعجب من غدر عرفجة وخبثه . ثم ما لبث أن رآه مد يده الى داخل المحفة وأخرج شيئا مغشى بالديباج فرفع الديباج عنه فاذا هو كرسى خشبه يلمع كالمرآة

وتقدم عرفجة بالكرسى حتى وضعه بين يدى محمد وهو يقول : « اليس هذا كرسى الامام على الذى انتصر به المختار ؟ »

فابتسم محمد وقال : « ولكنه فشل بعدئذ »

قال : « لقد فشل لأنه لم يخلص النية فى سعيه »

فقال محمد : « وهل تخلص أنت النية اذا ندبناك لهذه المهمة ؟ »

قال وقد بان السرور فى وجهه : « كيف لا ، وهذه بغيتى واكون قد نصرت الحق وأهله ؟ »

□

عجب حسن لقبول محمد هذا الامر ولكنه ما لبث أن سمعه يقول لعرفجة : « ولكن دعوة أهل العراق تحتاج الى المال ، لأن بنى أمية انما

غلبوا أخوى بالمال ، وسيغلبون اللائذ بالكعبة بالمال أيضا ، فان ديارهم غنية وعندهم المال كثير ينفقونه فى ابتياع الاحزاب والاتبـاع . فاذا كنت صاحب مال فانى أرجو لك النجاح »

فلما سمع عرفجة كلام محمـد سقط فى يده ، وخاب ما أمله ، ولم يدر بماذا يجيب . ولكن محمدا لم ينتظر جوابه فقال له : « ان هـذا الكرسى الذى تزعم انه كرسى أبى ليس سوى كرسى قديم لأحد الزياتين. وقد زعمت انى ندبت المختار ليدعو الى بيعتى ، وهذا وهم باطل لأن ذلك الثقفى انما ندب نفسه لتلك المهمة ليشبع بطنه . فاذا كنت أنت جائعـا فالتمس بابا آخر غير هـذا ! » . قال ذلك وقد ظهر الغضب والجد فى وجهه

فارتبك عرفجة وتحقق ضياع أمله بعد أن قضى بضـعة أعوام فى تنميق ذلك الـكرسى وصقله ، وكتمان أمره عن أهل المدينـة . وكان لا يشك فى انه اذا عرض الامر على محمد بن الحنفية وجد منه قبـولا ، وبذلك يبتز منه المال ليشبع مطامعه وشرهه ، ويضيف ذلك المال الى ماقبضه ويقبضه مهرا لابنته من الحجاج

وكان عرفجة من أصحاب الاحسـاس الاصم والعواطف المائتـة . لايحجم عن عمل مهما يكن خطيرا ، اذا وجد فيه مايشبع نهمه الى المال فلما تبين الغضب فى عينى محمد ، عمد الى الخديعة فوقف بين يديه وهو يظهر الاستغراب وقال : « لقد عجلت يامولاى بالحـكم على ، وأنا انما أدعوك الى أمر عائدته لك ولأهل بيتك ، ولا التمس على ذلك أجرا ولا شكورا »

فقطع محمد كلامه وهو ينظر اليه شزرا وقال : « أتظن أمرك يخفى على ؟. لقد قرأت المكر والخديعة فى عينيك . ولولا حرمة الجوار لألحقتك بالمختار وألحقت بك بنى ثقيف ! » . ثم نادى : « سعيد »

فنهض صاحب بلال وهو يكاد يطير من الفرح ، وأسرع حتى دخل على محمد ، وحسن وبلال ينظران وقد غلب عليهما السرور

فلما وقف سعيد بين يدى محمد قال له : « ألق هذا الكرسى فى النار ، وأخرج هذا الثقفى من خيمتى ، وليقم حيثما يشاء واذا رحل فزودوه بما يحتاج اليه »

فلما سمع عرفجة ذلك خرج من تلقـاء نفسه وهو يظهر الاسف ، وتبعه سعيد حتى خرج من الفسطاط ، فوجده يبحث عن عبده قنبر فلما لم يجده التفت اليه وقال : « انى راحل الى بلدى وقد أسفت لأن الامام محمدا لم يفهم مرادى » . قال ذلك متلطفا خوفا على حيـاته . فعجب سـعيد للفرق العظيم بين هـذا التزلف وبين

مقابلته الخشنة ساعة وصوله بالأمس ـ وذلك شأن اهل الكبرياء يستبدون بالضعفاء من الناس ، فاذا لقوا قويا استولى عليهم الذل وصغرت نفوسهم . لأن ما كان يبدو من كبريائهم واستبدادهم لم يكن عن نفس كبيرة وانما هو ضعف رأى وصغر نفس

وكأنما رق قلب سعيد لتزلف عرفجة ، فعرض عليه النزول فى دار الأضياف فاعتذر برغبته فى الرجوع ، وكان قنبر قد عاد فناداه وأمره باعداد العدة للرحيل ، ثم ركب عرفجة جملا وقنبر الجمل الآخر وخرجا من الشعب يلتمسان معسكر الحجاج . فلما بعدا عن الخيام أخذ عرفجة يتوعد محمدا بالسوء عند الحجاج ويذكره بكل قبيح من الشتم والسباب ليستر ما بدا لعبده من فشله

اما سعيد فانه عاد الى فسطاط محمد وتناول الكرسى والقاه فى النار وعاد الى حسن وبلال فى خيمته فأخبرهما بخروج عرفجة من الخيام ، وهنا عاد حسن الى التفكير فى دخول مكة فسأل سعيدا فى ذلك فأجاب بقوله : « سألت مولاى الامام فى هذا الشأن فأمر بذهابى معكما لأنى تعودت الذهاب الى مكة خلال الحصار وأكثر الطلائع يعرفوننى » . قال ذلك ودخل على محمد يستأذنه فى الذهاب معهما فأذن له

وعاد سعيد اليهما بالاذن فخرجا الى دار الأضياف ليتأهبا للسفر ، وبعد قليل جاءهما سعيد على جواد ، فركبوا وساروا يلتمسون مكة من طريق يعرفه ، والشمس قد تكبدت السماء

□

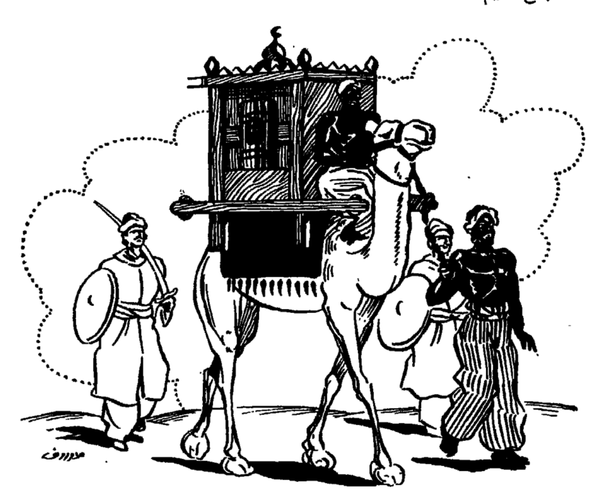
وفيما هم يسيرون وحسن يفكر فى مهمته وكيف يدخل على عبد الله بن الزبير وليس معه كتاب خالد ، رأوا غبارا يتصاعد فى الأفق من جهة طريق المدينة ، ثم انقشع الغبار عن أعلام تخفق وخيول تركض وجمال تجعجع ، فلما اقترب الركب تفرس حسن فى الأعلام والناس ، فأدرك أنهم من أنصار بنى أمية وأنهم قادمون من المدينة لنجدة الحجاج

ولكنه استغرب وصولهم فى ذلك اليوم مع انه أقلع قبلهم ، والسيارة كلما زاد عددهم ثقلت خطواتهم ، فظن نفسه مخطئا فى حكمه عليهم فأعاد النظر الى الرايات والملابس فتحقق أنها لأهل المدينة والقبائل القاطنة بجوارها ، وعلم من عظم السرعة التى مشت بها تلك الحملة ما يدل على اضطرار الحجاج اليها . فترجل حسن ورفيقاه والتجأوا الى مكان يرون الركب منه ولا يراهم أحد ، وجعل يتفرس فى وجوه الناس

ومر الفرسان وحملة الرايات أولا ، ثم تبعهم المشاة ، فأحمال الزاد والمؤونة

وأخيرا رأى هودجا يقوده عبد ويسوقه عبد والى كل من جانبيه فارس . ولم ير فى تلك الحملة هودجا غيره وكان من عادة العرب فى الجاهلية وأوائل الاسلام أن يحملوا معهم النساء والأولاد حين يخرجون الى القتال . فاستغرب حسن أمر هذا الهودج وتبين من الاحتفاء بأمره انه لبعض الامراء . وما درى انه يقل حبيبته التى سلبت لبه وانهم يحملونها الى سواه . ولو درى ذلك لطارت نفسه شعاعا اليها. ولو صح ما قاله الشعراء من تواصل القلوب عن بعد لاضطرب حسن وخفق قلبه ودله على ساكنة الهودج

وظلوا وقوفا يراقبون مسير تلك الحملة حتى رأوها اتجهت الى جبل أبى قبيس ، فتحققوا أنها نجدة المدينة الى الحجاج ، لعلمهم بأن الحجاج مخيم هناك



رمى الكعبة بالمنجنيق

سار حسن وصاحباه حتى أقبلوا على مكة فرأوا الطلائع من الفرسان والهجانة تجول حولها ، وجاء اليهم بغضهم ، فتقدم سعيد لاستقبالهم وأخبرهم بأنهم ذاهبون فى شأن يخص ابن الحنفية ، فأذنوا لهم فى الدخول

ونظر حسن الى جبل أبى قبيس فرأى فيه خياما وحولها الناس وقد صغرت أشباحهم لبعد المسافة . وبعد قليل وصلوا الى تل فيه بعض المدافن فقال سعيد : « اننا فى الحجون » . فوقف حسن على مرتفع ونظر الى مكة فأشرف على المسجد الحرام والكعبة فى وسطه . وكان قد زار مكة من قبل ورأى الكعبة لكنه رآها اليوم أكبر مما عهدها ، ورأى على سطحها أشياء غريبة كالفرش والأثاث ، فوقف هنيهة يفكر فى الأمر ، ثم قال لسعيد : « انى أرى الكعبة على غير ما أعهدها فيه ، وكأنها اتسعت ، وكأن عليها فرشا وأثاثا ، وكأن على أرض المسجد خياما !.. ألست ترى ذلك ؟ »

فقال سعيد : « لقد صدق ظنك ، فالكعبة الآن أكبر مما تعهدها لأنها احترقت فى الحصار الماضى على عهد يزيد بن معاوية ، فأعاد ابن الزبير بناءها ووسعها الى ما كانت عليه فى الزمن الاول قبل أن تبنيها قريش. وأما ماتراه على سطحها فهو ألواح من الساج وضعها عبد الله هناك ووضع فوقها الفرش والقطائف وقاية لها من حجارة المنجنيق ، لأن الحجاج نصب المنجنيق على جبل أبى قبيس وجعل يرمى الكعبة بالحجارة نكاية بابن الزبير » .

فقطع حسن كلامه وقال : «أعوذ بالله ! أيرمون بيت الله بالحجارة ؟ »

فقال : « هذا عمل الحجاج فانه رجل ظالم لا يبالى شيئا فى سبيل مقاصده ، فقد رأيناه يرمى الكعبة بالمنجنيق والناس يطوفون حولها . واتفق فى الحجة الماضية ان عبد الله بن عمر حج ؛ وكان مولاى الامام محمد فى جملة الحجاج ، فكنا نطوف والحجارة تتساقط علينا ، فبعث ابن عمر الى الحجاج يقول له : (اتق الله واكفف هذه الحجارة عن الناس فانك فى شهر حرام وبلد حرام ، وقد قدمت وفود الله من أقطار

الارض ليؤدوا فريضة الله ويزدادوا خيرا ، وان المنجنيق قد منعهم من الطواف والسعي) . فلما فرغوا من طواف الزيارة نادى منـادى الحجاج : (انصرفوا الى بلادكم فانا نعود الى رمي الحجارة على ابن الزبير الملحد) . وسمعت أنه أول ما رمى الكعبة بالمنجنيق أرعدت السماء وأبرقت وعلا صوت الرعد على الحجارة ، فأعظم رجاله الأمر وامسكوا أيديهم . فأخذ الحجاج حجارة المنجنيق بيده فوضعها فيه ورمى بها معهم . فلما أصبحوا جاءت الصواعق فقتلت من أصحابه اثنى عشر رجلا فقال الحجاج لرجاله : (يا أهل الشام لا تنكروا هذا . فانى ابن تهامة وهذه صواعقها . وهذا الفتح قد حضر فأبشروا) . فلما كان الغد جاءت الصاعقة فأصابت نفرا من أصحاب ابن الزبير ، فقال الحجاج : (ألا ترون أنهم يصابون وأنتم على الطاعة وهم على خلافها) . . »

فعجب حسن لدهاء الحجاج وعتوه وساق جمله حتى نزلوا أسواق مكة فقـال لسعيد : « لقد بلغنا مأمننـا ، فاذا رأيت الرجوع فارجع جزاك الله خيرا »

فقال : « بل أوصلكما الى المسجد فاطوف طوفة وأعود »

ولما دنوا من المسجد سمعوا صدمة قوية فقـال سعيد : « هـذا صوت حجر من حجارة المنجنيق وقع على جدار الـكعبة . أنظر الى حمام الحرم كيف تطاير اجفالا من صوت وقوعه »

وكان حسن قد أحس بالجوع لأنهم خرجوا من الشعب ولم يأكلوا ، فقال لسعيد : « بالله الا أخذتنا الى أحد باعة الأطعمة فنأكل شيئا » . فضحك سعيد وقال : « ان الأطعمة قليلة في مكة والناس فى ضنك شديد من الجوع ، فقد بيعت الدجاجة بعشرة دراهم ، والمد من الذرة بعشرين درهما ، وقد سمعت أن ابن الزبير اضطر لما أصاب رجاله من المجاعة أن يذبح فرسـه ويقسم لحمها فيهم » . قال ذلك وأدنى فمه من أذن حسن وقال بصوت منخفض : « ولكننى أعلم أن بيوت ابن الزبير مملوءة قمحا وشعيرا وذرة وتمرا اختزنهاخوف المجاعة ، ولولا ذلك لما استطاع الصبر على هذا الحصار ، والحجاج ورجاله ينتظرون فراغ ما عنده من المؤونة ليستسلم »

فقال حسن : « لابد من ابتياع شيء نأكله ولو كان غاليا » . وأشار الى بلال فانصرف الى السوق وعاد بشيء من خبز الشعير والسويق فأكلوا على عجل ، وسـاروا حتى أتوا المسجد الحرام ، فدخل حسن وسعيد الى المسجد وهما يتظاهران بالرغبة فى الطواف ، ثم سأل حسن عن ابن الزبير فقيل له : « انه يصلى بجانب الكعبة » . فسأل :

« وأين يذهب بعد الصلاة ؟ » . فقالوا : « انه يذهب الى بيته » . ثم دله سعيد على بيت ابن الزبير وودعه وعاد الى الشعب

وبعد أن صلى حسن ركعتين وطلب الى الله أن يرشده الى الصواب، جلس فى بعض اطراف المسجد ينتظر فراغ عبد الله من صلاته ، وجعل يفكر فى أمر المهمة التى جاء لأجلها ، والوقت ليس وقت خطبة ولا زواج . ثم تذكر ما كان من أمر سمية وانتظارها رجوعه ليقترنا . وانتقل به التفكير الى ما كان من أمر عرفجة فى ذلك الصباح ، وخيل اليه أن الفشل الذى أصابه سيحمله على العودة الى المدينة لأنه لا يستطيع الغياب عنها طويلا وليس عند سمية أحد ، ولعله يعدل بعد ذلك عن رفضه تزويجها له

ولاحظ أن من يدخلون المسجد قليلون ، ثم ما لبث أن سمع قرقعة واحس شيئا هوى بالقرب منه وسمع رفرفة أطيار فالتفت فرأى حجرا كبيرا أصاب الكعبة وسقط على الارض ، فعلم أنه من أحجار المنجنيق وقد أجفل حمام الحرم من وقعه فتطاير ثم عاد فوقع على جوانبها وعلى جدران المسجد . ولم ير الناس يهتمون لتلك الحجارة لأنهم ألفوا سقوطها بينهم

وتذكر أن عبد الله يصلي بجوار الكعبة فاستغرب تعريضه نفسه لحجارة المنجنيق ، وخاف أن يكون ذلك الحجر قد أصابه ولا سيما ان وقت صلاته طال : فقلق عليه ، ونهض فسار فى فناء المسجد يلتمس الكعبة حتى مربالحطيم وحجراسماعيل، ودارنحو بئر زمزم فرأى وراء الكعبة من الجهة الاخرى بضعة رجال وقوفا . فأقبل عليهم ليسألهم عن عبد الله ، فلما دنا منهم رأى بجانب الكعبة رجلا ساجدا قد استقبل الارض بوجهه ، ورأىعلىظهره حمامتين منحمام المسجد كأنهما واقفتان على حائط والرجل لا يتحرك . فخيل له أنه ميت ، واستغرب وقوف الناس هناك دون أن يهتموا له . فاقترب من أحدهم وحياه ، وسأله ما شأن ذلك الساجد ، فابتسم الرجل وقال : « ألا تعرف من هو ؟ انه أمير المؤمنين »

فأدرك حسن أنه عبد الله بن الزبير وزاد استغرابا وقال : « وما للحمام يقع على ظهره فلا يتحرك »

قال : « انك غريب فيما يبدو ، فلا تعلم ان مولانا أمير المؤمنين أكثر الناس صلاة وسجودا ، وكثيرا ما رأينا الطير على ظهره فى أثناء الصلاة تظنه حائطا لسكونه وطول سجوده »

فقال حسن : « انه سجود طويل »

وجاء رجل آخر كان واقفا هناك وقال : « انكم لاتعلمون من تقوى

أمير المؤمنين الا قليلا . أما أنا فقد صحبته طويلا فرايته يقضي لياليه على ثلاث : ليلة يقضيهـا قائما الى الصباح ، وليلة راكعا ، وليـلة ساجدا . ناهيك بصومه فانه يصوم الدهر كله الا ثلاثة أيام يفطرها فى كل شهر »

فدهش حسن وقال فى نفسه : « يجدر بمن كان هكذا أن يكتب له النصر »

وفيما هم وقوف سمعوا صوتا كهزيم الرعد، أدركوا انه صوت المنجنيق فتنافروا ووقع الحجر على حائط الكعبة وسقط الى الارض بجانب ابن الزبير فنفر الحمام عنه وهو لا يزال ساكنا لا يتحرك ، فذهل حسن وقال لصاحبه : « ألا تخافون على حياة أمير المؤمنين ؟ »

قال : « لقد طالما نبهناه الى ذلك وكثيرا ما وقع له مثل ما تراه وهو لا يبالى »

فقال حسن : « أرجو أن يحرسه الله »

فقال الرجل : « ان الله حارسه لفرط تقواه وكثرة عبادته ، وقد وقع هنا فى العام الماضى سيل طبق البيت ومنع الناس من الطواف فطاف أمير المؤمنين سابحا ! »



فشل ابن الزبير

تأمل حسن فى وجه مخاطبه وهو يتكلم والاهتمام باد فى محياه لا يدرى بماذا يعبر عن منزلة ابن الزبير عنده ولا مقدار حبه له ، ورآه موجها نفسه اليه كأنما يتوقع أن يسأله عن ابن الزبير ليشرح له ما يعلمه من تقواه وشجاعته وصدق دعوته . قرأ حسن كل ذلك فى عينى الرجل فأدرك أنه من أشد أنصار ابن الزبير غيرة عليه ، وتبين له من قيافته وهندامه أنه من وجهائهم . وزاد اعتقادا فى وجاهته لما آنسه من لطفه ودعته ، لأن الانسان يزداد لطفا ووداعة بازدياد منزلته رفعة ، فاذا رأيت جفاء وكبرياء من أحد الناس وأنت لا تعرفه فاعلم أنه دنىء الطبع ولا عبرة بما قد يكسوه من اللباس الفاخر ، ولا بما فى خزائنه من الاموال الطائلة

وبينما حسن يفكر فى ذلك ومخاطبه واقف الى جانبه ، سمعا عبد الله ينادى : « أين ابن صفوان ؟ » . ثم رأى الرجل الذى كان يخاطبه بغت وأسرع الى عبد الله يقول : « لبيك يا أمير المؤمنين »

ففهم حسن انه عبد الله بن صفوان الجمحى ، وكان قد سمع عن حبه لابن الزبير وتفانيه فى نصرته ، وهو أصلع فى نحو الستين من عمره ، عريض الجبهة خشن الملامح عريض الفكين ، مما يدل على الثبات والقوة .
ثم التفت حسن الى ابن الزبير وتهيأ للسلام عليه اذا مر بجانبه فاذا هو طويل القامة عريض الكتفين لحيته غزيرة فى أسفل ذقنه خفيفة فى عارضيه . وتفرس فيه وهو يصلح عمامته عند نهوضه من الصلاة فرأى شعره جمة مفروقة طويلة . وتأمل فى وجهه فرأى الهرم قد بدا فى ملامحه لفرط ما قاساه من أمر ذلك الحصار وشدة ما أحاط به من الضيق ، وهو فى الثالثة والسبعين من عمره ، لانه أول مولود ولد للمسلمين بعد الهجرة

وهم حسن بالسلام عليه وتقبيل يده ، ولكنه رآه اتجه الى موضع آخر دون أن يلتفت الى أحد ، وأعجب بمشيته الثابتة التى تدل على جلال ووقار ، ورأى ابن صفوان يسير فى أثره مراعيا اياه بعينيه وكل جوارحه ، وفى مشيته عرج ، فعلم انهما سائران الى البيت ، فاقتفى اثرهما وهو يفكر فى مخاطبة عبد الله بالامر الذى جاء من أجله لكنه تهيب

واستحيى لما رآه فيه من الاضطراب والضيق ، ورأى أن يتحين لذلك فرصة أخرى

وخرج عبد الله من المسجد وابن صفوان يتبعه وحسن فى أثرهما . وكان الناس يقفون فى الطريق لتحية عبـد الله ، حتى أشرفوا على دار واسـعة قد غصت بالواقفين من النـاس ، وخارجهـا مرابط الخيول والمعالف . فلما أقبل عبـد الله على الدار توجهت أبصار النـاس اليه ووسعوا له ، فاخترق الصفوف وهو مطرق حتى أشرف على مقعد فى صدر القاعة فجلس عليه الاربعاء ، وجلس الى يمينه شاب كبير الشبه به ، فأدرك حسن انه أحد أولاده ، ثم جاء شـابان آخران فجلسا عن يساره . وجلس بقية القوم بين يديه لايفوه أحدهم بكلمة لفرط ماأحاط بهم من الامر العظيم . ولبثوا هنيهة كأن على رؤوسهم الطير . أماحسن فرأى نفسه غريبا بين هذه الجموع ، وهم بالخروج فرأى ابن صـفوان يشير اليه من بعض جوانب القاعة داعيا اياه الى الدخول ، فمشى اليه وجلس الى جانبه وقال له : « يسرنى انى عرفتك اليوم وقد طالما سمعت باسمك » . فقال ابن صفوان : « فهلا انتسبت لأعرفك أنا أيضا »

قال : « سأطلعك على أمرى فيما بعد ، فلا غنى لى عن معونتك »

وكانا يتكلمان همسا والناس سكوت ، وربما أدرك أحدهم السعال فأمسك عنه . فالتفت حسن الى ابن صـفوان وقال له : « أى أبنـاء أمير المؤمنين هؤلاء ؟ »

قال : « ان الذى تراه الى يمينـه هو أخـوه عروة بن الزبير . أما الجالسـان الى يسـاره فولداه حمزة وحبيب ، وترى على مقربة منهما شابا مطرقا هوالزبير ولده الثالث ، وان هذا الشاب لجدير بأن يكون ابن أمير المؤمنين » . ثم تهيأ للنهوض قائلا : « لابد لى من مفارقتـك الآن لأمر يدعو الى ذلك ، فاننا فى مجلس ذى بال اليوم ، وستسـمع وترى فان هؤلاء من قريش وهم رؤساء القبائل » . ثم سار حتى وقف على مقربة من عبد الله فأشار اليه عبد الله أن يقعد

وبعد قليل ، وقف أحد الجالسين وخاطب عبد الله قائلا : « يا أمير المؤمنين ، اننا بحمد الله نؤمن بصـدق دعوتك وانك على الحق . وقد قاتلنا معك حتى لانجد مقيلا ، ولئن صبرنا معك مانزيد على أن نموت . وانما هى احدى خصلتين ، اما أن تأذن لنا فنأخذ الامان لأنفسنا ، واما أن تأذن لنا فنخرج »

فلما سمع حسن ذلك الكلام تحقق ضعف القوم وانهم صائرون الى الفشـل . ثم سـمع ابن الزبير يقول : « ألم تبـايعونى على أنفسكم وأموالكم ؟ »

فقال الرجل : « بلى ولكنا نرجو أن تقيلنا بيعتنا ، اذ لانرى فائدة من البقاء عليها »

فقال عبد الله : « انني عاهدت الله على الا يبايعني أحد فأقيله بيعته الا ابن صفوان »

فالتفت حسن الى ابن صفوان فرآه قد وقف بغتة والحمية والغيرة تنبعثان من عينيه وقد ظهر التأثر في وجهه وقال : « أما انا فاني أقاتل معك حتى أموت ولا أسلمك في مثل هذه الحالة »

ولم يتم ابن صفوان قوله حتى علت الاصوات وضج الناس ، وانقسموا شيعا واحزابا ، وبدا أن اكثرهم لايرون رأي ابن صفوان . فشق ذلك على حسن ودبت الحمية في عروقه فوقف وقال : « بورك فيك يا ابن صفوان ، بورك في رجل بايع وثبت على بيعته ، ان أمير المؤمنين كما تعلمون أولى الناس بهذا الامر ، وذلك لأن عثمان استخلفه على داره يوم مقتله فهو ولي عهده من ذلك اليوم . وانكم لتعلمون انه نعم الخليفة لاتغره بهارج الدنيا . الا ترون عبد الملك بن مروان كيف يستعين على هذا الامر بالمال والرجال ؟ في حين يستعين أمير المؤمنين بالصوم والصلاة . تلك هي خلافة الراشدين رحمهم الله أجمعين . الم تسمعوا ماذا فعل عبد الملك يوم جاءه الخبر بالبيعة بعد موت أبيه مروان ؟. انتم تعلمون انعبد الملك كانمن فقهاء المدينة ، ولكثرة ماكان يظهره من التدين والتقوى سموه حمامة المسجد . فلما مات ابوه وبشر بالخلافة كانالمصحف في يده فاطبقه وقال : (هذا فراق بيني وبينك !) . فأين هذا من سجود امير المؤمنين وصلاته وصيامه مما لايخفى على أحد . هذا وان لأمير المؤمنين بيعة في أعناقكم ، وأنتم جماعة قريشأهل الحماسة والنخوة ، فكيف تغادرون أمير المؤمنين في مثل هذه الحال ؟. أما لكم أسوة بابن صفوان ؟ »

وكان حسن يتكلم والعرق يتصبب من جبينه وقد امتقع لونه وأيقن ان القوم قد نكصوا على أعقابهم . ولكنه لم يستطع غير الانتصار لما رآه حقا. وكانت الابصارشاخصة اليه لأنهغريب لم يعرفه أحدهم . وكان عبد الله ابن الزبير ينظر اليه ويعجب بغيرته . فلما فرغ من الكلام علت الضوضاء فوقف رجل آخر وقال : « لقد نطقت بالصواب، وان البيعة في اعناقنا لاننكرها ، وما نحن خارجون من بين يديه الا بأمره . ولكننا نرى القتال أصبح عبثا ، ومعنا من الرجالعشرة آلاف ، وقد جعنا جميعا وعطشنا وقلت مؤونتنا وذخيرتنا . وهذه منجنيقات الحجاج ترمينا من فوق الكعبة لايبالي حرمة هذا البيت . وقد نصب لنا الحجاج الآن راية الامان فمن خرج اليها سلم . فما بالنا لا نختار

الطريق الاسلم » . ثم التفت الرجل الى عبد الله بن الزبير وقال : « أكتب الى عبد الملك بن مروان لترى رأيه فلعلكما تنتهيان الى أمر فيه صلاح الحال »

فلما سمع عبد الله اسم عبد الملك بن مروان أجفل وتغير وجهه وقال : « كيف أكتب اليه ؟ . . أبدأ بنفسى أو أبدأ به . أأكتب (من عبد الله أمير المؤمنين الى عبد الملك بن مروان؟) . فوالله لا يقبل هذا أبدا . أم أكتب (لعبد الملك بن مروان أمير المؤمنين من عبد الله بن الزبير؟) . فوالله لأن تقع الخضراء على الغبراء أحب الى من ذلك » . قال ذلك وعاد الى اطراقه ، وسكت الناس ينتظرون رأيا جديدا فاذا بعروة بن الزبير أخى عبد الله التفت اليه وهو جالس بجانبه على المقعد وقال له : « يا أمير المؤمنين قد جعل الله لك أسوة »

فقال عبد الله وقد ظهر الغضب فى جبينه : « من هو ؟ »

قال عروة : « حسن بن على ، فانه خلع نفسه وبايع معاوية » . ولم يتم عروة قوله حتى رفع عبد الله رجله وضربه بها حتى ألقاه عن المقعد . فأجفل الناس من سقوط عروة واعظموا غضب عبد الله فتهيبوا ، ثم سمعوه يقول له : « ياعروة . والله لو قبلت مايقولون ماعشت الا قليلا ولا أخذت الا الدنية . وان ضربة بسيف فى عز خير من لطمة فى ذل » . ثم وقف والتفت الى الجموع ولحيته ترقص فى وجهه من شدة التأثر وقال لهم : « أنتم مخيرون فافعلوا ماتشاءون ، وان رجلا يجر الى الحرب بحبل لا يحارب ، وان الله وليى ونعم النصير » . قال ذلك وأراد الانصراف ، فوقف ولداه حمزة وحبيب وقالا : «هل نحن مخيران أيضا ؟»

فعجب حسن لما سمعه وقال فى نفسه : « حتى أولاده تخلوا عنه » . والتفت الى عبد الله فرآه ينظر اليهما وعيناه تلمعان بما يتجلى فيهما من الدمع ثم قال : « نعم وأنتما أيضا فى حل ، امضيا واطلبا الحياة ولا تموتا » . ثم اختنق صوته فسكت ريثما ابتلع ريقه ونظر الى ابنه الثالث الزبير وقال له : « وانت يابنى أطلب لنفسك أمانا مع أخويك فوالله انى لأحب بقاءكم »

فوثب الزبير من مجلسه وقال ولم يبد على وجهه شىء من الخوف : « حاش لله أن أتخلى عنك فما كنت لأرغب بنفسى عنك »

▭

انصرف عبد الله من باب يؤدى الى دار النساء ، وظل حسن واقفا يسمع مايدور بين الحاضرين . فعلم انهم اجمعوا على الخروج الى الحجاج

يلتمسون أمانه . وأدرك ان أشد ما أبعدهم عن عبد الله انه يقتر عليهم ، فى حين يسخو عبد الملك على بنى أمية ويبذل الاموال لمناصريه. فساءه ذلك لاعتقاده ان هؤلاء انما أرادوا الخروج رغبة فى العطاء ، وان صبر ابن الزبير لايفيده شيئا ولكن الانسان لايعيش فى هذه الدنيا عمرين وانما هى موتة فلا كانت عيشة تشرى بالشرف والمروءة

وأحس حسن بيد أمسكته ، فالتفت فاذا بابن صفوان يدعوه اليه فتبعه حتى دخلا حجرة بجانب تلك الدار وابن صفوان يقول : « ان أمير المؤمنين يدعوك وقد أحب أن يراك » . قال ذلك وتركه هناك وخرج

فسر حسن لهذه الدعوة ورآها فرصة لأداء المهمة التى جاء لأجلها ، وان كان الكلام فيها لا يجدى نفعا

ثم عاد اليه ابن صفوان وأشار اليه أن يتبعه ، ومضى به الى حجرة رأيا عبد الله يتمشى فيها وحده وقد أخذ منه الغضب مأخذا عظيما ، وهو تارة يمسح جبهته وطورا يحك لحيته ، وآونة يشمر عن ساعده او يرسل كمه مما يدل على عظم البلبال . وتأمل حسن فى تلك الحجرة فاذا هى لاشىء فيها من الاثاث غير حصير ومقعد. فلما أقبلا عليه تقدم حسن اليه وسلم بالخلافة فرحب به ودعاه الى الجلوس على المقعد ، فلم ير الجلوس وابن الزبير واقف ، فألح عليه هذا بالجلوس وقال : « دعنى واقفا وسأجلس بعد هنيهة »

فجلس حسن وبقى ابن صفوان واقفا مكانه يراعى عبد الله ويراقب حركاته ولا يتكلم

ثم التفت عبد الله الى حسن وقال : « من أين قدمت ؟ »

قال : « من الشام »

فبغت عبد الله عند سماع اسم الشام لأن فيها أعداءه ومناظريه ، والتفت الى ابن صفوان كأنه يطلب مشاركته فى الاستغراب فرآه لايقل عنه استغرابا ، فقال عبد الله : « وما الذى جاء بك الينا ونحن فى هذه الحال . لعلك جاسوس ؟ »

قال : «معاذ الله يامولاى! . كيف أكون جاسوسا وأفعل مافعلته اليوم؟»

فجلس عبد الله على جانب المقعد وأمر ابن صفوان بالجلوس فجلس. ثم قال عبد الله : « لا غرابة فيما ظهر منك ان كنت جاسوسا ، لأن الجواسيس يتلونون تلون الحرباء . على أنى لا أبالى مهما يكن من أمرك فما أنا ممن يستعينون بالجواسيس وأنا لا أخافهم وانما أستعين بالحق والعدل »

فوقف حسن وهو يقول : « العفو يا مولاى ، انى أجل نفسى عن

الجاسوسية فى هذا السبيل، وانما أنا رسول اليك فى مهمة لاأرى مسوغا للكلام فيها الآن »

قال : « وماذا تعنى ؟ وكيف لامسوغ لها ؟ . قل. . . لابأس مما تراه من الاحوال . من أرسلك الينا من الشام ؟. لعلك قادم من عبد الملك بنصيحة ؟ »

قال : « لايامولاى ، بل أنا قادم من عند خالد بن يزيد بن معاوية »

قال : « وهو أيضا أموى ، وشأنه عندنا مثل شأن عبد الملك وان يكن اعرف منه بالكيمياء والشعر وما الى ذلك »

فقال حسن : « ماكنت أحسب الحقيقة تخفى على مولاى أمير المؤمنين فانها عكس ذلك على خط مستقيم »

قال : « كيف يكون هذا وكلاهما أموى وقد اتحدا علينا وقاما لحربنا ؟ »

قال : « أما الحرب فقد نصبها عبد الملك وليس خالد . ولو عرفت مابينهما من الدخائل لتحققت ان خالدا أرغب فى بيعة أمير المؤمنين من آل العوام انفسهم »

فقال عبد الله وهو يبتسم ابتسامة الاستخفاف : « وكيف يكون ذلك وهو ابن يزيد الذى أمر بحصار هذا البيت وقاتلنا حتى هدم الكعبة بمنجنيقاته ثم احترقت وأعدنا بناءها ؟ »

فقال حسن : « صدقت يامولاى انه ابن يزيد بن معاوية ، ولكن لايخفى عليك انه لما مات يزيد كان الحصين بن النمير لايزال محاصرا البيت الحرام وانتم فيه ، وهو لايعلم بموت خليفته يزيد ، وقيل انكم عرفتم بموته قبله ، واذا صح ما سمعته عما دار بينكم وبينه فى شأن الخلافة »

فقطع عبد الله كلامه وقال : « أظنك تعنى انه عرض على البيعة بعد موت يزيد ؟ »

قال حسن : « نعم يامولاى ذلك ما أعنيه ، ولو انك أجبته الى هذه البيعة لما كان على منصة الخلافة سواك »

فتقطب حاجبا عبدالله بغتة كأنه تذكر امرا يؤلمه ذكره وقال : « ولكنه اراد أن اذهب معه الى الشام ، وأبى الا أن تكون البيعة هناك »

قال : « وما منع مولاى أن يذهب الى الشام ، انك لو ذهبت معه اليها وقربته منك لم يختلف عليك أحد »

فأسرع عبدالله فى قطع الكلام لانه لايحب أن يتذكر الخطأ الذى ارتكبه فى ذلك ولولاه لكان بنو العوام خلفاء الاسلام بدل بنى امية لشدة

اضطراب حال بنى أمية فى ذلك الحين . وقال لحسن : « ثم ماذا ؟ . أوصلنا الى حديث خالد »

قال : « لما مات يزيد بايع أهل الشام ابنه معاوية (الثانى) كما تعلمون وهذا لم يكن يرى لبنى أمية حقا فى الخلافة كما صرح جهارا فى خطابه بعد أن تولاها بأربعين يوما ، فانه أمر فنودى : (الصلاة جامعة) . فلما اجتمع النـاس وقف فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : (أما بعد ، فانى ضعفت عن أمركم ، فابتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه ابو بكر فلم أجده . فابتغيت ستة مثل ستة الشورى فلم أجدهم ، فأنتم أولى بأمركم فاختاروا . ماكنت لأتزودها ميتا وما استمتعت بها حيا) . ثم دخل داره وتغيب حتى مات . فلما مات معاوية هذا اختلف الناس فيمن يولونه ، واضطربت الاحوال حتى آل الامر الى مبـايعة مروان بن الحكم لأنه أكبر بنى أمية سنا . وكلنا نعلم شأن هذا الرجل فى أمر عثمان وكيف انه قد اوقد جذوة تلك الفتنة التى لم نتخلص من عواقبها الى اليوم . وهكذا تولى الخلافة مروان دون خالد بن يزيد الذى كان أحق بها منه ، بحكم نظام الوراثة الذى وضعه جده معاوية . على ان بنى سفيان لم يرضوا ببيعته حتى عاهدهم على انه يجعل الخلافة بعده لخالد . فلما تولاها مروان حدثتـه نفسه أن يخرجها من نسـل معاوية الى نسله ، فتزوج أم خالد حتى تصـغر نفس خالد عن طلب الخلافة . واتفق بعد بضعة أشهر أن مروان ناظر خالدا فى شأن وشتمه وأهان امه ، فخرج خالد الى أمه وأطلعهـا على ماكان فقالت له : (دعه فانه لايقولها بعد اليوم) . وفى المسـاء جاءها مروان وسـألها : (هل اخبرك خالد بما جرى بيننـا) . فقـالت : (يا أمير المؤمنـين ، خالد أشد تعظيما لك من أن يذكر لى خبرا جرى بينك وبينه) . فلما أمسى المساء وضعت مرفقة على وجهه وقعدت عليهـا هى وجواريها حتى مات ولم يتم السنة فى خلافتـه ، والناس يظنـونه مات حتف أنفه . فخلفه ابنه عبد الملك وهو يعلم بالامر ، ولكنه خشى اذا انتقم لأبيه أن يفتضح أمره ويقال ان امرأة قتلته . فظل حاقدا على خالد ، وظل خالد ينظر اليه نظره الى مختلس . ولهذا قلت لمولاى أمير المؤمنين ان خالدا أرغب من آل العوام فى خلافتك »

□

لما فرغ حسن من كلامه ، أطرق عبد الله طويلا ، وشعر حسن وابن صفوان بما يجول فى خاطره فى أثنـاء ذلك الصمت الطـويل . ثم رفع راسه بغتة ونظر الى حسن وقال : « لقد فات الوقت ، ما يقدره الله

فهو كائن . على انى ما أظن خالدا يرضى بخروج هـذا الامر من بنى أعمامه الى رجل حاربه أبوه عليه . ولا أرى ثمة مسوغا لذلك » . ثم استدرك فقال : « ولكنك لم تذكر بعد ما هو الامر الذى جئت لأجله ؟»

فقال حسن : « انه أمر لايستحسن الخوض فيه الآن ! »

قال : « بل قل »

قال : « لقد بعثنى خالد الى أمير المؤمنين خاطبا »

قال : « من ؟ ولمن ؟ »

قال : « مولاتى رملة اخت أمير المؤمنين ، الى مولاى خالد بن يزيد . وقد كتب بذلك كتابا فقدته فى المدينة لسبب يطول شرحه »

فوقع الطلب موقع الاستغراب عند عبد الله لما بينه وبين بنى أمية . على انه لما تذكر ماسمعه من حسن مال الى تصديق الامر ، وان بقى مرتابا فى حقيقه مهمته ، فقال له : « اذا كان خالد كما وصفت فانى أرحب بمصاهرته ، وكنت أود الاطلاع على كتابه . وليس هناك مايدعو الى العجلة والحال على ماترى . فلنصبر حتى يقضى الله بيننا وبين هذا الطاغية الذى يرمى بمنجنيقاته بيت الله ولا يخاف عقابا »

فقال حسن : « ذلك مادعانى الى التردد فى تبليغ الرسالة ، ولكن يكفينى ماعلمته من رضاكم ، رغم انى لا أحمل كتاب خالد . وسأكتب اليه لأطمئنه بالقبول ولكى يرسل كتابا آخر فى هذا الشأن . ثم انى أعرض على مولاى أن أكون فى خدمته لعلى أستطيع أمرا يكون فيه مصلحة له . فهل ترى أن أذهب الى الحجاج فأكلمه فى شأن الهدنة أو الصلح فربما كان لكلامى وقع عنده لأنى أعد من انصار بنى أمية فلا يرتاب فى اخلاصى ؟ »

فقطع عبد الله كلامه وقال : « لا . . لا . . دعهم وما يفعلون ، انى لا أريد وساطة لدى عبد ثقيف » . قال ذلك ووقف ، فوقف حسن وحياه ثم انصرف من غير الباب الذى دخل منه ، وكان الليل قد أرخى نقابه فتبعه ابن صفوان وناداه قائلا : « رويدك يا أخا العرب »

فوقف حسن حتى اقترب ابن صفوان منه ، فأمسك هذا بيده وأدنى فمه من أذنه وقال همسا : « تعال معى »

فمشى معه حتى دخلا دارا بجانب دار ابن الزبير ، فأدخله غرفة خالية وقال له : « سمعتك تعرض على أمير المؤمنين التوسط لدى الحجاج فى المهادنة أو نحوها ، وأمير المؤمنين لم يقبل ذلك انفة منه . ولكننى أعلم ما نحن فيه من الضنك ، وأن المهادنة تفيدنا فى لم شعثنا لأننا قد تشتتنا . لا أقول ذلك خوفا من الموت فاننا لارغبة لنا فى هذه الحياة ، وانما نحن نطلب الآخرة وبنو أمية يريدون هذه الحياة الفانية

ويسفكون الدماء من أجلها . فاذا رأيت أن تقوم بهذه المهمة فافعل »
قال : « سأسعى فى ذلك جهدى ، ولعلى أوفق الى مافيــه الخير ان شاء الله »
فقال ابن صفوان : « انزل الآن فى دار الاضياف اذا شئت ، او انزل فى دارى »
فقال حسن : « بل أنزل فى دار الاضياف ريثما أدبر الامر »
قال : « ولــكن الليل أدركنا ، فامكث عندنا الليلة ، فاذا أصــبحنا خرجت الى حيث تريد »
فتذكر حسن بلالا والجمل ، وكان قد تركهما بباب المسجد فقــال : « انخادمى ينتظرنى بباب المسجد والجمل معه ، وأخاف أن يستبطئنى فيظن أن قد مسنى سوء »
فقال ابن صفوان : « انه اذا استبطأك ، فسينام حيث هو ، وفى الغد نراه »
فأطاعه حسن وبات عنده . وقضى معظم الليل يفكر فى أمر ابن الزبير وفى مسيره الى الحجاج ، ثم أدركه النوم فرأى فى منامه انه لقى الحجاج وجادله فى أمر الكعبة وكيف يرميها بالمنجنيق ، فسمع من الحجاج كلاما غليظا ، فأفاق فى الصباح وهو منقبض النفس
ثم جاءه ابن صفوان بالطعام فأكل ، وعرض عليه أن يسير معه الى بيت الاضياف فقال حسن : « أرى أن أبحث عن الخادم والجمل »
فقال لاخوف عليهما ، هلم بنا الى دار الاضياف لتعرفها فانها بجانب بيت أمير المؤمنين ، ثم تذهب بعدئذ الى حيث تشاء »

□

سار ابن صفوان مع حسن حتى أدخله دار الاضياف ، واتجه هو الى بيت عبد الله . ورأى حسن فى الدار أناسا لم يعرف أحدا منهم ، فجعل يتفرس فى الوجوه لعله يرى خادمه بينهم ، فلمــا لم يجده هم بالخروج الى مواقف الدواب عسى أن يجده مع جمله هناك ، ثم رأى بلالا مقبلا والبغتة بادية فى وجهه وعيناه شائعتان كأنه يفتش عن ضــائع ، وما كاد بلال يراه حتى ســارع اليه وقال : « أين كنت يامولاى . ان سيدى أبا سليمان يبحث عنك »
فبغت حسن لذكر ابى سليمان لعلمه انه فارقه فى المدينة وقد عهد اليه فى تنسم أخبار سمية ، فقلق لمجيئه ونهض وقال : « أين هو ؟ »
قال : « تركته فى المسجد وجئت للبحث عنك ، فهل أدعوه اليك ؟ »

قال : « بل أذهب أنا اليه » . وهم بالخروج فرأى أهل الدار فى هرج ومرج يزاحم بعضهم بعضا كأنهم يوسعون الطريق لقادم عظيم، فوقف مع الواقفين وسأل أحدهم عن القادم ، فقال له : « ان ذات النطاقين قادمة الى دار الاضياف »

فعلم انها أسماء بنت أبى بكر ، أم عبد الله بن الزبير ، وكان يحسبها قد ماتت لكبر سنها لأنها ولدت قبل الهجرة بسبع وعشرين سنة . فهى يومئذ قد بلغت المائة من عمرها . وكانت مشهورة بكبر العقل وسعة الصدر وصحة الدين . فأحب أن يراها فجعل يتطاول حتى أقبلت فاذا هى قد احدودب ظهرها وعميت ، وجاءت تتوكأ على عكاز، وبجانبها رجل يسندها ويرشدها الى الطريق . ورأى الناس يدنون منها ويقبلون أطراف ثوبها تبركا بها ، حتى اذا أقبلت على موقف خدم الدار قالت لهم : « خافوا الله ولا تبخلوا على عباده بالطعام وان كان قليلا فى الاسواق فان الله كفيل بطعام الغد »

فعجب حسن لاهتمام أم الخليفة بأمر الاضياف على عجزها وضعفها ، ولكنه تذكر مايقال عن بخل ابنها عبد الله فظنها جاءت تحث الخدم على اكرام الضيوف لاعتقادها ان ذلك يدفع البلاء عن أهلها . ولاشك فى انها كانت قلقة على ابنها عبد الله لعلمها بما يتهدده من الخطر العظيم

وبعد أن مر موكب ذات النطاقين ، خرج حسن ومعه بلال وسارا الى المسجد ، وسارع حسن الى لقاء أبى سليمان . فحياه وقال : « ما وراءك ياعماه ؟ »

قال : « أن ما ورائى ذو بال يابنى »

فبغت حسن وقال : « وما هو ؟ . قل ياعماه . هل أصاب سمية سوء ؟ »

قال : « لم يصبها سوء ولكنها جاءت الى مكة »

قال حسن : « جاءت الى هنا ؟ . وأين هى ؟ »

قال : « اصبر ريثما نجلس فى بعض جوانب المسجد على انفراد وأقص عليك الخبر » . وكان المسجد خاليا من الناس خوفا من حجارة المنجنيق ، فانتحيا ركنا فيه . وحسن فى قلق شديد فلما جلسا قال : « قل ياعماه أين سمية الآن فقد نفد صبرى . وكيف جاءت مكة ؟ »

قال : « انها جاءت مكة ، ولكنها الآن خارجها »

فانتبه حسن وقال : « لعلها عند الحجاج ؟ »

قال : « نعم يابنى انها عنده »

فصاح وهو لايعى مايقول ومافى المسجد من يسمعه غير أبى سليمان : « وكيف كان ذلك ؟ أفصح بالله »

قال : « أخذها زوجة له ، لأن أباها عرفجة زفها اليه يوم سفرك ، وأرسلها مع الحملة التى بعث الحجاج يطلبهـا من طارق بن عمرو عامل المدينة »

فلما سمع حسن ذلك أطرق كأنه أصيب بذهول ، وتذكر انه شاهد تلك الحملة بالامس مارة قرب مكة ومعها هودج يحرسه فارســان فارتعدت فرائصه وهز رأسه وقال : « أعوذبالله !. أأرى سمية تساق الى الحجاج وأبقى واقفا أنظر الى هودجها ولا أنقـذها ؟ . ولكننى لم اعرفها ولابد من انقاذها من يد ذلك الظالم ، ومن يد أبيها الخائن الغادر قبحه الله » . ثم التفت الى أبى سـليمان وقال : « وهل سـيقت الى الحجاج برضاها ؟ »

فقال أبو سليمان : « ما أظنها الا سيقت مرغمة. فقدعلمت ان أباها احتال فى اخراجها من المنزل الى ضواحى المدينة وسلمها للجنـــد المعسكرين هناك »

قال حسن : « اذن هى الآن أمامنا فى هـذه الخيـام قرب جبل أبى قبيس . لابد لى من الذهاب اليها ، فاما أن انقذها أوأموت فىسبيلها »

فقال أبو سليمان : « اعلم يابنى انى رهين اشارتك وقدقلت لك انى وقفت حياتى على خدمتك ، فاذا رأيت أن تبعثنى فى شأنها فافعل »

فصمت حسن مفكرا ثم قال : « اننى أحتـاج اليك ياعماه فى ابلاغ رسالة الى مكان بعيد »

قال : « انى على استعداد للذهاب الى السند فى خدمتك »

قال : « لا . . بل الى الشام ، الى خالد بن يزيد ، فهل تقبل ؟ »

قال : « أفعل ان شاء الله ، أين الرسالة ؟ »

قال : « أكتبها اليه الآن وهى خاصة بالمهمة التى جئت لأجلها »

قال : « أكتب وأنا بين يديك »

فأخرج حسن من جيبه منديلا من القباطى (نسيج مصرى) وكان قد أعد دواة وقلما فىجيبه لمثل هذه الغاية . وجلسعلى حجر بجانب احدى عضادات المسجد فكتب أسطرا قال فيها :

« الى خالد بن يزيد من حسن . أما بعد فقدجئت البيت الحرام بعد أن مررت بالمدينة وأضعت فيها كتابك ، ولهذا حديث سأقصــه عليك عند اللقاء . على انى واصلت السفر الى مكة ولقيت ابن الزبير وأبلغته الامر خلال اشتغاله بالحصاروضيقماحوله ، فأجاب بالرضاء . ولكنه رأى أن تبعث اليه بكتاب آخر فى هـذا الشأن ، فاذا شئت فافعـل ، وابعث الكتاب مع حامل هذا اليك ، وأنا باق هنـا لأمر يهمنى كثيرا ،

والسلام عليكم ورحمة الله »

ثم سلم الكتاب الى أبى سليمان وقال له : « امض على عجل، واحذر أن يعترضك الحراس حول مكة »

قال : « لقد دخلت ولم ينالوا منى مأربا ، وسأترك بلالا فى خدمتك لعلك تحتاج اليه فى شىء »

فأثنى عليه وودعه ، وعاد الى ماكان فيه من الاهتمام بأمر سمية ، فرأى أن يذهب الى معسكر الحجاج يبحث عنها ويستطلع خبرها . وكان كلما فكر فى الامر، وتصور أنها زفت الى الحجاج ، اضطرب وثارت أشجانه واشتد قلقه ، حتى لم يعد يستطيع صبرا فعزم على الذهاب الى معسكر الحجاج بحجة انه مندوب من قبل ابن الزبير للمخابرة فى شأن وقف الحرب، ولكنه لم ير بدا من استشارة ابن صفوان لئلا يغضب ابن الزبير . فنهض لساعته وأسرع الى بيت ابن صفوان فلم يجده ، فالتمسه فى دار ابن الزبير ، فلم يجد أحدا فى القاعة التى كان الاجتماع فيها بالامس ، وبينما هو مار بالقرب من مرابط الخيل والجمال وبينها الخدم والجمالة وقع نظره على رجل كان فى خدمة ليلى الاخيلية ، فتوسم فيه الخير وناداه وقال له : « ما الذى جاء بك الى هذا المكان ؟ »

قال : « جئت مع مولاتى »

قال : « ليلى هنا الآن ؟ وأين هى ؟ »

قال : « هى عند أمير المؤمنين فى بيته ، وأظنها فى حجرة أمه ذات النطاقين »

قال : « ومن أين أتيتم ؟ »

قال : « من معسكر الحجاج »

فاستبشر حسن بذلك الخبر لعلمه بأن ليلى لابد أن تكون قد رأت سمية هناك وسمعت منها شيئا ، فلم يعد يصبر على لقائه ليلى وأخذ يتمشى خارج البيت ، وكلما سمع حركة أو صوتا ظنها خارجة ، حتى مل الانتظار فعاد الى الخادم وقال له : « هل أقمتم بمعسكر الحجاج طويلا ؟ »

قال : « أقمنا يوما وليلة ، ثم رأيت مولاتى أسرعت الى مكة ، وأرسل الحجاج معنا من أوصلنا اليها لئلا يعترضنا الحراس المحيطون بها »

فأدرك حسن انها جاءت باشارة الحجاج فزادت رغبته فى مقابلتها واستطلاع حقيقة الامر . وفيما هو يفكر فى ذلك رأى ابن صفوان خارجا من الدار مهرولا . فلما تلاقت نظراتهما أقبل عليه ابن صفوان وقال : « أحمد الله على انى رأيتك هنا ، فقد كنت ذاهبا للبحث عنك مخافة أن تكون قد مضيت فى الأمر الذى ندبت نفسك له بالأمس »

قال حسن : « وماذا تعنى ؟ »

قال : « أعنى مقابلة الحجاج »

قال : « وما الذى حدث ؟ »

قال : « لقد جاءت ليلى الاخيلية من عنده ، لمثل ذلك الغرض . وقد سمعت من أمير المؤمنين انه لايرى صلحا ولا هدنة ، لأن الحجاج لايريد منه غير الاستسلام ، وهذا أمر مستحيل عندنا والموت أهون منه »

فقال حسن : « وأين هى ليلى الآن ؟ »

قال : « فى دار النساء وقد نزلت عند مولاتى ذات النطاقين ، ورملة بنت الزبير عندها أيضا »

قال : « هل من سبيل الى مقابلتها ؟ »

قال : « ذلك يسير . هل أخبرها بأنك تطلب مقابلتها ؟ »

قال : « افعل »



سمية فى بيت الحجاج

دخل ابن صفوان ، ثم عاد وأشار الى حسن أن يتبعه ، فدخل وراءه غرفة رأى فيها ليلى وحدها فى انتظاره ، فلما أقبل عليها قالت : « اذن أنت حسن حقا ؟ . كيف اذن أكدوا لى انك قتلت ؟ »

فابتسم وقال : « كدت أقتل ، ولكننى حى الآن فأخبرينى هل كنت فى معسكر الحجاج ؟ »

قالت : « نعم »

قال : « وهل رأيت سمية هناك ؟ »

قالت : « نعم رأيتها »

فخفق قلبه عند سماع جوابها وعاد يسألها قائلا : « هل رأيتها حقيقة ؟ »

قالت : « رأيتها ورأتنى ، وكلمتها وكلمتنى ! »

قال : « بالله كيف حالها ؟ وما الذى جرى لها ؟ »

قالت : « أراك غائبا عن الدنيا ؟ ألم تعلم أنها حملت الى الحجاج لتزف اليه ؟ »

فلما سمع ذكر الزفاف صعد الدم الى وجهه وقال وهو يظهر التجلد: « نعم علمت ، ولكن هل زفت اليه حقا ؟ »

قالت : « زفت اليه منذ يومين ، وهى الآن فى داره مع نسائه »

قال : « فى داره مع نسائه ؟ . اذن صارت زوجة له ؟ »

قالت : « نعم »

قال : « وهل ذكرتمانى فى حديثكما ؟ »

قالت : « ذكرناك وبكينا عليك وهى التى أخبرتنى بموتك »

قال : « وهل هى آسفة على موتى ؟ »

قالت : « أما قلبها فمعك ، فهى لاتفتر عن ذكرك لحظة مع يأسها من لقائك ، لايهنأ لها العيش مع أحد غيرك »

فابرقت أسرة حسن عند سماعه ذلك وقال : « اذا كان الحجاج عقد

قرانه بها كما تقولين ، ويئست من لقائى فكيف القاها ؟ »
قالت : « الحب كله رجاء ياحسن ، بل الحب يضع الرجاء فى موضع اليأس »

قال : « أباقية هى على حبى ؟ »

قالت : « نعم وهى مع ذلك لاترجو لقاءك فكيف اذا علمت بأنك حى؟ فهل انت تحبها مثل حبها لك ؟ »

قال : «كيف لا ؟ » . وهاجت أشجانه ولم يعد يستطيع صبرا على الذهاب اليها وأحس انه مقصر فى حق سمية ، وهان عليه أن يضحى بنفسه لانقاذها . وكلما تصور أنها زفت الى الحجاج عظم الامر عليه وكادت الغيرة تحرقه ، فأطرق برهة ثم قال : « وهل زفت الى الحجاج حقيقة ؟ »

قالت : « قلت لك انها زفت اليه وهى فى داره مع سائر نسائه »

قال : « أعوذ بالله ! . ولكن قلبى لايصدق انها فى بيته مثل احدى نسائه . وهل يحبها هو ؟ »

قالت : « يحبها حبا شديدا ، ولم يكن يحلم بحصوله عليها لأنها لاتريده ، ولكن المقادير ساعدته فحملوها اليه قسرا »

فاضطرب وجد الدم فىعروقه وقال : « انى أطير اليها وأختطفها من وسط بيته ومن بين مخالبه ! »

فقطعت ليلىكلامه وقالت : « تبصر ياحسن ، ان دون الوصول اليها عقبات لايستطاع تجاوزها الا بالحكمة »

قال : « وأى حكمة ؟ كيف يمسها الحجاج وأنا حى ؟. ليس فى الحب حكمة . الحب شىء والحكمة شىء آخر . ان الرجل اذا أحب ، خضع لقوانين الحب وحدها ، وما فى الحب حكمة ولا سياسة ولا رياء »

فلما رات ليلى شدة هياجه أشفقت على حياته مما يعترضالسبيل الى سمية من الاخطار ، ولاسيما انها عند الحجاج الذى اشتهر بالظلم والجبروت. فاذا وقعحسن بين يديه فلن يعفيه من القتل، فقالت له : « انى معك فى ان الحب لاسياسة فيه ولاحكمة ، ولكن المحب ينبغى أن يحرص على حياته لأجل حبيبه ، فيجب ان تحرص على حياتك لأجل سمية . تبصر فى الامر يابنى ، وسأكون فى عونك حتى تبلغ ماتريده ، فانى أعرف قيمة الحب ويسوءنى أن يفرق أحد بين حبيبين ، بل انى لأنقم على من يسعى فىالتفريق بينهما ! ». قالت ذلك وتنهدت وأشرق الدمع فى عينيها

فادرك حسن انها تنطق عن احساس صادق لأنها أحبت توبة

ومنعوها منه فقال : « بورك فيك ياليلى فلقد خففت من شدة بلواى ، فاشيرى على بما ترين »

فقالت : « انى وفدت على الحجاج فى معسكره ؛ على عادتى فى الوفود على الامراء ، فرحب بى وأنزلنى فى دار أعز نسائه عليه ، وهى هند بنت النعمان . ولعلك تعلم انها جميلة ذات حسب ونسب ولكنها لا تحبه ولا تحترمه ، فلقيت سمية عندها ، وتحدثت معها فى شأنك فلما انبأتنى بفقدك شق ذلك على ، واعتزمت أن أستطلع خبرك فى مكة ، فعرضت على الحجاج أن آتى اليها وأحاول اقناع ابن الزبير بالاستسلام ، مع انى أعلم ان استسلامه مستحيل . فلما جئت مكة علمت انك جئتها بالامس ، وخطبت رملة لخالد فقبل ابن الزبير ولكنه استمهلك ريثما تنقضى الحرب . فكان سرورى مزدوجا بسلامتك ونجاحك فى المهمة التى جئت لأجلها . وأرى أن أعود الآن الى معسكر الحجاج وأجعلك راويتى ، وانت تعلم ان لكل شاعر عربى راوية يرافقه فيحفظ أشعاره ويرويها عنه . والحجاج لايعرفك ، فلن يخطر بباله انك مناظره على سمية ، ومتى وصلنا الى المعسكر وأقمنا به ، تفكرنا فى أمر سمية ، وأسأل الله التوفيق »

فاستحسن حسن رأيها وقال : « اذن هلم بنا الآن ، فانى لا أصبر على هذه الحال »

قالت : « اسبقنى الى المسجد ريثما أودع ذات النطاقين وألحق بك»

قال : « لقد أنسانى حديث سمية استطلاع مادار بينك وبين ابن الزبير فى أمر الصلح أو الاستسلام »

قالت : « كنت على يقين من انه لن يقبل ، وقد رأيت أمه أسماء ذات النطاقين أكثر منه تشددا ، وانى لأعجب لهذه العجوز وصبرها على المكاره فقد رأيتها مع يأسها من نجاح ابنها تشجعه وتحرضه على الثبات فى دعوته . على انى وقد رأيت معسكره ومعسكر الحجاج ، لا أشك فى أن ابن الزبير مغلوب ، فالفرق كبير بين المعسكرين فى العدد والعدة وكل شىء »

فابتدرها حسن قائلا : « لقد رأيت بعينى أصحاب ابن الزبير واخوته وأهله يتخلون عنه ، وقد نفدت قواته وأقواته فالامر خارج من يديه لا محالة »

قالت : « القوة هى الغالبة ياحسن ، والخلافة صائرة الى بنى أمية . لأن عندهم الرجال والاموال ، وقد ساعدتهم الاقدار من كل ناحية »

فقطع حسن كلامها وقال : « ليس يهمنى الآن الا أمر سمية ، وسأسبقك الى المسجد فأتهيأ للسفر » . قال ذلك وتركها وأسرع الى

المسجد ، فوجد بلالا جالسا بباب حانوت لرجل فارسي يبيع الاقمشة بجوار الصفا . فلما رآه بلال نهض وتبعه حتى دخلا المسجد ، فقص حسن عليه عزمه على الذهاب الى معسكر الحجاج وأسر اليه الغرض من ذلك

فقال بلال : « ألا أستطيع أن أكون فى خدمتك يامولاى ؟ »

قال : « بورك فيك . ولكننى ذاهب فى مهمة لا تخلو من الخطر ، واذا انكشف أمرى فيها فلن ينفعنى الرجل والرجلان ، على انى أرجو التوفيق . فابق أنت هنا بضعة أيام ، فاذا لم أعد فاطلبنى فى معسكر هذا الطاغية »

تنكر حسن فى ثياب غير ثيابه ، وحمل جرابا فيه أدراج من الرق كتب فيها بعض القصائد . ثم مكث ينتظر ليلى حتى عادت وقد تلثمت وركبت جملا يقوده خادم ، فركب حسن جمله ، وسارا والخادم يمشى وراءهما حتى مروا ببيت ابن صفوان وكان واقفا بالباب فرأى ليلى وعرفها ، وتفرس فى حسن فعرفه كذلك رغم تنكره ، فحياهما وقال : « الى أين ؟ » . فقال حسن : « لقد عزمت على أن أبدأ السعى فى سبيل التوفيق »

فهز ابن صفوان رأسه وتنهد وقال : « أسأل الله لكما السلامة »

وما لبث حسن وليلى أن ابتعدا عن بيت ابن صفوان ، وخرجا من مكة حتى لقيهما رجال الحجاج ، فعرفوا ليلى ولم يعترضوهما ، فواصلا السير حتى أقبلا على معسكر الحجاج

نظر حسن الى المعسكر والاعلام تخفق فوقه والخيام ممتدة على مسافة بعيدة ، فعظم أمر الحجاج فى عينيه وقال : « يا ليلى ان الامر صائر الى هذا العاتى لا محالة . وانى لينفطر قلبى كلما تصورت مصير عبد الله بن الزبير . أتظنينه مغرورا بنفسه ؟ »

قالت : « كلا ، ولكنه يعتقد أنه على الحق »

قال : « ما الذى أراه على جبل أبى قبيس ؟ »

قالت : « ألم تر وقوع الاحجار على الكعبة ؟ ان الحجاج نصب منجنيقاته على الجبل وهو يرمى الحجارة منها على الكعبة . ومع المنجنيقات فصيلة من الجند »

قال : « واين خيام النساء التى تقيم بها سمية ؟ »

فقالت : « نحن سائرون الآن الى خيمة الحجاج ، وهى الكبيرة القائمة فى وسط هذه الخيام ، وسأدخل أنا ثم أخرج وأسير بك الى مكان أعرفه ، وأذهب الى هند بنت النعمان فأرى سمية هناك وأقص عليها قصتك ، واتفق معها على موعد تلتقيان فيه خارج المعسكر » . وما

زالا سائرين حتى أقبلا على خيمة كبيرة قائمة على بضعة عشر عمودا أمامها أناس بالحراب ، وآخرون بالسيوف ، وهم أشبه بالحراس عند الروم ــ وكان بنو أمية قد اقتبسوا نظام الحرس من الرومان وتوخاه عمالهم ارهابا للناس ــ وقبل وصولهما الى الباب أناخا الجملين ، ونزلا فمشت ليلى والناس يوسعون لها وحسن يسير فى أثرها حتى وقفت بباب الخيمة ، فدخل أحد الحراس يستأذن لها ثم عاد يدعوها الى الدخول ، فدخلت وظل حسن مع الواقفين بالباب وهو فى شوق شديد لرؤية الحجاج ، وقد طالما سمع به وبعظم أعماله فوقف بحيث يستطيع رؤيته من باب الخيمة . فاذا هو جالس فى صدرها على سجادة ثمينة وقد تربع ووضع السيف على فخذيه تحت مطرف من خز القاه على كتفيه وأداره على جنبه . ورآه لما دخلت ليلى رحب بها بصوت أرق مما كان يتوقعه ، وكان الحجاج رقيق الصوت الا اذا استفاض فى الخطابة فيرتفع كثيرا . وتفرس حسن فيه وهو يخاطب ليلى فاذا هو أخفش العينين ، مقطب الوجه ، ولم يجد فى وجهه قبولا للابتسام أو الضحك

□

لاخت من حسن التفاتة الى جلساء الحجاج ، فرأى رجلا لم يكد يتبينه حتى اضطربت جوارحه واستعاذ بالله من رؤيته فقد كان عرفجة أبا سمية ، وقد جلس بجانب الحجاج يقضي ويمضي وله الحول والطول . وأدرك حسن أن عرفجة لم ينل هذا المنصب الا بتضحية ابنته سمية فهاجت عواطفه وحدثته نفسه بأن يفتك به انتقاما منه . ولكنه ما لبث أن عاد الى رشده وعلم بما يحيط به من الأخطار فأشاح بوجهه الى خارج المعسكر لئلا يلاحظ أحد عليه شيئا . كما خشى أن يراه عرفجة فيعرفه ويدبر له مكيدة أخرى ، فمشى متظاهرا بانه يسير على غير هدى حتى بعد عن خيمة الحجاج

ثم سمع ليلى تناديه فسار اليها وتبعها والجراب معلق فى كتفه بوصفه رأويتها . وبعد أن قطعا مسافة فى المعسكر قالت : « أنظر الى هذه الخيمة بجانب هذه الراية انها خيمة القادمين من الشعراء وغيرهم ، فأقم بها ريثما آتيك أو أبعث اليك »

قال : « وسمية ؟ .. الا استطيع رؤيتها الآن ؟ خذنى معك بوصفى خادما لك أو تابعا أو أى شيء لأرى سمية »

فرق له قلب ليلى وقالت له : « سر فى أثرى حتى ندخل مضرب خيام النساء واجعل كأنك تحمل لى هذا الجراب حتى تضعه فى الخيمة

التى نحن سائرون اليها ، ومتى وصلنا أدبر لك خيلة لمشاهدتها ومخاطبتها »

فرقص قلبه فرحا ونسى كل خطر فى سبيل شوقه لرؤية حبيبته. وبعد هنيهة وصلا الى خباء له عدة أبواب وحوله خيام أخرى صغيرة، فعلم انه خباء أهل الحجاج ، وقالت ليلى : « امكث تحت هذه النخلة ومتى دعوتك فادخل » . وكانت الشمس قد مالت الى المغيب، فجلس هناك وقلبه يدق وعيناه شائعتان

ودخلت ليلى الخباء وهو أقسام لكل امرأة قسم على عادة العرب فى بناء الأخبية ، فدخلت القسم الذى فارقت هندا فيه فرأتها وسمية جالستين لا تتكلمان . ولما رأتاها رحبتا بها ، وآنست فى وجه هند انقباضا فقالت : « ما لهند غضبى ؟ » . فأجابت سمية بقولها : « ومن ذا الذى يقترب من النار ولا يحترق بها . ان ظلم هذا الجبار العاتى ليصل حتى الى أهل بيته »

وكانت ليلى تعلم ببغض هند للحجاج ، فلم تستغرب ذلك ، ولكنها اغتنمت الفرصة وأجابت سمية قائلة : « أراك تشكين من الحجاج وقساوته وأنت لم تعرفيه الا بالأمس ، وهو مغرم بك ، ولا يكاد يصدق أنه حصل عليك »

فقطعت كلامها وقالت « لم يحصل ولن يحصل على شىء باذن الله»

فقالت : « ولكن هذا بعيد وأنت فى داره وبين يديه ليلا ونهارا »

فأشارت بعينيها كأنها تكتم أمرا لا تريد أن تبوح به أمام هند . فاستغربت ليلى قولها وتظاهرت بأنها تريد مخاطبتها فى شأن فدخلت بها الى خيمتها الخاصة ، فاستقبلتهما أمة الله جارية سميه وكانت تهيىء الطعام ، ثم خرجت من الخيمة لبعض شأنها . فلما خلا المكان قالت ليلى : « رأيتك تتوعدين الحجاج وتتبرئين منه وهو زوجك الشرعى ، فضلا عما له من السلطان النافذ عليك ، فكيف تقولين أنه لم يحصل على شىء ؟ »

وكانت سمية قد جلست على حصير من سعف النخل ، وبين يديها وسادة تتشاغل باصلاح ثنياتها وهى تسمع كلام ليلى . فلما سمعت سؤال ليلى بدت الحيرة على وجهها وامتقع لونه امتقاعا شديدا وبقيت تنظر الى الارض وليلى تفكر فى ذلك وتستغربه ولا تعلم سبب هذا الانفعال فقالت : « مالى أرى سمية ساكتة لاتجيبنى عن سؤالى ؟ كيف تقولين أنه لم يحصل عليك وانت بين يديه ؟ »

فرفعت سمية راسها وقد بدا التأثر فى عينيها وشفتيها وقالت : « صدقينى يا ليلى ، انه لن يحصل منى على شىء رغم عقد قرانه بى .

ولم يكن ذلك تفضلا منه ولكنه أجبر عليه لقسم سبق به لسانه . وأما كونه لن يحصل على فقد أعددت وسيلة أنجو بها منه الى حبيبى . . »
قالت ذلك وشرقت بريقها فاختنق صوتها فأرسلت دموعهـا وهى صامتة لا تشهق ولا تتكلم ، فازداد عطف ليلى عليها ، ولكنها استغربت ما سمعته منها عن الوسيلة التى أعدتها للنجاة . فقـالت : « وأى وسيلة أعددت ؟ وأين هو حسن الآن ؟ »

فلما سمعت سميـة اسم حسن لم تعد تتمالك عن البكاء فكان جوابها الشهيق والنحيب ، وهمت ليلى بأن تطمئنها عن حسن ولكنها خشيت أن يصيبها سوء من المفاجأة . فقالت : « اذا كنت تحبيننى فلا تخفى على سر هذا الأمر ، فقد رأيت منى كل اخلاص وأنا خادمة لك الى آخر نسمة من حياتى . قولى ، ولا تخفى على شيئا »

فقالت وهى تمسح دموعها : « أما سبب كونه لم يحصل على شىء منى ، فذلك أنه أراد أن يطوف بالكعبة آخر الحجة الماضية فمنعه ابن الزبير من ذلك ، فأقسم ألا ينزع سلاحه ولا يقرب نساءه ولا الطيب حتى يقتله »

فتذكرت ليلى أنها كانت لا ترى الحجاج الا مدججا بسلاحه حيثما كان ليلا ونهارا . واعتزمت أن تفضى الى حسن بذلك لعلمها انه يشرح صدره ، ثم قالت لسمية : « وما هى الوسيلة التى دبرتها للنجاة منه فى المستقبل ؟ »

فمدت سميـة يدها الى جيبها فأخرجت منه صرة صـغيرة حلت عقدتها فاذا فى داخلها قطعة رق ملفوفة على هيئة درج ، فتبادر الى ذهن ليلى أنها كتاب . ثم رأت سمية تناولت ذلك الرق بين أصابعها وقالت : « ان الفرج يأتينى من هذا الدواء ! »

فقالت ليلى : « وما ذلك ؟ »

فقالت : « هو سم احتفظت به حتى اذا تحققت وقوع الخطر تناولته فيذهب بى الى مكان أرجو أن ألاقى حسنا فيه »

فرأت ليلى أن تبـوح لها بالسر فقالت : « وما قولك اذا لاقيت حبيبك وأنت حية ؟ »

فتفرست سمية فى وجه ليلى وهى تحسبها تمازحهـا وقالت : « لا تحببى الحياة الى ، فان لقائى اياه فى العالم الآخر خير وابقى . أما هنا فلا أمل لى فى ذلك »

قالت : « لا تقطعى الأمل يا سمية »

فأجابت وهى تحسبها تخفف عنهـا : « لا أبالى أقطعت الامل أم لم

اقطعه ، فان مدة عذابي في هذا العالم أصبحت قصيرة ، ولا بد من انقضاء هذه الحرب فاذا ظل هذا الطاغية حيا كان دوائي في هذه الصرة ، واذا مات » . ثم تنهدت وأكملت حديثها فقالت : « ولكن ما الفائدة من بقائي حية وحدي ؟ »

فقطعت ليلى كلامها وقالت والجد في غنة صوتها : « اذا بقيت حية فانك لا تكونين وحدك لأن حسنا حي ! »

فلما سمعت سمية ذلك بغتت وعادت الى التفرس في وجه ليلى ، فرأت الجد باديا في عينيها فوثبت من مجلسها وقالت : « بالله أعيدى ذكره وعلليني ببقائه . قولى أنه حي فان ذكره يحييني ! » . قالت ذلك واختنق صوتها فبكت ثم قالت : « ولكن ما الفائدة من التعلل بالأحلام ؟ »

فقالت ليلى : « لسنا في حلم ، وانما نحن في يقظة ، وقد آن لك أن ترى حسنا انه في انتظارك على مقربة من هذا الخباء وسأدعوه اليك لتلتقيا » . ثم خفضت صوتها وقالت : « وتتواعدا على وقت تفران فيه من هذا المعسكر ، ولا خوف من مجيء الحجاج الى خيام النساء ما دام قد أقسم لا يقربهن »

□

وكانت سمية تسمع قول ليلى وهي لا تكاد تصدقه ، ولكنها لم تر بدا من تصديقه ولاسيما بعد أن سمعت ان حسنا بقرب خبائها ، فهرولت الى شق في الخباء ونظرت الى الخارج وكان الليل قد سدل نقابه فلم تر أحدا ، فنادت أمة الله فأسرعت اليها وقد أنارت السراج ودخلت حتى وضعته على المسرجة فقالت لها سمية : « هل رأيت أحدا جالسا حول هذا الخباء ؟ »

قالت : « كلا يا مولاتي ولكنني رأيت رجلين مرا معا وخرجا من المعسكر »

فقالت ليلى : « هل رأيت احدهما يحمل جرابا ؟ »

قالت : « أظنني رأيت مع أحدهما شيئا كالجراب »

فاسرعت ليلى وسمية في أثرها وأطلتا من باب الخباء فلم تريا أحدا ، فتحولت ليلى نحو المكان الذي أجلست فيه حسنا فلم تر له أثرا ، فأسقط في يدها ، وفكرت في سبب ذهابه ومن يكون الرجل الذي ذهب به فلم تهتد الى حل .

أما سمية فخامرها شك في قول ليلى ، ولكنها تحققت صدقها لما

بدا فى عينيها من دلائل الاهتمام وما غشي جبينها من أمارات الانقباض، فقالت لها: « أين عسى أن يكون حسن الآن ؟ »

فقالت ليلى: « ان ذهابه لا بد أن يكون لأمر ذى بال ، فقد جاء معى وهو لايكاد يصدق انه يحظى برؤيتك ، وما أظنه تحول من هذا المكان بارادته . ولعله يعود الليلة فلنترقب رجوعه . ولكن من يكون رفيقه الآخر وهو غريب فى المعسكر وقد جاء اليه متنكرا ؟ »

ثم دخلتا الخباء ، ومكثت سمية مطرقة مستغرقة فى الهواجس وهى مرهفة سمعها فاذا هب النسيم ظنت حسنا قادما فيضطرب قلبها . وخرجت ليلى الى خباء هند وهى تكتم ما فى نفسها لعلها تستطلع شيئا جديدا

أما سمية فنادت أمة الله وكانت أنيستها فى وحشتها وعزاءها فى أحزانها والمطلعة على مكنونات قلبها . فلما نادتها لم تسمع جوابها ولا جاءتها فأعادت الصوت فلم يجبها أحد ، فاستعاذت بالله من تلك الليلة ، وخرجت الى حيث تتوقع أن تراها فرأت فى الظلام شبحين عرفت منهما أمة الله ، ورأت الثانى بلباس الرجال فخفق قلبها وتوقعت أن يكون حبيبها فلم تعد تصبر عن المناداة فقالت: «أمة الله؟»

فقالت: « لبيك يا مولاتى انى قادمة على عجل » . قالت ذلك وظلت واقفة مع الرجل ، فقلقت سمية ولم تعد تستطيع صبرا وهمت بالمسير نحوهما فراتهما قادمين فتقهقرت حتى وقفت بباب الخباء ووسعت حتى يقع نور السراج على وجه القادم مع أمة الله فتعرفه ، ولكنه ظل واقفا على بضع خطوات من الخباء ، ثم تبينت انه بلباس حرس الحجاج ، فتشاءمت منه ودخلت الخباء مسرعة وأمة الله فى أثرها . وكانت أمة الله قد أدركت اضطراب سيدتها من منظر الرجل فابتدرتها قائلة: « لا تخافى يا مولاتى ان الرجل رسول خير »

قالت: « ممن ؟ »

قالت وقد خفضت صوتها: « من حسن »

فبدت البغتة فى وجهها وقالت: « ليدخل »

فخرجت أمة الله وعادت والرجل معها وعليه لباس الحرس . ولم تكن ملابس الجند قد تميزت يومئذ عن ملابس سائر الناس تمييزا تاما . غير أن حرس الأمراء الأمويين كان لهم لباس خاص بهم ، اقتبسه معاوية من الروم مع علامات خاصة ، فوقفت سمية لاستقبال الرجل وركبتاها تصطكان لعظم اضطرابها من منظره

أما هو فلما دخل حياها باحترام وقال لها بصوت منخفض:

« لايزعجك أمرى يامولاتى ولا يخيفك هـذا اللبـاس فانى خادم لك ولمولاى حسن »

فلما سمعت صوته تفرست فى وجهه فعرفت أنه عبد الله خادم حسن فصاحت فيه : « أنت عبد الله ؟ »

قال : « نعم يامولاتى انى خادمك عبد الله »

قالت : « وما الذى جاء بك الى هذا المعسكر ؟ وأين حسن ؟ . هل هو حى كما يقولون ؟ » . قالت ذلك وشرقت بدموعها

فقال : « نعم يا سيدتى انه على قيد الحياة ، ولم أكن أعرف ذلك الا هذه الساعة ، وكنت قد يئست من حياته مثلك ولكن الله أنعم علينا بنجاته . فالحمد لله »

قالت : « وأين هو ؟ »

قال : « انه مختبىء على مقربة من هذا المكان حتى لا يراه أحد ، لأنه جاء متنكرا ولم ينتبه له الا أبوك ، فطلب الى الامير أن يقبض عليه. وقد اطلعت أنا على هذه المكيدة فأسرعت اليه وأنبأته بها ، وخرجت به الى مخبأ قرب هذا المعسكر ، وجئت لأنبئك بذلك لنتعاون على استنباط حيلة تخرجان بها الى حيث تشاءان وأنا فى خدمتكما »

فقالت : « سامح الله أبى، بل لا سامحه الله على ما يسومنا اياه من البلاء. لقد أصبحت أكره اسم عرفجة وأكره أن أراه من أجل هذه المعاملة . آه ياربى ! ما العمل ؟ ما الحيلة ؟ قل لى ياعبد الله : هل حسن فى مأمن؟ »

قال : « نعم يا مولاتى انه فى مكان أمين ولا بأس عليه »

فقالت : « وكيف أدخلت نفسك فى زمرة الحراس ، وكيف انطلى أمرك على الحجاج وعلى أبى ؟ »

قال : « أن حكايتى طويلة ، وخلاصتها أنى لما يئست من لقاء مولاى حسن فى المدينة وكنت قد عثرت على رحله وفيه كتاب من خالد بن يزيد الى عبـد الله بن الزبير لابد من ايصاله اليه ، رأيت القدوم به الى مكة ، فاذا كان مولاى حسن قد سبقنى اليها لقيته وسلمتـه اليه ، واذا لم أجده أوصلت أنا الكتاب الى ابن الزبير . فلما دنوت من مكة علمت أن رجال الحجاج محيطون بها من كل جانب ، ولا يستطيع أحد الدخول اليها ، وخشيت أن يقع الكتاب فى أيديهم ، واحتلت لدخول معسكر الحجاج لعلى أتنسم خبرا عن سيدى ، وقد يسر لى الدخول انى من ثقيف قبيلة الحجاج ، وهو كثير الثقة فى أهل قبيلتـه ويعرفنى من قبل ، ولكننى أعلم انه رجل شديد داهية فربما شك فى أمرى فيأمر

بقتلى، فعزمت على أن أتقرب اليه بأن أعطيه الكتاب ، ولاسيما انى لم أ
فيه فائدة بعد فقد مولاى ، وربما تمكنت باقترابى من الحجاج
من استطلاع خبر مولاى ، فتظاهرت بأني قادم على الحجاج لأمر ذى
بال يهمه ، وجئت المعسكر وطلبت أن أقابله فى خلوة فأذن لى ، فلما عرفته
بنفسى عرفنى . ثم أخرجت له ذلك الكتاب وأنا عالم أن ليس فيه
ذكر لمولاى حسن ، وانما هو خطاب من خالد بن يزيد الى عبد الله بن
الزبير فى أمر خطبة أو نحوها ، فتظاهرت بأنى عثرت بالكتاب مع رجل
قادم من الشام ، ولما رأيت عليه اسم عبد الله بن الزبير شككت فى أمره
فقتلت حامله ، وجئت بالكتاب اليه

« فلما سمع الحجاج ذلك منى ، مع علمه بأنى من قبيلته ، احسن الظن
بى وقربنى منه وجعلنى من حراسه كما ترين . وفى مساء ذلك اليوم قدم
أبوك على الحجاج فأطلعه على ذلك وأنا واقف ببابه . فلما اطلع أبوك
على الكتاب نادانى فدخلت الفسطاط فقال : (من أين أتيت بهـــذا
الكتاب ؟!) . فقصصت عليه الخبر كما ذكرته ، فقال : (ان صاحب
هذا الكتاب عدو لنا عرفناه فى المدينة وحاولنا قتله ، ولكن الذى ذهب
لاغتياله لم يعد الينا ، فهل قتلته أنت ؟) . فلما سمعت قوله اطمأننت
على حياة مولاى ، ومضيت فى اتمام الحيلة فقلت : (لاأعلم أهو الذى
قتلته أم لا ، ولكننى قتلت شابا بلباس كذا) . وذكرت له ما يقرب
من صفات مولاى فقال : (لعله هو وقد أحسنت على أى حال) .
وأدنانى أبوك منه ومكثت فى جملة الحراس وأنا أتفقد الاحوال وأستطلع
الأخبار حتى جاءنا مولاى فى هذا النهار مع ليلى الأخيلية وقد تنكر ،
فعرفته ، ولم ينتبه لى ولا أنا أردت أن يعرفنى لئـــلا ينكشف امرنا .
فتجاهلت حتى دخلت ليلى على الحجاج وخرجت . وكان أبوك مع
الحجاج فى الفسطاط ، فلما خرجت ليلى رأيت علائم الغدر فى وجه
أبيك ، وسمعته يخاطب الحجاج فأصغيت فاذا هو يشير بأصبعه الى
ليلى ويقول : (ان راويتها جاسوس متنكر) . واشـــار بالقبض عليه ،
فعلمت أنه عرف حسنا واحتلت فى الخروج حتى جئته وهو جالس
بقرب هذا الخباء فأخبرنى انه جاء من أجلك ، فذهبت به الى خربة
وراء هذا المعسكر لا يهتدى اليها أحد ، ووعدته أن آتى اليك وأطلعك
على أمره لندبر حيلة للفرار »

وكان عبد الله يتكلم وسمية تتطاول بعنقها وتصيخ بسمعها وعيناها
شاخصتان فيه . فلما جاء على آخر الحديث اطمأن قلبها وزال قلقهـــا
على حبيبها ، فانبسطت أسرتها وقالت : « بورك فيك ياعبد الله ، انك
لنعم الرجل ، واذا أتيح لنـــــا أن ننجو على يدك فستكون شريكنا فى
سعادتنا ، والا فلا حول ولا . . »

فقال : « ان النجاة قريبة ان شاء الله ، ولكن لابد من الصبر ، فاذنى لى فى الانصراف الآن ، لأعود الى موقفى لئلا يشكوا فى أمرى ، فاذا حدث شيء أو احتجت الى شيء فانى رهين اشارتك . واذا حدث عندى شيء جئتك به » . قال ذلك وهم بالخروج فاستوقفته وقالت له : « الى أين ؟ وكيف تترك حسنا وحده فى تلك الخربة ومن أين يأكل وأين ينام ؟ »

فقال : « أتظنين انى تركته ولم أعد اليه ؟ . كونى مطمئنة فانى أدبر له كل ما يحتاج اليه » . وودعها وخرج

وتذكرت سمية ليلى ، فنادت أمة الله وقالت لها : « أين هى ليلى ؟ » . فقالت : « هى فى خباء هند » . وخرجت ثم عادت تقول : « لم أجد فى الخباء أحدا »

فاستغربت ذلك وقالت : « ألم تسألى الخدم عنهما ؟ »

قالت : « سألت الخادمة فذكرت لى أن هندا خرجت عند الغروب تتمشى بين الأخبية ، ثم جاءت ليلى للسؤال عنها فلما لم تجدها اقتفت أثرها ، ولم تعودا من ذلك الحين »

فقالت : « وأين تذهبان فى هذا الليل ؟ اخاف أن يكون الحجاج بعث للقبض على ليلى لأنها واطأت حسنا على التنكر » . وخافت سمية اذا بالغت فى البحث عنهما أن تنصرف الشبهة اليها فدخلت خباءها وجلست تفكر فيما مر بها فى تلك الليلة من الغرائب . وكلما تصورت أنها نجت بحبيبها وخرجت من معسكر الحجاج يختلج قلبها فرحا

أما عرفجة فانه عرف حسنا حالما وقع بصره عليه ، فتجاهل وانتظر حتى خرجت ليلى ثم طلب القبض عليه كما تقدم . ففوض اليه الحجاج أن يفعل به ما شاء ، فلما ارفض المجلس خرج عرفجة الى كبير الحراس وأوصاه بأن يبعث بضعة عشر من رجاله بالسلاح يقتفون أثر راوية الشاعرة ويقبضون عليه حيثما وجدوه . وكان عبد الله قد سبق الى حسن وخرج به الى ذلك المخبأ

فلما لم يعثر الحراس على حسن هناك ، عادوا الى عرفجة وأنبأوه بذلك فقال : « الى بليلى فانها فى أخبية النساء » . فعادوا اليها فرأوها تتمشى مع هند بجوار الأخبية ، فأشاروا اليها أن تأتى الى فسطاط الحجاج . فلما سمعت ذلك خافت من انكشاف أمرها ولكنها لم تر بدا من الطاعة فسارت مع الحراس حتى أتوا الفسطاط والظلام قد عقد قبابه ، فلم يدخلوا فسطاط الحجاج بل دخلوا فسطاطا آخر رأت فى صدره عرفجة جالسا . فلما رأته استعاذت بالله من شر ذلك المساء ؛

ولكنها كانت جريئة لا تبالى بمن تلاقى ، فدعاها الى الجلوس وقال لها : « أين هو راويتك يا ليلى ؟ »

فلما سمعت سؤاله أدركت أن أمر حسن قد انكشف فلم تشأ أن تشرك نفسها فى ذنبه فيقعان معا فلا تعود قادرة على مساعدته ، فعمدت الى الحيلة وقالت : « وأى راوية تعنى ؟ »

قال : « راويتك الذى يحمل جرابك وقد جئت به اليوم »

قالت : « وهل دخلت على الامير ومعى راوية ؟ »

قال : « لم يدخل معك ولكنه بقى خارجا ، ولما مضيت اقتفى أثرك »

قالت : « وهل يدل ذلك على أنه راويتى ؟ وكيف يكون راويتى ولا ادعوه الى الجلوس فى حضرة الامير ؟ »

قال : « أراك تتنصلين منه ونحن لا نريد به شرا »

قالت : « لا يهمنى ما تريدون به ، ولكنى جئت الى المعسكر بالأمس وليس معى راوية »

قال : « كان معك رجل يحمل جرابا »

قالت : « اتعنى الرجل الذى يحمل الجراب ؟ لقد التقيت به عند دخولى المعسكر ورأيته يسير بجانبى فلم أنتبه لأمره ، ولا أعرفه .. ومع ذلك فاذا كنتم تسيئون الظن بمن يبذل نفسه فى خدمتكم فلا حيلة لنا فيكم »

فلما رآها غضبت جعل يخفف عنها ويقول : « نحن لم نسىء الظن بك يا ليلى ، وأنت شاعرة الامير ولك عنده المنزلة السامية ، ولكن هذا الرجل قد خدعنا وهو جاسوس دخل معسكرنا ونحن نحسبه راويتك »

قالت : « وهل الامير ممن يخافون الجواسيس ؟ ان من كان مثله حزما وقوة لجدير بأن يخافه الجواسيس ، على أنى لو علمت بجاسوس فى هذا المعسكر لأطلعت الامير على خبره »

قال : « بورك فيك ، وأرجو أن تكونى عينا على هذا الرجل ، فاذا رأيته فأنبئينا بمكانه ، فقد بعثنا من يقبض عليه فلم يقفوا له على أثر ولعله يظهر غدا فاكتمى هذا الآن » . قال ذلك ونهض ، فنهضت ليلى وخرجت من عنده قلقة على حسن ، وان سرت لنجاته من قبضتهم . ثم عادت توا الى سمية وقصت عليها الخبر ، فأطلعتها سمية على حديث عبد الله فاطمأن بالها

قضى حسن ليلته فى الخربة التى اختبأ فيها بجانب المعسكر ، وهى تطل على الطريق المؤدى الى مكة ، ولم يغمض له جفن لشدة قلقه وتشتت أفكاره . وقد عظم عليه أن يخرج من معسكر الحجاج فرارا ولكنه أدرك انه يستحيل عليه النجاة بغير ذلك ، ولبث حتى الصباح وهو يفكر فى وسيلة لانقاذ سمية من الحجاج

وكان عبد الله قد وعده أن يوافيه فى مخبئه ليدله على طريقة للفرار ، فقضى ليله فى هذه الهواجس ، وفى الصباح صعد على أكمة أشرف منها على معسكر الحجاج لعله يرى عبد الله أو رسولا منه ، فرأى بينه وبين المعسكر أرضا خالية وتبين المكان جيدا . وفيما هو يتطلع راى رجلا قادما على هجين من أطراف المعسكر كأنه آت من الصحراء ، ثم اقترب الرجل منه فتبين أنه خادمه عبد الله ، فاستبشر بقدومه فلما وصل عبد الله ترجل وأشار اليه أن يعود الى الخربة مخافة الرقباء ، فقال له حسن : « ما وراءك الآن ؟ »

قال : « أبشرك أولا بأن الحجاج لم يقرب سمية وان كان قد عقد قرانه بها » . قال : « وكيف عرفت ذلك ؟ »

قال : « عرفته عن ثقة ، فقد أخبرتني به ليلى الأخيلية ، وهى التى ساعدتنا فى تدبير الحيلة للخروج » . وذكر له أمر القسم الذى أقسمه الحجاج ، فانشرح لذلك صدر حسن ، ثم قال : « وماذا دبرتموه للنجاة من بطش الحجاج ، انى لأستنكف فرارنا على هذه الصورة ، ويخيل الى أن سمية لا ترضى منى هذا الضعف »

قال : « انها لما علمت بنجاتك سرت سرورا عظيما ، لأنهم لو ظفروا بك لفتكوا بكما معا . ثم أى فائدة من بقائك فى المعسكر بعد انكشاف أمرك ، وهل تستطيع مقاومة الحجاج وجنده ؟ . وعلى أى حال قد جئتك بما استقر رأينا عليه فى هذا الصباح ، وهو أن أترك هذا الجمل عندك وأعود ، فتتأهب أنت للرحيل فى العشاء وتخرج من وراء هذا التل حتى تطل على الطريق التى تراها أمامك ، وستجدنى وسيدتى سمية هناك وكل منا على هجين ومعنا المؤونة اللازمة للسفر فى الصحراء أياما . ومتى بعدنا عن مكة صرنا فى مأمن »

فسر حسن لهذا التدبير ، على صعوبة تنفيذه ، وقال لعبد الله : « احذر ان يطلع أحد على ما دبرتموه ، فتكون الثانية شرا من الاولى . وثق بأننى ان وقعت فى هذه المرة فلن يسعنى الا أن أناضل عن سمية حتى أموت بين يديها »

قال : « لقد أعددنا كل شىء ، ولا خوف على سمية لأن الحجاج لا يأتى الى خباء أهله مطلقا فى هذه الأيام للسبب الذى ذكرته لك »

اطمأن بال حسن وجلس فى مخبئه بالخربة يتناول طعاما أحضره له عبد الله ، ولم تمض ساعة حتى سمع صوت قعقعة اللجم ووقع حوافر الخيل ، فصعد الى الأكمة وتطلع نحو مصدر الصوت فرأىأكثر من عشرين فارسا قد اكتسوا بالدروع ، وفى مقدمتهم فارس ضخم أسود ، هو قنبر عبد عرفجة . فلما وصلوا الى المكان أشار قنبر بيده الى حسن وقال : « هذا هو فأمسكوه » . فأحاطوا به من كل ناحية ، ولم ير حسن بدا من التجلد فقال لهم : « ما بالكم ؟ وما الذى تطلبونه ؟ »

فضحك قنبر مستهزئا وقال : « ان الامير يدعوك الى وليمة العرس ! »

فاستشاط حسن غضبا من استخفاف العبد به ، وقال له : «اخسأ يا عبد السوء »

وما أتم كلامه حتى أحدق به الفرسان وسيوفهم مسلولة ، فوضع حسن يده على قبضة سيفه وقد ثارت الحمية فى رأسه وقال لهم : « لايغرنكم عددكم ، ولا تظنوا انى أهاب سيوفكم وخيولكم ، فاما أخبرتمونى بما تريدون بالحسنى ، واما فلن تنالوا منى شعرة قبل أن يقطر حسامى من دمائكم » . قال ذلك وقد أخذ الهياج منه مأخذا عظيما ولم يعد يبالى الحياة

فتقدم اليه فارس منهم لا يظهر من وجهه غير عينيه خلال اللثام وقد شهر السيف بيده وقال : « نراك تظهر من الضعف قوة ، وما أنت الا جاسوس نذل لا أحسبك تحتمل ضربة من هذا السيف »

فلما سمع حسن قوله صعد الدم الى رأسه وصاح فى هذا الفارس قائلا : « أتخوفنى بسيفك ؟ انما يخاف السيوف من يخاف الموت ، ولست ذلك الرجل . فاذا أردت النزال فانزل نتبارز راجلين ، فلا يصح النزال وأنت راكب وأنا راجل . واذا خفت فانزلوا جميعا وأنا أستعين الله عليكم »

فضحك الفارس بصوت عال سمعه الجميع ، قال وهو يحول شكيمة جواده عن حسن : « لو أن الامير أمرنا بقتلك لأريتك القتل كيف يكون، ولكنه أمرنا أن نقودك اليه أسيرا . فامش »

قال : « لا أسير ماشيا وأنتم راكبون ، فاما أن أركب معكم أو تمشوا معى ! »

فلما رأوا هذه الجراة منه هابوه وحسبوا له حسابا ، وجعلوا يتشاورون فيما يفعلونه . فأشار بعضهم بقتله ، وعارض آخرون لأن الامير لم يأمرهم بذلك . ثم قر رأيهم على مسايرته ريثما يبلغون به المعسكر ويقدمونه فيرى الامير رأيه فيه

وكانوا يعلمون أنه يندر أن يساق الى الحجاج متهم وينجو من القتل ، فانه كان سفاكا للدماء حتى أحصوا الذين قتلهم فى حياته فبلغوا مائة الف وعشرين ألفا . ووجدوا فى سجونه بعد موته ثلاثة وثلاثين ألفا لم يجب على واحد منهم قتل ولا صلب . فرأى الفرسان أن يعاملوا جسنا بالحسنى ويتركوا أمر الايقاع به الى الحجاج . فتقدم اليه فارس غير الذى كلمه أولا وقال له : « لو كنا قد أمرنا بقتالك لقاتلناك مشاة أو فرسانا ، ويحكم الله بيننا وبينك ، ولكننا جئنا لنحملك الى الامير »

قال : « قلت لكم انى لا أسير معكم ماشيا وأنتم راكبون » . وكان قنبر واقفا يسمع كلامه وهو يستغرب صبرهم على جرأته ، فلما سمع قوله تقدم اليه وقال بلهجة العبيد ورطانتهم : « امش يا هسن وهل أنت أهسن منى ؟ »

فلما سمع حسن كلامه جرد سيفه وصاح فيه قائلا : « اذا تكلم الناس فاخرس أنت ياعبد النحس . والا فانى مطير راسك بحد هذا السيف »

فضحك قنبر حتى بانت نواجذه ثم قال : « بعد قليل نرى من المقتول منا ، ولكنك غير ملوم لأن سمية خرجت من يديك ، تعال وانظرها بين نساء الامير ! »

فلما سمعه حسن يذكر سمية ، عز عليه أن يحتقره ذلك العبد ويهزأ به ، فهاج غضبه واستغرب سكوت سائر الفرسان عن وقاحته ، ولكنه أمسك نفسه وقال له : « لولا خوفى أن يقال لطخت حسامى بدم عبد لئيم لأطرت رأسك عن جذعك ، ولكننى أرجو أن يكون ذلك نصيب مولاك الخائن ، فاخرس ولا تخاطبنى والا فأنت الجانى على نفسك » .

فلم يزدد قنبر الا قحة واستخفافا ، واقترب من حسن ويده على قبضة سيفه وقال : « المثلى تقول هذا الكلام ياحسن ثم تعرض بذكر مولاى ، والله انى ضاربك ضربة أعلمك بها الادب والحشمة » . قال ذلك وهم باستلال السيف ، فعيل صبر حسن لقحة ذلك العبد وسكوت بقية الفرسان ، فجرد حسامه وتلقاه بضربة على عنقه فذهب رأسه يتدحرج على الاحجار

فلما راى الفرسان ذلك صاحوا فيه : « لقد حل لنا دمك بعد هذه الجرأة ، كيف تقتل هذا الرجل بين أيدينا ؟ »

فلم يبال حسن ضوضاءهم وقال لهم : « أتعدون هذا رجلا ؟ . ان من يعده رجلا لجدير بأن يناله ماناله . ثم انى رأيتكم سكتم عن قحته فلم يسعنى الا قتله ، وقد قلت لكم انى لا أبالى الموت فلاتخوفونى به » . قال ذلك والشرر يكاد يتطاير من عينيه ، وظل واقفا وسيفه يقطر من

دم قنبر وقد اشتفي قلبه بقتله ويئس من الحيـاة ، لأنه لم يكن يتوقع من هؤلاء الفرسان الا الفتك به فعزم على الدفاع الى آخر نسـمة من حياته ، فاذا مات مات كريما

على انه ما لبث أن رأى الفرسان يتسارون، ثم تقدم أحدهم وترجل عن فرسه وقدمه له قائلا : « هذا جوادى فاركبه حتى تأتى المعسكر وشأنك والأمير ، وسأركب أنا جلك »

فلما سمع صوت الفارس عرف انه خادمه عبد الله ، فاستأنس به ، وأدرك انه هو الذى حملهم على الابقاء عليه . فركب الجواد ، وسـاروا جميعا نحو المعسكر

وكان السبب فى معرفة مكان حسن ، ان عرفجة لما خرجت ليلى من عنده ولم تطلعه على مقره بعث عبده للبحث عنه فى المعسكر ، فقضى هذا طول الليل فى البحث ، وفى الصباح رأى هجانا قادما الى المعسكر من ناحية تلك الخربة ، فلم يعرف الهجان ولكنه شك فى أمره ، فذهب يبحث فى المكان الذى رآه قادما منه ، وهنـاك وقع بصره على حسن وجمله فأسرع الى سيده فأنبأه بما رأى ، فأوعز هذا الى الحجاج فأرسل كوكبة من الفرسان للقبض على الجاسوس الهارب

وكان عبد الله قد عاد إلى موقفه مع الحراس ، فلما علم بالامر احتال حتى ألحق بأولئك الفرسان ، لعله يستطيع مساعدة سـيده ، وبذل جهده حتى أبقو عليه حتى بعد أن قام بقتل قنبر ، رغم ماله من منزلة رفيعة عند الحجاج مراعاة لسيده ، ولأنه ينفع فى مثل هذه المهام

وقد ساعد عبد الله فى بلوغ غايته ان الجنـد لم يكونوا يحبون قنبر لفرط استبداده وقحته — واستبداد العبيد ثقيل على الطباع — فلما قتله حسن فرحوا فيما بينهم وبين أنفسهم ، وان أظهروا الغضب

وبعد أن أرسل عرفجة الفرســان دخل على الحجاج فى خيمتـه ، وجلسا ينتظران مايكون ، وأخـذ عرفجة يمهـد للفتك بحسن ، فأقنع الحجاج بأنه جاسوس وبأنه اذا بقى حيا فلا يؤمن شره . وماكان الحجاج فى حاجة الى من يوصيه بالقتل ، وهو بطبعه شـديد الرغبة فى سفك الدماء

وآن وقت الغداء ، فلم يشـأ الحجاج مغادرة الفسـطاط قبل مجيء الفرسان ليرى ذلك الجاسوس الذى بالغ عرفجة فى وصف خطره ، فلما أحس الجوع أمر بأن يؤتى بالطعام الى الفسطاط ، وكان الحجاج من الاكلة المشهورين فى الاسلام أمثال : سليمان بن عبد الملك ، وميسرة البراش، وغيرهما ، حتى قالوا انه أكل ٨٤ رغيفا مع كل رغيف سـمكة فى أكلة واحدة ! . فلما جاءوه بالطعام دعا من فى مجلسـه الى مشاركته فيه ،

فاعتذروا جميعا تهيبا منه الا عرفجة فانه أكل معه ، وان ظل طول الاكل قلقا يفكر فيما دبره لحسن من المكايد . فلما فرغ الحجاج من الطعام رفعت المائدة ، وجلس الحجاج صامتا . وكان عظيم الهيبة حسن الفراسة فاذا سكت لبث الذين فى حضرته سكوتا كأن على رؤوسهم الطير

□

وفيما هم على تلك الحال ، دخل الحاجب وقال : « لقد عاد الفرسان وعما قليل يصلون »

فقال الحجاج : « وهل الاسير معهم ؟ »

قال : « لم أر بينهم أحدا ماشيا »

قال : « لعله جاء على جواد » . قال : « ان بينهم رجلا بلباس غريب، فلعله هو الاسير »

فنهض عرفجة ووقف بباب الفسطاط يتفرس فى القادمين ، ولما وقع نظره على حسن عرفه ، وكانت هذه هى المرة الثانية التى يراه فيها بعد مقابلتهما فى المدينة

ولما رأى حسن عرفجة ارتعدت فرائصه من الغيظ ، وود لو أن سيفه أصاب عنقه بدلا من قنبر . ولاحظ عرفجة ان قنبر ليس بين القادمين فظنه تأخر فى الطريق ، وعاد الى الفسطاط وجلس بجانب الحجاج ثم دخل الآذن وأنبأ الحجاج بوصولهم فقال : « ادخلوا الرجل لنراه »

فأدخلوه عليه وقد نزع سيفه ووقف بين حارسين أحدهما عبد الله وفى يد كل منهما حربة . ولا تسل عن هواجس عبدالله فى تلك الساعة لما يعلمه من رغبة الحجاج فى سفك الدماء . وأما حسن فانه وقف بقدم ثابتة كأنه بين بعض الاصدقاء ، والتفت الى من حوله فى الفسطاط فرأى فى صدره الحجاج وعرفجة ، والى الجانبين رؤساء الاجناد وكلهم سكوت تهيبا من الحجاج . لأنه قلما رؤى ضاحكا ، واذا ضحك فانه لايزيد على أن يكشر عن أنيابه . وقد تسمع قهقهته فاذا نظرت الى وجهه لم تجد فيه أى أثر لغير التجهم والعبوس !

وكان حسن يسمع بظلم الحجاج وشدة وطأته ورغبته فى سفك الدماء ، ولكنه اعتزم الصبر والثبات حتى الموت ، وبقى واقفا برهة لايخاطبه أحد فى شىء والحجاج ينظر اليه ويتفرس فيه ثم قال له : « ممن أنت ؟ »

قال : « ما أنا من ثقيف ولا من أميـة »

قال : « وماذا تعنى ؟ »

قال : « أعني انى لست من قبيلة الامير ولا من قبيلة امير المؤمنين ، ومهما يكن من أمرى بعد ذلك فليس مما يغير رأى الامير فى . . »

فقطع عرفجة كلامه وقال : « أبمثل هـذا الجواب يخاطب ولى أمير المؤمنين ؟ ! انها قحة ! »

فلم يصبر حسن على سـماع ذلك من عرفجة والتفت اليه وقال : « بل القحة أن يتصدى مثلك للجواب عن مولانا الأمير ويقطع الكلام عليه »

فأرادعرفجة أن يتكلم فرأىالغضب فى وجه الحجاج وهو يهم بالكلام فسكت ، وقال الحجاج : « لسنا فى مقام جدال ، فأخبرنى ما الذى جاء بك الى هذا المعسكر متنكرا ؟ »

فتحير حسن ، ولم يدر بم يجيب ، وخاف أن يصرح بحقيقةغرضه فيهيج غيرة الحجاج عليه ، ولاسبيل بعد ذلك للنجاة ، فلبث ساكتا . فاستبطأ الحجاج جوابه فأعاد السؤال فقالحسن : « جئت لأمر يهمنى ولا يهم سواى ولا علاقة له بأمر الخلافة أو الامارة »

قال الحجاج : « نرى أجوبتك مبهمة فأفصح »

فلبث حسن ساكتا ، فاغتنم عرفجة فرصة سكوته وقال للحجاج : « ان أجوبته مبهمة لأنه يخاف أن يعترف بفعلته ، وهو جاسوس من عبد الله بن الزبير على مولانا الامير . بل هو عدو أمير المؤمـنين يتمنى سـقوط دولته ويسعى فى ذلك جهـده . واذا شئت أن تتحقق ذلك فاطلب اليه أن يلعن الكاذبين »

فالتفت الحجاج الى حسن كأنه يستطلع رأيه فيمـا قاله عرفجة ، فقال حسن : « حاش لله أن أكون كما يقول »

فقال الحجاج : « اذا كان الامر كذلك ، فألعن الكاذبين : عليا بن أبى طالب ، وعبد الله بن الزبير ، والمختار بن أبى عبيد »

فارتبك حسن لأنه لايعتقد كذب هؤلاء ، ولايريد أن يلعنهم . وكان يعلم انه اذا لم يلعنهم فان هذا يكون حجة عليه فقال : « لا ارى علاقة بين صدق نيتى فى خدمة أمير المؤمنين عبد الملك وبين لعن هؤلاء »

فقال عرفجة : « أرأيت يامولاى كيف هو خائنغادر يكذبعلى الامير كذبا صريحا ؟ . أما قلت لك انه جاسوس والجاسوس يستوجبالقتل؟ أقتله يامولاى وأرح نفسك منه » . قال ذلك وأطرافه ترتعش ولحيته

تنتفض فى وجهه على صغرها ، وعيناه ترتعشان كأنهما قد فت فيهما حصرم

وكان الحجاج معتوه وظلمه ذا فراسة ونظر، فأدرك أن تمنع حسن عن اللعن لايدل على جاسوسيته ، ولكنه أعاد السؤال عليه وقال : « لقد صبرنا عليك حتى الآن . سألناك عن نسبك فلم تجبنا وهذا ذنب وحده يكفى لاتهامك . ثم سألناك عن غرضك فى طرق هذا المعسكر متنكرا فأجبت جوابا مبهما ، وكلفناك لعن الكاذبين فأبيت. فهل تتوقع أن نصبر عليك أكثر مما صبرنا ؟ »

فلما سمع كلام الحجاج أيقن بدنو أجله ، ولكنه لم يجزع ، وعزعليه أن يشمت به عرفجة ، فلبث ساكتا يفكر فيما يفعل ، واغتنم عرفجة الفرصة فخاطبه قائلا : « أجب الامير . السنت جاسوسا خائنا جئت لتكيد لأمير المؤمنين ؟ »

ثم التفت الى الحجاج وقال : « انى أعجب لصبر مولاى على هذا الخائن وكيف لم يأمر بقطع رأسه ؟ »

فلما تحقق حسن بلوغ الامر غايته وخاف أن تنفذ حيلة عرفجة فيه فيأمر الحجاج بقتله ، اعتزم الايقاع بعرفجة ، فالتفت اليه وخاطبه بقلب جسور وقال : « اتدعونى خائنا وما الخائن الا أنت ؟ »

فوثب عرفجة من مجلسه مغضبا وقال : « كيف تجرؤ على هذا الكذب فى حضرة الامير وهو أعلم الناس بصدق طاعتى واخلاصى. والله لو أذن لى الامير لقطعت رأسك بيدى ، فانى لأعلم الناس بخيانتك ، ويعلمها أيضا غلامى قنبر » . قال هذا ثم تلفت حوله متفقدا عبده قنبر ، فلما لم يجده صاح : « أين قنبر؟ » . فأجابه حسن ساخرا وقال : « لن يجيبك قنبر لأنه نال جزاءه ! » . فالتفت عرفجة الى الحراس مستفهما ، وقبل أن يسألهم أشار أحدهم بيده اشارة فهم منها أن قنبر قتل بيد حسن فأجفل عرفجة وحلق عينيه وصاح فيه : « وهل قتلت غلامى أيضا ؟. ثم تقف غير خائف من القصاص ؟! » . ثم التفت الى الحجاج وقال : « أتراه لم يستوجب القتل بعد ؟ »

فابتدره حسن قائلا : « قتلته لخيانته ، وسوف تنال جزاءك بأمر مولانا الامير متى ثبتت خيانتك »

فقال عرفجة : « اتتهمنى بالخيانة وخيانتك ظاهرة للعيان وقد اضفت اليها جريمة القتل ؟ »

فلما رآهما الحجاج يتجادلان ويحاول كل منهما اثبات الخيانة على الآخر ، رأى من الحزم والدهاء أن يصبر حتى يستمع لجدالهما ، وان كان هذا على غير ما تعوده جلاسه منه

أما حسن فلما رأى الحجاج مصغيا ، التفت الى من حوله من الأمراء وقال : « أشهدكم على ان دم الخائن مهدور أيا كان ! »

فقال عرفجة : « ما الخائن الا أنت »

فتجلد حسن حتى ملك نفسه ونظر الى عرفجة وقال له بصوت هادىء : « من الخائن منا يا عرفجة ؟ . أأنا الخائن وأنت الامين الصادق فى خدمة أمير المؤمنين ؟ »

قال : « وهل فى ذلك شك ؟ »

قال : « وماذا تقول فى الكرسى ؟ »

فلما سمع عرفجة لفظ الكرسى ارتعدت فرائصه وبدت البغتة فى وجهه ، ولكنه تجاهل ولجأ الى المغالطة قال وهو يضحك ويظهر الاستخفاف : « أى كرسى ؟. لاشك فى انك تهذى »

فقال حسن : « أنسيت الكرسى ولهيب ناره لايزال يلفح وجهك ؟ . أفلم تدرك اى كرسى أعنى ياعرفجة ؟ »

فتحقق عرفجة اطلاع حسن على حرق الكرسى ، ولكنه استغرب ذلك وأنكره وعاد الى محاولته المغالطة فقال : « مابالك تهذى يارجل ؟ . وأى كرسى تعنى ؟ »

وكان الحجاج ينظر فى عينى عرفجة ، فلم يخف عليه انه فى ورطة ، وبقى صامتا يصغى . فقال حسن : « ألم تفهم اى كرسى ياعرفجة ؟. هو كرسى المختار بن أبى عبيد الذى كلفتمونى لعنه الآن ! »

فازداد تغير وجه عرفجة وقال : « وما شأنه ؟ وما علاقة المختار بما تقول ؟ »

فقال حسن وقد رفع صوته : « ألا تعرف علاقته بك ؟ اذا كنت لاتعرف تلك العلاقة ، فاسأل محمدا بن الحنفية ، وهو قريب من هنا . اسأله أو اسأل من شئت . واذا أنكرت استنطقنا رماد الكرسى »

فلما سمع عرفجة هذا التعريض أوجس فى نفسه خيفة ، ولم يجد سبيلا الى التخلص الا أن يمضى فى تجاهله ومغالطته فقال وهو يضحك : « أتظن مثل هذه المفتريات تنطلى على مولانا الامير ؟ وهل تظنه يصغى لكلام مختلق لامعنى له ولا أصل ؟. ان الامير ان يكن قد مد لك فى حبل الحلم ، فما ذلك الا لكى يأخذك بجريرتك ويجعلك عبرة لأمثالك من الخائنين »

فقال حسن : « للأمير أن يفعل بى ما يشاء ، ولكن ذلك لاينفى كونك خائنا منافقا . واذا كنت قد أنكرت أمر الكرسى ، فان أمره معروف وأهل المدينة يعرفون عنك محافظتك بضعة أعوام على محفة لايعرف أحد

مافيهـا . ولم يكن فيهـا الا كرسى المختار الذى زعم انه لعلى بن أبى طالب ، واستغله فى الدعوة الى قتـال بنى أمية من ورائه ، فلمـا مات أخذت أنت الـكرسى لنفسك ، لتخلف المختار فى اسـتغلاله لمناصبـة بنى أمية العداء ومحاولة اخراج الخلافة منهم الى محمد بن الحنفية الذى كان المختار يدعو له »

فقطع عرفجة كلامه وقال : « ماهذا الا اختلاق »

فقال حسن : « ان ابن الحنفية شاهد على ذلك ، ومهما يكن من أمره فيما يختص بالخلافة فلا يشك أحد فى صـدقه ، واذا كان شعب على بعيداً من هنا ، ففى المسجد بمكة من شـهدوا حريق الـكرسى معى ، وشهدوا الاهانة التى لحقت بعرفجة النزيه الصادق من محمد بن الحنفية حين جاءه مستأذنا فى الدعوة الى بيعته وخلع طاعة أمير المؤمنين عبـد الملك بن مروان ! »

ولم يتم حسن كلامه حتى ضج من فى الفسطاط ، ومال الحجاج الى تصديق حسن ، وكان الحجاج مع تقريبه عرفجة لايجهل خبثه ونفاقه ، ولكنه انما قربه لأنه يحتاج الى أمثاله فى بعض أغراضه . فلمـا رجح ثبوت هذه التهمة عليه صمم على قتله ، ولكنه أجل ذلك ليرى مايكون»

أما عرفجة فلما غلبته الحجة عمد الى المواربة فقال وهو يظهر التعقل والهدوء : « يلوح لى أن مولاى الامير سكت عما سمعه من هذا الرجل كأنه مال الى تصديقه »

فقال الحجاج : « وهل تحسبه اختلق ذلك كله اختلاقا ؟ »

قال : « نعم يامولاى »

فقـال الحجاج : « لايعقل انه يفعل ذلك ، ولاسيما انه يستشـهد اناسا معروفين . ثم ما الذى يدعوه الى هذا الاختلاق ؟ »

فقال : « يدعوه الى ذلك أمر أفظع من خيانته ، ولو أنى ذكرته لك ما ترددت فى صلبه ! »

فقال : « وما ذلك ؟ »

قال : « انى لأضن بعرض الامير أن يذكر فى مثل هـذا المقام ، فاذا أذن مولاى فى خلوة ذكرت له السبب ، وأنا ضامن أنه يقتنع ببراءتى »

فقطب الحجاج حاجبيه وأشار بيده فخرج كل من فى الفسطاط من الامراء والحراس وبينهم حسن ، وقد سر لمـا رآه فى وجوه الامراء من دلائل نقمتهم على عرفجة لفظاظته وسـوء سريرته . وان أظهروا له غير ذلك خوفا من الحجاج . وفاتهم أن الحجاج نفسه لم يكن يثق به

فلما خلا عرفجة الى الحجاج أخذ يقص عليه حديث حسن مع سمية

ثم قال: « وقد كنت أعدها لخدمة مولاى بعد أن طلبها منذ أعوام. فجاء هذا الشاب وخدعها بحبه، وهى فتاة لاتدرك أمور الدنيا، فانخدعت بظاهره، وكادت توافقه على أن تفر معه لو لم أطلع على فعلته، فسعيت فى قتله بمساعدة طارق بن عمرو عامل المدينة. وهذا طارق بين يدى مولاى ينبئك بصدق قولى. ولكن الرجل الذى أنفذناه لقتله لم يظفر به، فنجا ثم جاء متنكرا الى معسكر الامير بعد أن علم بزفافها اليه ليحاول أن يخدعها مرة ثانية، ولكنى رأيته ساعة مجيئه مع ليلى بالامس، وبعثت من يأتون به، فعلمت انه سار الى جهة أخبية النساء، وقدشق على أن أصرح بذلك لمولاى الامير لئلا أكدره، فاكتفيت بأن ذكرت انه جاسوس، لعلمى بأنه صاحب الكتاب الذى جاءنا به الفتى الثقفى منذ حين وظنناه قتله. ثم علمت بأنه فر الى الخربة المجاورة فأرسلنا الفرسان للقبض عليه. ويؤيد صدق قولى، انك لما سألته عن سبب مجيئه الى هنا لم يستطع جوابا »

فرأى الحجاج كلام عرفجة معقولا، ولكنه رأى التهمة الموجهة اليه معقولة أيضا فلم ير خيرا من التريث حتى ينجلى له وجه الصواب. فأمر بسجن حسن، وتظاهر بأنه اقتنع ببراءة عرفجة

سيق حسن الى خيمة أفردوها له فى طرف المعسكر، ووقف ببابها حارسان مسلحان. فلما تركوه فيها بعد أن شدوا وثاقه أيقن باستحالة النجاة، وجعل يفكر فيما مر به وما كان من أمر عرفجة معه، فرأى ان الحجاج لم يقتنع كل الاقتناع بخيانة عرفجة، وأدرك ان هذا يستعديه عليه من طريق اثارة غيرته، والغيرة تعمى وتصم

وقضى حسن فى ذلك بقية يومه، وجاءوه بالطعام فلم يتناول منه شيئا، ثم قضى ليلته ساهرا وخيال سمية أمام عينيه، وفكره يبحث عبثا عن وسيلة الى النجاة بنفسه وسمية

وفيما هو متوسد على حصير من سعف النخل وقد أثقلته الأغلال، سمع وقع أقدام خفيفة فى الخيمة، ثم صوتا يهمس فى اذنه قائلا: « لا تخف يا مولاى انى خادمك عبد الله »

وحاول أن ينهض فأعانه على ذلك عبد الله ثم قال له: « لقد احتلت حتى جعلونى أحد الحارسين المنوط بهما تناوب مراقبتك، وأنا الآن فى نوبة السهر على حراستك. وقد نام رفيقى فدخلت لأسألك عما تريد »

فقال حسن: « لا أريد شيئا ولا رغبة لى فى النجاة، الا اذا نجت سمية معى »

فقال عبد الله: « وما حيلة الحر الأعزل يا مولاى اذا وقع بين أيدى

من لا يتورعون عن قتله ظلما وعدوانا ، مستعينين بكثرة عددهم وعهدتهم ؟ أيسلم نفسه لهم طوعا ، أم يحاول الخلاص من أيديهم بأى وسيلة ؟ »

قال : « أتريد أن أفر من المعسكر وحدى وأترك سمية فى بيت الحجاج ؟ وهل تحسب ان حياتى بعيدا من سمية مما أحرص عليه ؟ »

فقال عبد الله : « لا يامولاى ، لست أعنى أن تخرج وحدك ، وانما أعنى البحث عن وسيلة تخرج بها أنت وسمية معا . ولا عار فى الفرار من وحش كاسر لا يعرف الحق ولا يراعى العدل »

فسكت حسن ، واستأنف عبد الله الكلام فقال : « سأذهب غدا الى خباء النساء لاستطلاع الامر ، ثم أعود اليك بما يستقر عليه الرأى . فدع القنوط وكل واشرب حتى يأتى الله بالفرج » . ثم ودعه وخرج

وشعر حسن بالارتياح وأعجب بغيرة عبد الله وصدق مودته ، ثم مكث فى اليوم التالى ينتظر رجوعه

وكانت سمية قد واعدت عبد الله على الخروج معه فى مساء الأمس ، ثم سمعت خبر القبض على حسن والرجوع به الى المعسكر ؛ وسجنه ، وما لبثت أن رأت الجند قد أحدقوا بخبائها ومعهم السلاح ، فأيقنت أن الحجاج اطلع على سر قدوم حسن الى معسكره فتحققت وقوعها فى الخطر ، ودعت اليها أمة الله جاريتها ، وكانت هى التى أخبرتها بسجن حسن ، فجاءت وهى تظهر عدم المبالاة ، فقالت لها سمية : « هل رأيت الجند المحدقين بنا احداقهم بالقتلة المجرمين ؟ »

قالت : « رأيتهم . ولكن ما لنا ولهم ؟ »

فقالت سمية : « أتتجاهلين يا أمة الله ؟ الا ترين أنهم سجنونى كما سجنوه ؟ وهل تشكين فى أن ذلك العاتى قد اطلع على ما بينى وبين حسن فلم يبق الا أن يفتك بنا ؟ ! »

قالت : « لا أظنه يفتك بك »

فقطعت كلامها وقالت « تظنينه سيستبقينى لمأربه الدنىء ! . ولكن ما أنا مبقية على نفسى . أين السم الذى حفظته لى ؟ . لقد آن وقته ! » . وكانت أمة الله قد أخذته لتحفظه عندها

قالت : « لاأظن وقته أزف يامولاتى ، وحسن لايزال على قيد الحياة ، ومن يدرى ما يأتى به الغد ؟ »

قالت : « أتتوقعين لحسن البقاء وقد وقع فى قبضة هذا الظالم الذى لايرى فيه الا مناظره على عروسه ؟ . آه يا أمة الله ! يا ليتنى ظللت على يأسى الماضى ولم أعلم ببقاء حسن حيا ! ان هذا لن يعفيه من

القتل . فكيف أبغى الحياة فى بيت رجل قتل حبيبى ؟ »

فقطعت أمة الله كلامها وقالت : « انه لم يقتله بعد يا مولاتى. وعسى الله أن ينقذه من بين يديه فان الله قادر على كل شيء »

قالت : « نعم ان الله قادر على كل شيء ، ولكن أليس حسن فى حكم المقتول الآن ؟ » . قالت ذلك وخنقتها العبرات

فاحتارت أمة الله ، ولم تدر بم تعزيها عن توقع قتل حبيبها ، ولم تستطع لومها على تفكيرها فى الانتحار حتى لا تبقى فى بيت قاتل حبيبها ، فظلت ساكتة ، واستأنفت سمية الكلام فقالت : « أين السم ؟ أعطينى اياه »

فتغير وجه أمة الله وتناثرت الدموع من عينيها وقالت : « دعى السم الآن فان وقته لم يأت بعد »

قالت : « أعطينى اياه ، وأعاهدك على أنى لا أتناوله الا بعد أن أقطع الأمل من بقاء حسن » . ثم أطلقت لنفسها عنان البكاء ، فبكت أمة الله معها ، ولكنها أشفقت عليها من الاسترسال فى الحزن على هذه الصورة فكظمت ما فى نفسها وقالت : « أتعدينني انك لا تتناولين السم الا بعد وقوع الخطر حقيقة ؟ » . فلما عاهدتها على ذلك خرجت ثم عادت وناولتها ورقة فيها المسحوق السام . فتناولته منها وقبلته وهى تقول : « أنت هو منقذى من أحزانى ومتاعبى . أنت وحدك معينى على قهر ذلك العاتى ، وانقاذى منه »

وكان الحجاج قد أمر باخراج النساء من الخباء الا سمية وخادمتها وأمر الحراس أن يحدقوا به وهم فى غفلة عن سبب ذلك ، فكانت سمية تصيخ بسمعها من جدران الخباء لما يتحدث الحراس به . وسمعهم يتحدثون بما أظهره حسن من الشهامة وعزة النفس وما ظهر فى كلام عرفجة من التلاعب والغدر . وكانت كلما سمعت ذلك منهم رقص قلبها فرحا ولكنها لا تلبث أن تعود الى هواجسها

أما عبد الله فلما جاء الى سمية ليخاطبها فى أمر الفرار رأى الحرس محدقا بخبائها فعاد ولم يرها ، وأخبر حسنا بما كان فازداد الامر تعقيدا عنده ففزع بآماله الى الصبر والتسليم للأقدار

□

قضى حسن أياما على هذه الحال ، ثم حدث أن رأى نفسه فيما يرى النائم وكأنه يقول لبلال خادمه الذى تركه فى مكة : « اذا استبطأتنى فاطلبنى فى معسكر الحجاج » . فلاح لحسن أن يكون بلال جاء المعسكر

ولم يعلم بمكانه . فلما دخل عبد الله عليه ذكر له هذا الامر ووصف له بلالا وقيافته فقال عبد الله : « رأيت فى هذا المعسكر عبدا أظنه هو الذى تعنيه ويظهر انه يفتش عن ضائع ولم ينتبه له أحد لأن الحجاج وحاشيته وسائر الامراء يتأهبون للهجوم على ابن الزبير مرة واحدة ولولا ذلك لكشف عرفجة أمره واتهمه بالجاسوسية »

فقال حسن : « يهمنى أمر هذا العبد ، فاستقدمه الى على عجل »
فخرج عبد الله فرأى بلالا فاغتنم اشتغال الناس بالتأهب وجاء به الى السجن متظاهرا بأنه يحمل له طعاما ، فقال بلال لحسن : « لقد بحثت عنك حتى يئست من لقائك وكدت أرجع خائبا . فالحمدلله على انى رأيتك ولو فى السجن ... »

فقال حسن : « وماذا وراءك ؟ »

قال : « جئت اليك فى مهمة مستعجلة وأخشى أن يكون قد فات أوانها »

قال : « وما هى ؟ »

قال : « استدعانى ابن صفوان الى منزل عبد الله بن الزبير فى مكة وسألنى عنك ، فلما أجبته بأنك لم تعد بعد قال : (ان أمير المؤمنين عبد الله ابن الزبير يحب أن يراك لأمر ذى بال خاطبه فى شأنه منذ بضعة وعشرين يوما ، وهو يريد الآن أن يعهد اليه فى أمر مهم) . فجئت على عجل وقد قضيت ثلاثة أيام فى البحث عنك حتى جاءنى عبد الله كما رأيت »

فقال حسن : « ابن الزبير يطلب أن يرانى فى مكة ؟ »

فقال : « نعم يا مولاى وقد ألح على كثيرا ، وقال ان الوقت ضيق»

فأطرق حسن وأعمل فكرته فتبين له أن ابن الزبير انما طلبه فى شأن خطبة أخته رملة لخالد بن يزيد ، وتذكر أنه انما جاء الحجاز لأجل هذا الأمر ، ولكنه لم يدر كيف يجيب الدعوة وهو سجين ، فالتفت الى عبد الله وقال : « انك عرضت على منذ أيام أن تخرجنى من هذا المعسكر ، فهل تستطيع هذا اليوم ؟ »

قال : « ذلك سهل على فى اى وقت تشاء ، وانى أفديك بروحى »

فقال : « لا أبغى الفرار وانما أبغى الخروج الليلة لمقابلة ابن الزبير ثم أعود فى الصباح الى محبسى »

فاعجب عبد الله بعزة نفسه وقال له : « افعل ما بدا لك فانى رهن اشارتك »

وكانت الشمس قد مالت الى المغيب فقال عبد الله : « تمهل قليلا حتى يجىء الليل فأعطيك ثوبى فتلبسه وتخرج به وألبس أنا ثوبك

واحل محلك هنا ريثما تعود ، وسوف لا يشك من يراك انك من حراس الحجاج ، فتظاهر بأنك ذاهب فى مهمة الى ابن الزبير ، واذا رأيت أن تبقى هناك على أن ألحق بك ، فافعل »

فأعجب حسن بمروءة عبد الله وتضحيته فى سبيل نجاته ، فقال : « بورك فيك من صديق صادق ، أخاف أن أصاب بسوء فلا أعود فتقع أنت تحت طائلة العقاب »

قال : « اذا أصابك سوء ، فلن يبقى لى مأرب فى الحياة . على ان القوم يعتزمون الهجوم غدا على ابن الزبير ، فما أظنهم ينتبهون لخروجك ، ولن أجد مشقة فى اطلاق نفسى من السجن »

فقطع حسن كلامه وقال : « أما رجوعى فلا بد منه لأنى لا أستطيع أن أترك سمية » . قال ذلك وصمت بغتة كأن فكرا جديدا طرق ذهنه ثم قال : « ولا بد لى من الانتقام من أبيها الخائن » . ثم التفت الى بلال وقال له : « أتذكر ما رأيناه خلسة من خيمة صاحبك سعيد فى فسطاط محمد بن الحنفية ؟ »

قال : « أتعنى حكاية عرفجة والكرسى ؟ »

قال : « اياها أعنى ، فهل تستطيع الحصول على كتاب من محمد بن الحنفية الى الحجاج يشهد فيه بأن عرفجة جاء بذلك الكرسى وعرض عليه أن يدعو الى بيعته أهل العراق ليخلعوا بيعة عبد الملك بن مروان ؟ »

قال بلال : « ذلك شىء يسير ، فانى صديق قديم لسعيد ، ولهذا دالة عليه »

فقال حسن : « اذن اذهب الآن الى شعب على ، واسلك أقرب الطرق اليه ، فاذا حصلت على الكتاب فعجل بالعودة به الى هنا ، حيث أكون قد عدت بعد مقابلة ابن الزبير »

فخرج بلال وسار فى مهمته . وخرج عبد الله الى المعسكر فوجد القوم يتأهبون للقتال فى صباح الغد ، ورأى زميله واقفا بباب الخيمة ينظر اليهم متحسرا على حرمانه من الذهاب معهم ليصيب بعض الغنيمة . فقال له : « اذا شئت اللحاق بالجند فافعل وانا أبقى هنا لحراسة السجين » . فسر الرجل وشكره وانصرف

ولما غابت الشمس دخل عبد الله على حسن فألبسه ثيابه وسلمه الحربة ، ثم لبس هو ثياب حسن وجلس مكانه . فخرج حسن قاصدا الى مكة ، ولم يشك فيه أحد لظنهم أنه من الحراس ولانشغالهم بالتأهب للهجوم على مكة

أم ابن الزبير

دخل حسن مكة دون أن يعترضه أحد ، ولاحظ أن اسواقها خالية من الناس ، غير أنه ماكاد يشرف على المسجد حتى وجد النـاس قد ازدحموا فيه وفيما جاوره من المنـازل ، فعلم انهم يتوقعون شرا ولم يفتهم مانواه الحجاج. فسارتوا الى منزل عبد الله بن الزبير فرأى الناس يتدافعون عند بابه ، وسأل عن ابن صـفوان فعلم انه فى خلوة مع ابن الزبير ، فوقف مع الواقفين حتى مضى معظم الليل ، فمل الانتظار وشق طريقه بين الناس ملتمسا الحجرة التى فيها عبد الله ، فلما بلغها سـأله الخدم عما يريد ، فذكر انه يريد مقـابلة أمير المؤمنـين لأمر ذى بال ، فأبلغوا أمره الى ابن صفوان ، فخرج اليه وما كاد يراه حتى رحب به ، فسأله حسن : « أين أمير المؤمنين ؟ »

قال : « تركته يصلى الفجر »

قال : « لقد جئت لمقابلته اجابة لطلبه »

فقال : « نعم لقد طلب أن يراك لأمر يريد أن يسره اليك . وسوف أدخلك عليـه » . قال ذلك وعاد الى الحجرة ومكث حسن فى انتظـار عودته فى فناء البيت وهو يتوقع أن يطول غيابه لعلمه بطول صلاة ابن الزبير مذ رآه يصلى فى المسجد من عهد قريب

على ان انتظاره لم يطل ، وسرعان ماعاد ابن صفوان وأشـار اليه أن يتبعه ، فمضى وراءه حتى دخل الحجرة فوجد عبد الله واقفا وسـطها وقد تقلد الحسام ولبس الدرع تحت جبـة خز ، وتحتها سراويل ومنطقة ، وقد فاحت منه رائحة المسك . فهم حسن بتقبيل يده ، فلم يمكنه من ذلك ورحب به ، ثم أشـار الى ابن صفوان فخرج ، واقفل عبد الله الباب بنفسه ، فاستغرب حسن ذلك ولبث واقفا ينتظر مايبدو منه ، فرآه يتجه الى وسادة على طنفسة هناك فجلس وقد وضع سيفه مستعرضا على ركبتيه وأسند ذراعيه عليهما فوقه ، وأشار اليـه أن يجلس بجانبه ، فجلس صامتا

وظل عبـد الله مطرقا وهو يلاعب لحيتـه بين أنامله ، ثم التفت الى حسن وقال له : « ما أظنك حصلت على كتاب من خالد »

قال : « ان الرسول لم يعد بعد »

قال : « وما أظنني أراه ولو عاد من الغد »

فقال حسن دون أن يدرك قصده : « كيف لا وهو رهن اشارة أمير المؤمنين ؟ »

قال : « على أى حال ، لقد أيقنت بصدق رغبة خالد فى الزواج من أختي، وانه فيما علمت لأفضل القوم ، فاذا لقيته فأوصه عنى بها خيرا ، واذكر له ان مصاهرته لآل الزبير جاءت متأخرة ، ولو انه عجل بها بضعة أعوام لما استطاع بنو مروان الاستبداد بالامر ، بما لاينطبق على كتاب الله ولا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم » . قال هذا وقد ظهر التأثر فى عينيه وخشن صوته ، ثم واصل كلامه قائلا : « ليت شعرى كيف يسود العتاة الظلمة ؟ وكيف يتغلب قوادهم المنافقون الذين يرمون بيت الله بالحجارة على رجال يعبدون الله ويعملون بكتابه ؟ »

فأدرك حسن انه يئس من الفوز ، وأراد أن يستطلع ما اعتزمه فقال : « لايخفى على مولاى أن النصر من عند الله يؤتيه من يشاء ، ولا عجب فى أن تكون الغلبة فى الدنيا لمن همهم الدنيا ، فقد كانت الغلبة لمعاوية على الامام على صهر الرسول وابن عمه ، وقد فتك ابن زياد بالحسين وآل بيته . ذلك لأن الدنيا شىء والآخرة شىء آخر ، وقد انقضى العصر الذى ساد فيه الحق والدين والتقوى ، وأصبح الحكم الآن لايتولاه غير أهل الدهاء والسياسة و . . » . ولما بلغ الى هنا بلغ ريقه وبدا فى وجهه انه أراد التصريح بشىء ثم توقف خوفا أو حياء . فنظر عبد الله اليه نظرة من يتوقع اتمام الكلام ، فأتم حسن كلامه قائلا : « ولا أخفى على مولاى أن آل مروان ، وآل أبى سفيان قبلهم ، لم يخلص لهم الملك دون بنى هاشم وغيرهم الا بالدهاء والسياسة وبذلهم المال لدعاتهم وأنصارهم » . فلما ذكر المال ، بدا الانقباض فى وجه عبد الله وقال : « لاتذكرنى بالمال وأمره فقد كنت شحيحا به لأنه مال بيت الله ، ولعلى لو بذلته للأحزاب لم يستطع ابن مروان الاستبداد بالامر دونى . ولكنى لا ألتمس الدنيا بالباطل ولا ابتياع الانصار بالمال »

فقال حسن : « لو أن مولاى أصغى لمشورة الحصين بن نمير يوم وفاة يزيد لما صار الامر الى بنى مروان . . »

فقطع عبد الله كلامه وقال : « سمعتك تذكر هذا الامر قبل اليوم ، ولقد سمعته كذلك من كثيرين ، على انى لو أطعت الحصين ورافقته الى دمشق لما بايعنى بنو أمية . فهؤلاء شق عليهم أن يبايعونا فى ديارنا وبين أهلنا . فكيف لايكون ذلك أشق عليهم فى ديارهم وبين أحزابهم . ومع ذلك فقد قضى الامر . وما بعثت اليك الا لأوصيك بأختى خيرا ، فأوص بها خالدا ، وأبلغه عنى أنى أوصيه كذلك بأن يدع أمر الخلافة فانها شاقة على أهل الدين فى هذا الزمان ، وليشتغل بما

هو مشتغل به من العلم والكيمياء فذلك خير له واجدى عليه . ولا أخفى عليك انى قطعت الامل فى الفوز بعد أن نبذنى الاهل والاصدقاء خوفا من الموت ، ولو انى طلبت الدنيا لما امتنع على الحصول عليها . ولكننى أطلب الآخرة ، وقد دعوت الناس الى الحق فلم يصغوا ، فلم يبق الا أن أتركهم وشأنهم . وقد أنبأنى الجواسيس بأن الحجاج وقومه عزموا على مهاجمتنا فى الغد ، ويفعل الله ما يشاء » . قال ذلك وغص بريقه فتشاغل باصلاح غمد حسامه ، ثم وقف وقال : « تعال معى الى أمى لأخبرها بما استقر عليه الرأى فى شأن رملة »

فوقف حسن ومشى فى أثره وقد لاح ضوء الفجر ، فدخلا حجرة رأى حسن فى صدرها امرأة عجوزا عرف أنها أسماء ذات النطاقين أم عبد الله ، وهى بنت أبى بكر الصديق ، وأخت عائشة زوج النبى . وكانت قد كف بصرها وبدا الهرم فى وجهها ، فحياها عبد الله وقبل بيدها ، فقبلته وتنهدت ثم قالت : « ما وراءك يابنى ؟ مالى أشم منك رائحة الحنوط ؟ »

قال : « انى أتحنط كل يوم استعدادا للموت ، وأما الآن فقد جئتك بحسن الذى ذكرت لك قدومه من عند خالد بن يزيد لخطبة أختى رملة وقد أخبرته بقبول الخطبة فان خالدا لأهل لذلك »

فرفعت رأسها وهى تجيل عينيها المطبقتين كأنها تحاول أن تنظر الى ابنها ، ونظر حسن الى وجهها وقد تغطى جانباه بالنقاب فرأى دمعتين تقطرتا من جانبى أنفها بغير أن يبدو للبكاء أثر فى وجهها . فلم يستغرب صبرها وتجلدها لما سمعه من ثبات جأشها وقوة قلبها . ثم قالت : « لقد صنعت خيرا يابنى » . وسكتت وكأن فى نفسها شيئا تكتمه ثم قالت : « فى أى ساعة نحن من الليل الآن ؟ »

قال عبد الله : « نحن فى الصباح » . وما أتم كلامه حتى سمع فى الخارج دوى شديد أعقبته صيحات الاستنكار من الواقفين بالباب الخارجى للمسجد ، فأدرك حسن ان الهجوم قد بدأ ، وان ما سمعوه هو صوت وقوع حجارة المنجنيقات على الكعبة . ونظر الى عبد الله فاذا هو قد تغيرت سحنته وبان القنوط فى وجهه ثم التفت الى أمه وقال : « لقد بدأ أعداؤنا هجومهم الاخير يا أماه ، وقد آليت الا أفعل أمرا الا استشرتك ، فبماذا تشيرين ؟ »

فنظر حسن الى أسماء وتفرس فى وجهها فاذا هى تزيح النقاب عن وجهها ، ثم قالت وشفتاها ترتجفان من الشيخوخة لامن الخوف : « أنت أعلم بنفسك يابنى ، فان كنت تعلم انك على حق واليه تدعو فامض له ، فقد قتل عليه أصحابك . ولا تمكن من رقبتك غلمان بنى امية . وان كنت انما أردت الدنيا فبئس العبد انت ، أهلكت نفسك

ومن قتل معك . وان قلت : (كنت على حق فلما وهن أصحابى ضعفت) . فهذا ليس فعل الاحرار ولا أهل الدين ! »

فقال عبد الله : « انما أخاف أن قتلنى أهل الشام أن يمثلوا بى »

فقالت : « يابنى ان الشاة لا تتألم بالسلخ ، فامض واستعن بالله »

فقبل عبد الله رأسها وقال : « هذا رأيى الذى أصر عليه حتى اليوم ، ووالله يا أماه ماركنت الى الدنيا ولا أحببت الحياة فيها . وما دعانى الى ذلك الامر الا غضبتى للحق ولقد زدتنى برأيك هدى وبصيرة » . ثم سكت قليلا ، وقال : « اسمعى يا أماه ، انى أشعر بأنى مقتول فى يومى هذا ، فلا يشتد حزنك ، وسلمى الامر لله ، فان ابنك لم يتعمد ايثار منكر ، ولا عمل بفاحشة ، ولم يجر فى حكم الله ولم يغدر فى أمان ولم يتعمد ظلم مسلم أو معاهد . ولم يبلغنى ظلم عن عمالى فرضيت به بل أنكرته . ولم يكن شىء آثر عندى من رضا ربى »

فقالت وقد بان الجد فى جبينها : « أرجو أن يكون عزائى فيك جميلا . ان تقدمتنى احتسبتك ، وان ظفرت سررت بظفرك . فامض لشأنك ، والله معك ، ولئن قتلت ففى سبيل الله »

ثم اتجه عبد الله الى حجرة أخرى ليودع أخته ، وظل حسن واقفا فى انتظار عودته ، فسمع أسماء تتأوه وقد رفعت وجهها وقالت :

« اللهم ارحم طول ذلك القيام فى الليل الطويل ، وذلك النحيب والظمأ فى هواجر مكة والمدينة ، وبره بأبيه وبى . اللهم قد سلمته لأمرك فيه ، ورضيت بما قضيت ، فأثبنى فيه ثواب الصابرين الشاكرين » . فاستغرب حسن صبرها وقوة ايمانها . ثم عاد عبد الله اليها وهم بتقبيل يدها ، فأمسكت بيده وضمته الى صدرها قائلة : « هذا وداع فلا تبعد »

فقال : « انما جئت مودعا فكأنى بهذا اليوم آخر أيامى من الدنيا »

فخفق قلب حسن تأثرا ، وترقرق الدمع فى عينيه ، ونظر الى أسماء فاذا هى لم يبد فى وجهها مايدل على التأثر ، فعلم أن ثباتها فوق ماكان يسمعه عنها ، ثم ما لبث أن سمعها تقول لعبد الله : « امض على بصيرتك وادن منى حتى أودعك » . فدنا منها وعانقها فعانقته وأحاطت يديها بخصره وقبلته فوقعت يدها على الدرع فنفرت وقالت : « ماهذا صنيع من يريد ماتريد ! » . فقال عبد الله وقد بدا الخجل فى وجهه : « ما لبسته الا لأشد به متنى » . فقالت : « انه لايشد متنا . البس ثيابك مشمرة » . فمد عبد الله يده الى الدرع ونزعها ، ودرج كميه ، وشد أسفل قميصه وجبته تحت ثنيات سراويله وأدخل أسفلها تحت المنطقة . ثم خرج »

مقتل بن الزبير

خرج حسن فى أثر عبد الله بن الزبير وقد عزم على البقاء معه حتى النهاية . وشعر عبد الله بذلك ، فالتفت اليه وقال : « ناشدتك الله ألا تعرض نفسك للقتل » .

وكان حسن على يقين من فوز جند بنى أمية ، لكثرتهم واتحادهم ، ولكنه ظل سائرا فى أثره حتى خرجا من المنزل ، فلما وقع نظر عبد الله على المنتظرين هناك وقد تهيأوا للقتال وغطت الدروع أبدانهم ، قال لهم : « اكشفوا وجوهكم حتى أنظر اليكم » . ولما كشفوها علم أنهم بقية أهله فقال : « يا آل الزبير لو طبتم بى نفسا عن أنفسكم كنا أهل بيت من العرب اصطلحنا فى الله . فلا يفزعكم وقع السيوف فان ألم الدواء للجراح أشد من ألم وقعها . صونوا سيوفكم كما تصونوا وجوهكم ، غضوا أبصاركم عن البارقة ، وليشغل كل امرىء قرنه ، ولا تسألوا عنى فمن كان سائلا عنى فانى فى الرعيل الاول . احملوا على بركة الله »

وبقى حسن حائرا لا يستطيع الاشتراك فى القتال ، نزولا على رغبة ابن الزبير . وحتى لا يراه الحجاج أو بعض رجاله فيثبت لديهم ما اتهمه به عرفجة . فآثر الالتجاء الى المسجد حتى تنتهى المعركة . فلما مضى عبد الله ومن معه الى القتال التفت فرأى أعلام بنى أمية قد ملأت الطرقات ، فسارع الى المسجد الحرام ، ولكنه لم يستطع الدخول، لأن الحجاج كان قد أوقف ببابه أناسا ليمنعوا الناس من دخوله ، فدخل منزلا الى جوار المسجد وأطل من كوة فيه فرأى ابن الزبير يناضل مناضلة الاسود ، ويتنقل فى المعمعة من جهة الى أخرى ، وبجانبه ابن صفوان يدافع عنه ، ثم سمع عبد الله يقول : « ويلمه فتحا لو كان له رجال » . فقال له ابن صفوان : « أى والله وألف » . فحدثت حسن نفسه بأن يمضى اليهما ويقاتل معهما ، ثم لاحت منه التفاتة فرأى الحجاج قد ترجل وأقبل يسوق الناس الى مقاتلة ابن الزبير بعد أن رآهم لا يقوون على الوقوف بين يديه ، وكان حامل علم ابن الزبير يقف بباب شيبة من أبواب المسجد ، فهجم الحجاج عليه بمن معه ، فرآهم ابن الزبير فسارع الى صدهم عنه ، واستمر القتال على أشده بباب

المسجد ، ثم دخله الفريقان ، ولم يمض قليل حتى استطاع الحجاج ورجاله قتل صاحب العلم وأخذوه منه ، فتفرق رجال ابن الزبير من حوله ، ولكنه ظل يقاتل حتى قتل هو وابن صفوان ، ثم رأى حسن رجلا أسرع الى جثة عبد الله وحز رأسه وحمله الى الحجاج ، فلما رأى الحجاج الرأس سجد وأكرم صاحب البشارة . ثم أمر بأن يحمل رأسا ابن الزبير وابن صفوان الى المدينة ، وبأن تصلب جثة ابن الزبير فى الحجون — وقدصلبوها أياما — وهكذا أيقن حسن بانتصار الحجاج، وتذكر ان سمية عنده فى المعسكر ، فرأى أن يسارع اليها فيه ، فاما نجا بها ، واما عاد الى محبسه ، وسرعان ما تسلل الى المعسكر ، وهو يحاذر ان يراه أحد ممن يعرفونه فيحبط مسعاه ، وقال فى نفسه : « لقد خلا الجو لعبد الملك بن مروان وأصبحت الخلافة لاينازعه فيها منازع » .

وكان حسن كلما دنا من معسكر الحجاج تمثلت له النجاة بسمية هينة فمشى وهو لايزال بلباس الحرس والحربة بيمينه فلا يشك الذى يراه عن بعد انه من حرس الحجاج فلما دخل المعسكر لم ير فيه الا نفرا قليلا من الحامية . فالتمس خباء النساء وقلبه يخفق لما يتنازعه من عوامل الرجاء والخوف والحياء والشوق . فبينما هو يرجو السعادة بالفرار بسمية كان يعد الفرار عارا ، ولكنه هونه على نفسه لأنه لايرى غير الفرار سبيلا الى نجاته والا فانه سيكون سببا لتعاسة سمية أو قتلها . فمشى فى طريقه الى المعسكر ، وهو فى ملابس الحراس التى أخذها من خادمه ، فلما بلغه رأى أن يذهب أولا الى خيمة السجن ليرى ماتم فى أمر خادمه الامين وليستعين به على انقاذ سمية ، فلما بلغ الخيمة رآها خالية ، فوقف برهة يفكر فى الامر ، ثم رأى أن يعجل بالذهاب الى سمية فى الخباء لئلا تفوت الفرصة . وفيما هو سائر وقد أوشك أن يبلغ الخباء سمع صوت أبواق ، فالتفت فرأى جماعة من الفرسان عائدين من مكة ، فأسرع فى مشيته ليبتعد عنهم . وكانت الشمس قدمالت الى الغروب فلما أطل على الخباء لم ير حوله أحدا ، وخشى أن تحول بغتة سمية دون ما يبغيه من سرعة الخروج بها ، لأنها لم تره منذ خروجه من المدينة ، فتمهل فى سيره ، وأخذ يبحث لمعرفة مدخل الخباء ومخرجه ، وهل سمية وحدها ، أم عندها أحد من النساء أو الخدم أو غيرهم

وفيما هو يدور حول الخباء سمع خفق نعال فيه ، فأصاخ بسمعه فرأى شبحا خارجا ، وما تفرس فيه حتى أدرك انه أمة الله جارية سمية ، ولم يكن قد رآها من قبل ولكنه سمع بأوصافها . أما هى فكانت قد رأته فى دار عرفجة بالمدينة ، فلما رأته والحربة فى يمينه وعليه ثياب حراس الحجاج ، استعاذت بالله ، ثم ما لبثت أن تفرست فيه فعرفته وقالت : « حسن ؟ »

قال : « نعم . أين مولاتك ؟ »

قالت : « هنا » . وأشارت الى الخباء الذى خرجت منه

قال : « وكيف حالهـا ؟ » . قالت : « انها فى حال تدعو الى الرثاء حزنا عليك ، وخوفا من ذلك الظالم ولاسـيما بعد أن فرغ من الحرب ، وقتل ابن الزبير ، فتحلل بذلك من قسمه »

فاضطرب حسن وهم بالدخول الى الخبـاء ولـكنه خشى أن تسىء البغتة الى سمية فقال لأمة الله : « ادخلى وأنبئيها بقدومى لنخرج معا من هنا الآن »

فدخلت أمة الله ، ولم يصبر حسن الا قليلا ثم دخل فى أثرها فوجد سمية جالسـة وهى تفرك عينيهـا بأناملها وتنظر الى أمة الله وتقول : « أصحيح ماتقولين ؟ حسن هنا ؟ ! حسن جاء ؟ ! . لا . . لا . . انك تمزحين ، أو أنا فى حلم ! »

ولاحظ انها قد تغيرت وامتقع لونها لفرط ماقاسته ، فازداد خفقان قلبه ، وأجابها بدلا من أمة الله فقـال : « بل أنت فى يقظة ياحبيبتى . وها أنذا جئت لانقاذك ، هلم بنا نخرج الآن من هـذا المعسكر . هيـا ياسمية فان الوقت ضيق والخطر قريب »

فوقفت وركبتـاها تصطـكان ، ولبست نعالهـا والتفت بعباءتها ، وقالت وهى ما زالت مذهولة : « ما أحسن هذا اللقاء ، هلم بنا »

وكانت أمة الله مشتغلة بأخذ بعض الطعام للتزود به خلال الرحيل ، ولكنها كانت أكثر منهما انتباها لما حولها . فسمعت وقع حوافر خيل قادمة من بعيـد فأسرعت اليهما وهى تقول : « لقد جاء الفرسـان . واظنهم الحراس الذين كانوا حول الخباء بالامس »

فلما سمعت سمية ذلك التفتت الى حسن وقالت وصوتها يرتجف : « حسن . حسن . لاتخرج فانهم اذا رأوك خارجا اشـتدت شبهتهم فيك . . لاتخرج . واذا كانوا قد جاءوا للقبض عليك فلنمت معا »

فثارت الحمية فى رأس حسن ، وهان عليه لقاء الالوف تفانيا فى الدفاع عنها فقال : « لاعاش من يمسك بسوء وأنا حى »

وشعروا باقتراب الخيل من الخباء ، وكان الليل قد سدل نقابه وبدأ الظلام يتكاثف فأمسكت سمية بيد حسن ، وقالت وهى ترتعد : « اما أن نعيش معا ، واما أن نموت معا » . ولاتسل عن خفقان قلبيهما تأثرا للقاء الفجائى وما صحبه من بواعث الاضطراب لقدوم أولئك الفرسان ، فبقيا واقفين صامتين ، وقد امتقع لونهما وتصبب العرق من وجهيهما وارتعدت فرائصهما ، ومع ذلك كان حسن يشعر بأنه أشد بطشا من

الأسد ، وبأنه قدير على انقاذ سمية من جيش بأكمله . وكذلك كانت سمية قد أنساها اللقاء كل خوف على نفسها ، وأصبح كل همها ألا يصاب حسن بسوء ، فأمسكت به وهي لا تدرى أتحرضه على الفرار بنفسه ولا صبر لها على فراقه بعد هذا اللقاء ، أم تفر هي معه وفى فرارها خطر عليه ، أم تستبقيه فى الخباء معها وفى بقائه تهمة كبرى ؟

مرت كل هذه الهواجس بهما فى لحظة انتظارهما وصول الفرسان القادمين ، ومعرفة ما وراءهم ، فلما وصل الفرسان الى الخباء، أحدقوا به من جميع الجهات ولكنهم ظلوا مرابطين خارجه ، كما كانوا بالأمس ، فاطمأن قلب حسن ورجح أن قدومهم ليس لشبهة أو تهمة جديدة . فأخذ يهدىء روع سمية حتى سكن جأشها ، وقضيا ساعة يتبادلان الأحاديث ، وقد نسيا الحجاج وفرسانه ، وحسبا أنهما فى مكان غير ذلك المكان ، بل خيل لهما أن أولئك الفرسان انما هم ملائكة من السماء جاءوا لحراستهما ، فى تلك الساعة التى تزيد قيمتها عندهما على قيمة الحياة كلها

□

وبينما حسن وسمية سابحان فى ملكوت المناجاة ، يتشاكيان ما مر بكل منهما من أحداث الفراق سمعا طنين سهم مرسل فى الفضاء ، ثم سمعا صوت ارتطامه بعمود الخباء من الخارج . وكانت أمة الله مشغولة ببعض الشؤون فى طرف الخباء بالقرب من موقع السهم فلما سمعت صوت وقوعه أطلت من الخباء فلم تر غير الفرسان . ثم رأت السهم يستقر فى العمود ، فخفت الى مكانه وانتزعته فاذا فى موضع الريش منه رق مقوى ، فعادت به مسرعة الى حسن ففتحه فاذا هو كتاب من عبد الله خادمه يقول فيه : « اطلع عرفجة على مقركما فوشى بكما وأرسل الفرسان للقبض عليكما فتجلدا والله مع الصابرين »

فاضطرب حسن وأيقن بوقوعهما فى الخطر ، ولم ير بدا من تهيئة كل أسباب الاطمئنان لسمية ، وكانت قد قرأت الكتاب معه فامتقع لونها وتملكها الجزع فابتدرها قائلا : « لا بد لى من الذهاب الى الحجاج بنفسى ، فانى لا أظنه أرسل فى طلبى الا معتقدا انى فررت من محبسى بالأمس »

فقطعت كلامه قائلة : « أتذهب الى الحجاج وأنت تدرى ما يكون منه ؟. أعوذ بالله من شر هذا الرجل . انه لايعرف غير القتل وسفك الدماء . ولاشك فى ان نقمته عليك قد اشتدت بعد أن علم بأنك عندى هنا .

يا ليتني مت قبل هذا . دعني أذهب بدلا عنك فأذهب فداء لك ، فاني مقتولة على أى حال »

فوضع يده على كتفها وقال : « لا أرى الامر يقتضي كل ذلك ، ولئن قتلت فما كنت أنت سبب قتلي ، وعسى ألا أقتل ، وقد كنت أستطيع الفرار بنفسي من بين أيدى هؤلاء الفرسان ، ولكنني لا أريد النجاة وحدى ، وأخاف اذا خرجت معى أن تقعى بين أيدى أحدهم فتلحقك اهانة ، وهي عندى شر من القتل . أما ذهابى الى الحجاج بنفسى فانه أحفظ لشرفى وشرفك ، وما يأتى به القدر لامناص منه . هذا ابن‌الزبير كان الى صباح هذا اليوم يسمونه أمير المؤمنين فقتلوه وصلبوه وحملوا راسه الى المدينة ، وقد استقبل الموت باسما وأمه تشجعه على استقباله ، فلا توهنى عزيمتى ، ولا تخوفينى لقاء الحجاج . ولكن اذا قدر لى الموت فاذكرى انني ذهبت شهيدا فى سبيل هواك » . قال‌ذلك واختنق صوته ، فتساقطت دموعها على خديها تأثرا ، وكانت مطرقة فرفعت وجهها ومدت يدها الى جيبها وأخرجت لفافة السم وقالت : « ليطمئن قلبك فقد اعددت مايلحقنى بك اذا اصابك سوء . وهب انك نجوت وأراد هذا الظالم أن يتخذنى زوجة له بالفعل ، فان هذا السم كفيل بانقاذى من ذلك »

فأعجب حسن باخلاصها له وأنفتها وقال : « الحق ان مثل عواطفك النبيلة هذه لاتكافأ بأقل من الروح ، ولكن عسى الله أن يأتى بالفرج »

ثم رفع يده عن كتفها وقال : « استودعك الله ياسمية وموعدنا غدا ان شاء الله » . قال ذلك وخرج ولم ينتظر جوابها لئلا تحاول أن تثنيه عن عزمه بدموعها . فلما صار خارج الخباء صاح بأعلى صوته : « أين عريف هذه الكوكبة ؟ »

فتقدم اليه فارس منهم وقال : « وماذا تريد منه ؟ »

قال : « أريد أن يهدينى الى فسطاط الامير لأذهب اليه »

فقال : « لم يأذن لنا الامير فى الرجوع اليه ، وانما أمرنا أن نحرس هذا الخباء حتى يأتى هو ، ولعله آت الساعة »

فأدرك حسن ان ذلك تدبير عرفجة ، وانه أراد أن يرى الحجاج حسنا وسمية معا ليثير غيرته ، فاعتزم أن يحبط محاولته فقال : « ولكننى فى حاجة الى رؤية الامير الساعة »

قال الفارس : « لايمكنك الخروج من هذا المكان »

قال : « لابد من خروجى » . ثم هم بالعدو ليذهب توا الى خيمة الحجاج ويحاول احباط مكيدة عرفجة ، ولكن الفارس حذره قائلا : « خير لك أن تمكث هنا »

فقال : « واذا لم امض »

قال : « اننا مأمورون بابقائك هنا حيا ريثما يجيء الامير »

فأدرك حسن ان الحجاج انما أراد الابقاء عليه ليبحث التهمة التى وجهها الى عرفجة فى شأن الكرسى ، فتجلد وقال : « أقول لكم لابد من ذهابى الساعة الى الامير ، والا خذونى الى السجن أمكث فيه الى الصباح » . قال ذلك ومشي فتجمهروا حوله ليمنعوه ، واذا بفارس مقبل من بعيد ووراءه بضعة فرسان ، فلما رآه حراس الخباء تهامسوا فيما بينهم ثم ترجلوا . ففهم حسن ان الحجاج وحاشيته هم القادمين . فوقف ينتظر مايكون

وكان الحجاج مازال بثيابه التى حارب فيها ابن الزبير وقد غطته الدروع هو وجواده وعليها بقع الدماء . فلما أقبل قال للفرسان : « ماذا تفعلون هنا ؟ »

فقال عريفهم : « نحرس هذا الخباء لنمنع من فيه من الخروج »

قال : « ومن أمركم بذلك ؟ »

قال : « أمرنا به عرفجة باسم مولانا الامير »

فأطرق الحجاج وقد أدرك ان عرفجة لا هم له الا الايقاع بحسن ولم يكن الحجاج يعلم بمجيء هذا الى خباء سمية ولا بما أمر به عرفجة ، وانما جاء الى خباء نسائه لأنه تحلل من قسمه بعد مقتل ابن الزبير ، فلما علم بما أمر به عرفجة ، سأل العريف : « وهل حاول أحد الخروج ؟ » فقال العريف وهو يشير الى حسن : « وجدنا هذا الرجل خارجا ، وطلب الذهاب الى الامير »

ونظر الحجاج الى حسن ، فلما عرفه تحقق صحة ما اتهمه عرفجة به ، وعظم عليه أن يراه خارجا من خباء نسائه . فهم بأن يأمر بقتله ولكنه تذكر التهمة التى وجهها الى عرفجة فرأى أن يصبر عليه الى الغد حتى يثبت التهمة على عرفجة ، ثم يقتلهما معا شر قتلة

وكان الحجاج مع عتوه وظلمه ذا دهاء وحكمة ، فكظم غيظه ريثما يتحقق الامر فقال : « خذوه الى السجن وموعدنا الغد »

فسر حسن لذلك التأجيل ، ومضى مع الحراس وهو يلتفت الى الوراء ليتحقق ابتعاد الحجاج عن خيمة سمية غيرة عليها منه وان كان زوجها

محاكمة حسن وعرفجة

قضى حسن ليلته فى السجن وعليه الحراس . وفى الصباح ساقوه الى فسطاط الامير باكرا وقد أمر الحجاج ألا يحضر المجلس أحد غير عرفجة وحسن . فدخل حسن ووقف وسط الفسطاط ، وظل عرفجة جالسا بجانب الحجاج كأنه من خاصته وكان الحجاج اذا نظر الى حسن كاد يتميز غيظا ولكنه صبر نفسه حتى يثبت التهمة على عرفجة فقال له : « لقد كنت فى السجن من قبل ، فكيف خرجت منه ؟ »

قال حسن : « خرجت منه لأمر اقتضى هذا الخروج ، ثم عدت اليه طائعا ولو أننى أردت الفرار ما رجعت »

فقطع عرفجة كلامه وقال ساخرا : « ذهبت لأمر ضرورى ؟ . أما ذهبت الى عدونا وكنت فى منزله طول ليل أمس ، واذا كنت قد رجعت فذلك لكى تذهب الى الخباء . لا الى الحبس »

فالتفت الحجاج الى عرفجة لفتة ظهر الغضب فيها وأدرك عرفجة منها تغير الحجاج عليه فأراد تخفيف غضبه فقال : « لا أجهل انى جاوزت الحد بتكلمى فى حضرة الامير ، ولكننى لم أستطع الصبر على نفاق هذا الغلام وخداعه ، فهو يوهمنا انه ليس من الاعداء ولا من الجواسيس ، ثم يفر من السجن ليلا ويحمل أخبارنا الى عدونا ، ويرجع بعد ذلك لكى يوهمنا أنه رجع الى السجن بينما الامير قد رأى بنفسه لأى شيء رجع »

فأدرك الحجاج ان عرفجة يعرض بوجود حسن فى الخباء ليثير غضبه عليه فيأمر بقتله توا قبل استكمال التحقيق ، فصبر والتفت الى حسن وقال : « لا يهمنا السبب الذى خرجت لأجله الى ابن الزبير ، فانك متهم عندنا فى أى حال . وسنبحث أمر دخولك خباء نسائنا فيما بعد . أما الآن فانك اتهمت صديقنا عرفجة بالامس ، ونريد أن نعلم ماحملك على هذا الاتهام ، وأى دليل على صحته لديك ؟ »

فاضطرب عرفجة لعودة الحجاج الى التحقيق فى تهمته ، وخاف عاقبة تملق الحجاج له بذكر الصداقة ولكنه تظاهر بالاستخفاف وجلس يصغى لما سيقوله حسن ، فقال هذا : « أما كونه خائنا لدولة بنى أمية

فأمر لاشك فيه ، وقد رأيته بعيني واقفا بين يدى محمد بن الحنفية فى الشعب ، ومعه الكرسي الذى كان المختار بن أبى عبيد يسميه كرسى على ، ويستغله فى الدعوة الى بيعة ابن الحنفية . وقدسمعته يطلب من محمد امداده بالمال للخروج على بنى أمية فى العراق ، والدعوة الى بيعته لأنه فى زعمه أولى من بنى أمية بهذا الامر »

وكان الحجاج مصغيا لما يسمعه وهو يتفرس فى حسن ويراقب حركاته وسكناته فرجح انه صادق فى دعواه . فقال له : « ثم ماذا ؟ »

قال : « أما ابن الحنفية فاستخف بطلب عرفجة وردعه عن القيام بهذا الامر ، ثم أمر باحراق الكرسى ، فأحرق بين يديه ، وأخرج عرفجة من عنده مهانا ».

ورأى عرفجة ان الحجاج أوشك أن يصدق دعوى حسن ضده ، فلم ير سبيلا الى دفع تلك التهمة الا بالخداع والمغالطة ، فوقف ووجه خطابه الى الحجاج وقال : « اذا كان لكلام هذا الغلام أقل تأثير فى نفس مولاى فليأمر بقتلى حالا ، ولكن هذا الغلام كاذب فى كل ما ادعاه ، وقد اختلق هذه التهمة ليخفف بها ذنبه الذى لم يرتكبه أحد قبله »

فقال حسن : « أما ذنبى فلا أنكره ، وسأبسطه لمولاى ، وله أن يحكم بعد ذلك بما يشاء ، وأما أنت . . »

فقاطعه عرفجة قاصدا أن يشغل الحجاج عن ذنبه هو ، وقال له : « ان ذنبك لايحتمل الانكار لأنه ظاهر للعيان. وأما اتهامك اياى بالمروق من دعوة بنى مروان فاختلاق محض لم نسمع بمثله . وأغرب ما فيه انك لم تستطع اقامة دليل عليه ، ويستحيل ذلك عليك » . قال ذلك وجلس وكأنه فاز على خصمه بالحجة والبرهان

ولكن الحجاج لم يعبأ بذلك فالتفت الى حسن وقال : « لاتصح دعوى بلا بينة ، فما هى بينتك على ما تقول ؟ »

قال : « لقد كان الحديث بينه وبين ابن الحنفية سرا ولم يكن معهما ثالث »

فصاح عرفجة : « أسمعت يامولاى ؟ أرأيت تناقض أقوال المنافق الكذاب ؟. اذا كان ذلك الامر حدث سرا بين اثنين كما قال الآن فما الذى أطلعه على هذا السر ؟ ! . ان جهله أبى الا أن يوقعه فى شر أعماله لأنه لم يحسن سبك أكذوبته »

وشك الحجاج فى صدق حسن فقال له : « لقد صدق عرفجة ، فانك زعمت انك عرفت ما دار بينهما وسردته على انك رأيت وسمعت ، فكيف تقول بعدهذا ان الحديث كان سرا بينهما ولم يكن معهما ثالث؟»

فلما رأى حسن انخداع الحجاج بكلام عرفجة ، تجلد وقال : « نعم

يامولاى كان الكلام بينهما فى فسطاط مقفل ، ولكننى سمعت ورأيت خلسة ! »

فقال عرفجة : « لقد بدا من تناقض أقوالك انك لم تسمع ولم تر ، ولعلك تريد أن تستشهد بشريك لك فى خداعك وكذبك ، ولكنى لاأقبل الا شهادة محمد بن الحنفية نفسه ، فانك اعترفت بأنه وحده الذى سمع حديثى »

فقال الحجاج : « هذا طلب عادل ، ما فى ذلك شك »

وهنا تذكر حسن انه أرسل بلالا الى ابن الحنفية ولايدرى ماذا كان من أمره معه فقال : « ان الامير أدرى منى بما يحول دون الوصول الى مثل هذه الشهادة . لأننا اما أن نستقدم ابن الحنفية الى هنا ، واما أن نذهب اليه أو نستكتبه . . »

فقطع عرفجة كلامه وقال : « لا أقبل الا شهادة ابن الحنفية نفسه »

فقال الحجاج : « ذلك شىء يسير ، وان ابن الحنفية مصدق عندنا وان لم يكن على دعوتنا »

قال ذلك وتحرك عن وسادته كأنه يريد استئناف البحث ، ثم التفت الى حسن وقال : « بقى علينا النظر فى تهمتك ولكنها ليست تهمة نطلب اثباتها وانما نحن نسألك عما دعاك الى هذه القحة ؟ »

□

وكان حسن قد هم باخبار الحجاج انه أرسل من يأتى بشهادة ابن الحنفية ، فلما فاجأه بهذا السؤال ، اضطرب ولكنه تجلد وهم بأن يجيب فاعترضه عرفجة قائلا : « أنا أروى لك الخبر كله يامولاى ، فانه يخجل أن يرويه »

فلم يعد حسن يصبر على نفاق عرفجة فرفع صوته وقال : « لماذا أخجل ؟ . أالخجل لأنى أنقذتك من الموت أنت وأهل بيتك ؟ . أم أخجل لأنك خدعتنى بوعدك ثم نكثت غير مرة ؟ . انى لم أعمل عملا أخجل من ذكره » . ثم وجه كلامه الى الحجاج وروى له باختصار قصته مع عرفجة منذ أنقذه فى العراق . وكان الحجاج مصغيا الى الحديث باهتمام ، فلما بلغ حسن الى سعى عرفجة فى قتله قاطعه هذا قائلا : « لقد سعيت فى قتله يامولاى لأنى رأيت معه كتابا الى عبد الله بن الزبير الذى فر اليه بالامس ، وقد أبلغت أمره الى طارق بن عمرو عامل المدينة فعده جاسوسا ، وأرسل من يقتله . أما انى وعدته بابنتى فان مولانا الامير خطبها بعد ذلك فكيف أرفض شرفا أولانيه الامير ؟ . والعجب كل

العجب انه بعد أن علم بأنها زفت الى الامير مابرح يرجو الحصول عليها . وبلغ من قحته انه جاء الى هــذا المعسكر محاولا اغراءها بالفرار معه . ولكن الله اوقعه فى أيدينا وسجناه ، ففر الى عدونا ليوقع بنا ، ثم اغتنم اشتغال الامير وجنده بالقتال وعاد الى حيث رآه الامير بنفسه خارجا من خباء سمية ، فاذا كان الامير يرى الصبر عليه حلما ، فانى لاصبر لى على مثل هذه الخيانة »

فوقع كلام عرفجة على قلب الحجاج وقوع النار على يابس العشب ، وثارت غيرته فالتفت الى حسن وقال : « هل تنكر أنك تحب سمية ؟»

قال : « كلا »

قال : « وتقول ذلك بين يدى وأنت تعلم انها من نسائى ؟ »

فظل حسن ساكتا ، فقال له الحجاج : « وهل هى تحبك ؟ »

فأدرك حسن انه اذا صرح بحبها له جر عليهــا الموت كما جره على نفســه فأراد الرفق بها فقال : « لا أدرى . . »

فقال عرفجة : « انها لاتحبه ، ولكنها فتــاة ساذجة اســتغل طيبة قلبها ليخدعها . ولاشك فى أنها تفاخر كل نساء المدينــة بما نالته من الحظوة لدى أمير جند عبد الملك وفاتح الحجاز وحامى ذمار بنى أمية »

فاستاء حسن من ذلك التدليس القبيح ولم يسعه الا توبيخ عرفجة فقال له بصوت ملؤه الرزانة والتعقل : « لا أنكر أن سمية نالت أحسن ماتتمناه فتاة بزواجها من مولانا الامير ، ولكنك ياعرفجة لم تزف ابنتك الى الامير الا رغبة فى المال ، ولو مهرك هذا المال زنجى لزففتها اليه ! »

فصــاح عرفجة : « يا للقحــة . أتقول ذلك فى حضرة الامير وتذكر عروسه بين يديه على هذه الصورة ؟ ! » . ثم التفت الى الحجاج وقال : « لقد كفاك يامولاى صبرا وحلما على من لايستحق غير القتل والعذاب الاليم »

فالتفت حسن اليــه وقال : « أتحرض الامير على قتــلى يا عرفجة وانك لأكثر استحقاقا للقصاص ؟. انك ملاق حتفك عاجلا جزاء خيانتك للدولة التى تدعى انك تدافع عنهــا . وأما أنا فاذا قتلت فانى أذهب شهيد الامانة والحب الصحيح ! »

فالتفت عرفجة الى الحجاج وقال : « أسمعت يامولاى ؟ انه ما زال يذكر الحب »

فقال حسن : « وهل الحب عار ؟. نعم انى أحب سمية حبا شديدا ، كما انى أكره أباها كرها شديدا . ولا أبالى أن أصرح بذلك ولا ان أقتل فى سبيله . أما أنت فانك ستقتل لأن شهادة ابن الحنفية آتية عما قليل ،

وهى قاطعة بخيانتك للدولة ولأمير المؤمنين »

وحانت منه التفاتة الى باب الفسطاط ، فرأى بلالا قادما من بعيد وقد علاه الغبار . فخفق قلبه ، والتفت الى الحجاج وقال : « أرجو أن يأذن مولاى فى ادخال هذا القادم ، فهو رسولى الى ابن الحنفية ، وعسى أن يكون قد عاد من عنده بكتاب يثبت صحة دعواى »

فقال الحجاج : « وأى رسول ؟ »

قال : « رسول كنت أنفذته الى ابن الحنفية فى شعب على ليستكتبه شهادة بما دار بينه وبين عرفجة من حديث الكرسى . وهذا الرسول كان معى يوم حريق الكرسى ، فليأمر مولاى بادخاله لنرى ماجاء به »

فنادى الحجاج : « ياغلام » . فدخل أحد غلمانه فقال له : « نرى رجلا قادما برسالة فأدخله علينا »

فعاد الغلام ومعه بلال . وأخرج هذا عقدة من القصب الغليظ سلمها الى الحجاج مختومة ، فقرأ الختم من الخارج فاذا هو ختم ابن الحنفية ، ثم أخرج من العقدة لفافة من الرق فتحها وقرأها وعرفجة جالس وقد بانت البغتة فى وجهه ورقصت لحيته على صدره ، ولكنه عمد الى الأستخفاف والمغالطة فصار ينظر الى الحجاج ويبتسم كأنه واثق بأن الكتاب يتضمن براءته . فلما فرغ الحجاج من قراءة الكتاب التفت الى عرفجة وقال له : « لقد صح الصحيح ولم يبق مجال للمكر والخديعة . وهذا خط محمد بن الحنفية وختمه يثبتان صحة ما أتهمك به هذا الشاب »

فهم عرفجة بأن يتكلم ، ولكن الحجاج انتهره وقال : « لاتتكلم ولا دافع فقد كفانا ماسمعناه من خلطك » . ثم صفق فجاءه الغلام فقال له : « الىَ بالجلاد » . فخرج وعاد برجل عليه قميص من جلد وعلى رأسه عمامة مستطيلة وبيده سيف حاد . فأشار الحجاج بسبابته الى عرفجة وحسن وقال للجلاد : « ائتنى برأسيهما » . فصاح عرفجة : « كيف تأمر بقتلى ولم تتحقق تهمتى ؟. ان هذه الرسالة مزورة » . واخذ فى الصياح حتى سمع صوته كل من فى المعسكر فغضب الحجاج وصاح فى الجلاد : « هات رأس هذا أولا » . وأشار الى عرفجة

فجره الجلاد حتى أركعه فى الفناء ونزع عمامته عن رأسه ، فأخذ يلتفت الى الحجاج وهذا معرض عنه ، ولم يكن الا كلمح البصر حتى طار راسه من بين كتفيه والناس ينظرون

ووقف الجلاد بين يدى الحجاج وسيفه يقطر من دماء عرفجة ، فأشار الحجاج الى حسن وقال للجلاد : « وهذا أيضا »

فأمسك الجلاد بطوق حسن وأراد جره الى الخارج . فقال حسن للحجاج : « أتقتلني بعد أن رأيت صدقي واخلاصي ؟ »

فصاح فيه الحجاج صيحة الغضب وقد احمرت عيناه وتجلى الغدر فيهما وقال : « أتسألني لم أقتلك وأنت مستحق الصلب منذ أيام ؟ . انما صبرت عليك حتى تحققت خيانة ذلك الغادر »

فقال حسن : « اذا لم يكن بد من قتلى فاقتلوني داخل هذه الخيمة وليس على مشهد من الناس »

فقال الحجاج : « أتشترط علينا ؟ » . ثم التفت الى الجلاد وصرخ فيه قائلا : « اقتله يا جلاد والا قتلتك ! »

فعاد الجلاد الى حسن وهم بجذبه ، فقال حسن : « لا تجذبني هكذا فما أنا بخائف من الموت ، رغم انى واثق ببراءتى » . قال ذلك ومشى نحو الباب

وفيما هما يهمان بالخروج ، علا صوت قعقعة وسمع الحاضرون معها قائلا يقول : « البريد . . البريد . . بريد أمير المؤمنين »

وكانت عادة الولاة اذا جاء البريد ألا يمنعوه أو يؤخروه لحظة واحدة فلما سمع الحجاج بوصوله صاح قائلا : « ادخلوه »

ولم يتم كلامه حتى دخل عليه رجل كهل قد أنهكه التعب وتعفرت ثيابه ، فترامى عند قدميه وسلم اليه كتابا مختوما . وكان حسن مشغولا بنفسه عن كل تلك المشاهد ولكن عينه ماكادت تقع على ذلك الكهل حتى بغت اذ عرف انه صديقه أبو سليمان ، وتذكر أنه كان قد ارسله الى خالد بن يزيد فى الشام ليأتى منه بكتاب فى شأن رملة الى ابن الزبير ، فهم باستئذان الحجاج فى كلمة يقولها لذلك الرجل قبل قتله ، ليكلفه ابلاغ خالد رضاء ابن الزبير وأن رملة فى انتظاره لتزف اليه فيكون قد أتم مهمته قبل موته

ورفع حسن وجهه الى الحجاج فرآه تناول الكتاب ونظر الى خاتم الخلافة على ظاهره ، ثم قبله ووقف تعظيما للخلافة . ثم نظر الى الرجل الذى حمله وقال له بعد أن تفرس فيه : « من أين لك هذا الكتاب ؟ . أأنت من عمال البريد ؟ »

فقال أبو سليمان : « لست منهم يامولاى ، ولكنهم حملونى على دواب البريد تعجيلا بابلاغ هذه الرسالة » . قال ذلك وهو يلهث وصوته يتقطع ويتلجلج من التعب والخوف

ففض الحجاج خاتم الكتاب وفتحه ، وجعل يعيد قراءته ويتثاءب ويحك شفتيه بأصبعه ويعبث بشعر لحيته وقد ظهر التأثر فى عينيه . ثم أخذ ينظر الى حسن ويتفرس فيه ثم يعود الى قراءة الكتاب ويتأمل

فى ختمه ويقلبه بين يديه ، كل هذا وأبو سليمان ما زال مستلقيا عند قدميــه وهو يلهث من التعب وينظر الى وجـــه حسن كأنه لم يعرفه وحسن ينظر فى وجهه ، وكلهم سكوت ينتظرون مايبدو من الحجاج بعد تلاوة ذلك الكتاب

وأخيرا ، أشار الحجاج الى الجــلاد بالانصراف فانصرف ، ثم صرف بقية الحاضرين ولم يبق فى الخيمة الا هو وحسن وأبو سليمان. فالتفت الى حسن وقال : « هــذا كتاب من أمير المؤمنين جاءنى بما كنت تبغيه أنت . ووالله لولا حرمة الخليفة لم يكن فى الارض من ينجيك من القتل»

فلما سمع حسن ذلك أبرقت أسرته ولــكنه لم يطمئن تماما لأنه لم يفهم فحوى هذا الكتاب ، فأطرق وظل ساكتا

فنادى الحجاج : «ياغلام» . ولما أقبل غلامه قال له : « ادع الكاتب» . فخرج ثم عاد بالكاتب ، فدفع الحجاج اليه الكتاب وقال : « اتل هــذا علينا » . فتلاه وهذا نصه :

« من أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ، الى الحجاج بن يوسف أمير جندنا فى الحجاز . أما بعد فقد بلغنى انك خطبت ابنة عرفجة المنافق ، وهى مخطوبة لحسن ، فأخذتها وحرمته منهــا . والرجل ينتمى الينــا وتهمنا رعايته ، فاذا أتاك كتابى فاحمل الفتاة الى خطيبها ، وأمهره بما يقوم بالنفقـــة . ووالله لرجوعك عن الحــجاز ولم تفتحه أهون على من ارتكابك هذا الامر مع رجل من صنائعنا وخاصتنا . وثقتى انك فاعل ما أقول والسلام »

فما فرغ الــكاتب من تلاوة الــكتاب حتى رقص قلب حسن طربا ، وخيل اليه انه فى حلم ، فجعل ينظر الى ماحوله ليتحقق انه فى يقظة ، ثم سمع الحجاج يقول له : « لم نتل الكتاب عليك الا لتعلم أننا ماتجاوزنا عنك الا عملا بأمر أمير المؤمنــين » . والتفت الى غلامه وقال : « أعطه الف دينار . وسمية طالق منذ الآن . . فامض الى خباء النساء وأنبئها بذلك ، لتخرج معه من هــذا المعسكر قبل غروب اليوم » . قال ذلك ووقف ، فخرج حسن والغلام ، وكان أبو سليمان قد استراح ووقف مع الواقفين ، فلمــا خرجوا خرج معهم وهو يهم بأن يخاطب حســنا وحسن يهم بأن يخاطبه

وقبل أن يتكامل خروجهم ، رأوا فارسا يسوق جواده نحو فسطاط الحجاج والبغتة ظاهرة فى وجهه فلما وصل ترجل ودخل دون أن يستأذن وقال : « ان مصيبة حلت فى خباء النساء »

فلما سمع حسن الصوت علم أنه صوت عريف الحرس ، وخفق قلبه خشية أن تكون المصيبة حلت بسمية . ثم ما لبث أن سمع العريف يقول : « ان مولاتنا سمية سقطت لا حراك بها كأنها تجرعت

سما أو أصابها الموت بغتة ! »

فاحس حسن كأن جبلا سقط على رأسه ، وكاد يفقد رشده وشغل عما كان فيه من سؤال أبى سليمان عن الطريقة التي حصل بها على ذلك الكتاب ، ثم لم يسعه الا ان يعدو نحو خباء سمية . ولم يكن أبو سليمان أقل بغتة منه ، اذ جاء ذلك الخبر صدمة قوية أطارت صوابه ، فسار فى اثر حسن الى الخباء ، وسار فى أثرهما بلال وغلام الحجاج

وكانت سمية قد سمعت ما دار بين الحجاج وفرسانه أمام خبائها ، كما سمعته وهو يأمرهم بأخذ حسن الى السجن الى الصباح ، وأيقنت أن الحجاج قاتله لا محالة . ولكنها تعللت بالآمال البعيدة وصبرت حتى ترى ما يكون فى الغد ، فقضت ليلتها تفكر فى مصير حسن ، وأصبحت وقد أعدت السم وجلست وراء الخباء ، تستطلع أنباء المحاكمة من الحراس . فلما جاءها أحدهم بمقتل أبيها وأخذ حسن لقتله أظلمت الدنيا فى عينيها ، وكانت أمة الله قد يئست من تخفيف المصيبة عليها ولم تعد تستطيع مخاطبتها فتركتها وشأنها ، وبعد قليل جاءها أحد الحراس بنبأ قتل حسن داخل خيمة الحجاج ، فسارعت الى السم وابتلعته مرة واحدة ثم وقعت مغشيا عليها . فصاحت أمة الله وولولت ، وأخبرت الحراس أن مولاتها تجرعت السم فأسرع أحدهم على جواده بالنبأ الى الحجاج

وظل حسن يعدو نحو الخباء ، وهو لا يكاد يرى طريقه ، ولا يبالى ما يعترضه من الاحجار أو الأوتاد حتى أشرف على الخباء فصاح وهو لا يعى ما يقول : « سمية .. سمية .. أنا حى يا سمية »

ولما وصل الى الخباء أراد الفرسان منعه ، ثم تركوه بعد أن أخبرهم الغلام بأمر الحجاج فأطل من الباب فرأى سمية مستلقية وحولها نسوة يبكين ، وكأنها جثة بلا روح وقد أطبقت عيناها وامتقع لونها وانحل شعرها وابيضت شفتاها فلم يتمالك أن اندفع نحوها وفى يده خنجره فتفرقت النساء عنها ، ثم أخذ يجس يدها ويقول : « حبيبتى .. روحى .. منيتى .. ماذا أصابك ؟. ! تجرعت السم يأسا من حياتى ؟. انى حى يا سمية .. سمية اما أن تحيى مثلى أو أموت مثلك ! »

ولما أيقن بموتها ، هم بأن يطعن نفسه بالخنجر ، ولكنه شعر بيد أمسكت به وسمع صوتا يناديه : « تمهل يا حسن ، ان سمية حية لا بأس عليها » . فالتفت فرأى ليلى الأخيلية وبيدها كوب ماء جاءت لترش سمية به » . فقال لها : « ماذا تقولين ؟. كيف تحيا سمية وقد

تجرعت السم ؟ ! . انه كاف لقتل أشد الرجال ! »
فقالت ليلى : « ان الذى تجرعته ليس سما فلا تخف ! »

فوقف ذاهلا ثم قال لليلى : « لا تعللينى بالأوهام ، ان سمية قد ماتت ولابد لى من أن أموت لأنها ماتت لأجلى »

قال ذلك ورفع يده بالخنجر فصاحت فيه ليلى : « تمهل يا حسن ، ان سمية حية ولم تتجرع السم ولكنها فى غيبوبة »

قالت ذلك وتناولت بعض الماء بيدها ورشتها به فحركت رأسها ثم حركت شفتيها وقالت : « حسن . . . حسن . . . قتلوك قتلهم الله !. انى ذاهبة اليك »

فلما سمع صوتها جثا عند رأسها باكيا وقال لها : « سمية . . أنت حية يا حبيبتى ؟ . . أنظرى الى . . أنا حسن . . . أنا حى يا حبيبتى وقد انقذنى الله . . افتحى عينيك يا سمية »

ففتحت عينيها فلما رأته قالت : « ما هذه الأحلام ؟. حسن ؟ . أين نحن يا حسن ؟ »

فأجابها : « نعم أنا حسن يا سمية »

فجلست وألقت نفسها عليه وأخذت فى البكاء ، فقال لها : « لا تبكى يا سمية اننى فى خير »

فقالت له ليلى : « دعها تبكى لتنفس كربتها وتصحو من سكرتها » فسكت وترك سمية تبكى وتشهق ، ثم رآها ترفع رأسها وتنظر الى وجهه وتصيح : « حسن حبيبى . . هل أنا فى يقظة أم فى منام ؟ »

فأجلسها بجانبه وهو يقول لها : « أنظرى يا سمية ، ها أنذا حى ، وهذه صديقتنا ليلى . ان أسباب تعاستنا قد زالت والحمد لله »

فقطعت كلامه قائلة : « والحجاج ؟ . الحجاج ؟ » . وعادت الى البكاء

فقال لها : « لقد جاء أمر الخليفة بأن يطلقك ، ويردك الى خطيبك ، وسنخرج اليوم من هذا المعسكر » . فحدقت بنظرها فيه كأنها تتحقق ما يقول ، فأقسم لها بحبها أنه ما قال الا الحق

سكن روع سمية بعد أن اطمأنت الى نجاتها ونجاة حسن ، ثم التفتت الى من حولها فرأت أمة الله جاريتها ، وليلى الأخيلية ، وهند زوجة الحجاج ، فقالت : « ان السم تأخر فعله ، أليس كذلك ؟ »

فقالت ليلى : « انك لم تتجرعى الا دقيق الذرة . وأما السم الذى ظننت أنك تجرعته فهو معى » . قالت ذلك وأخرجت من جيبها ورقة فتحتها وفيها السم وقالت : « ألا تذكرين الليلة التى بت فيها عندك ؟.

انني غافلتك وأبدلت بالسم دقيق الذرة ، لأني خفت أن تعجلي بتجرعه دون ما يدعو الى ذلك ، فالحمد لله على نجاتك »

فهمت سمية بليلى وقبلتها وقالت : « جزاك الله خيرا » . وكذلك شكرها حسن ثم قص عليهم ما دار بينه وبين الحجاج حتى أتى على ذكر أبي سليمان وكيف جاء في ابان الضيق فكان السبب في نجاته من الموت ، كما كانت ليلى سببا في نجاة سمية منه . وكان أبو سليمان واقفا خارج الخباء فناداه حسن فدخل وهو يقول : « هل يدخل عبد الله ؟ »

قال حسن : « أي عبد الله ؟ »

قال : « خادمك »

قال : « فليدخل . اني أعده صديقي »

ثم دخل عبد الله وهو يقول : « لا تظن اني تخلفت عن خدمة مولاي ، ولكنني أصبحت بعد اخراجك من السجن موضع غضب عرفجة ، فلم أعد أستطيع الظهور وبقيت متخفيا أتنسم الاخبار . فلما تحققت نجاتك جئت لأكون في خدمتك »

وكانت سمية قد صحت وتحققت أنها فازت بحبيبها وأنها نجت من أبيها فثبتت بصرها في حسن ، وثبت هو بصره فيها ، واكتفيا بتفاهم اللواحظ ، ثم قال لها : « الى أين تودين الذهاب ، وأين نقيم ؟ »
فأجابه أبو سليمان على الفور : « تقيمان عندنا بالمدينة »

فقال حسن : « لقد أذكرتني أمر رملة ، هل أتيت بالكتاب من خالد الى ابن الزبير . وكيف حصلت على هذا الامر من عبد الملك ؟ »

فقص أبو سليمان قصة سعيه في ذلك الامر على يد خالد ثم قال : « وأما ابن الزبير فقدجئته بالكتاب ولكنه وا أسفاه عليه قتل ولا ندري ماتم بأهله »

فقال : « أهله في مأمن بمكة ، وقد صرح لهم قبل موته بقبوله مصاهرة خالد . وبعد عودتنا الى المدينة سأبعث عبد الله الى خالد بالخبر ليبعث من يحمل رملة اليه »

ثم التفت الى ليلى وقال لها : « لن أنسى لك جميلك ماحييت ، ويكفي انك كنت سببا لبقاء سمية كما كان العم أبو سليمان سببا لبقائي »

فقالت ليلى : « لا فضل لي في ذلك وقد فعلته لأني جربت هذا العناء وعرفت شقاء المحبين وجهادهم ، ولا أظن أحدا من هؤلاء أدرك من حالكما ما أدركته » . قالت ذلك وشرقت بريقها

فأدرك حسن أنها تشير الى قصتها مع توبة ، فشكر الله وسكت حتى لايثير عواطفها

ثم وقف أبو سليمان وقال : « كل ذلك بتدبير العزيز الحكيم ، وكل شيء يجرى بقضاء من الله سبحانه وتعالى . هلم بنا الآن نستعد للرحيل »

فلما تحققت سمية قرب سفرها التفتت الى هند بنت النعمان زوجة الحجاج وقالت : « أرجو أن يوفقك الله الى سبيل تنجين به كما نجوت أنا »

فتلألأت الدموع فى عينى هند ولم تجب

□

وفى أصيل ذلك اليوم شدوا الرحال وساروا جميعا قاصدين المدينة ، ماعدا ليلى فانها التمست وجهة أخرى . ولما وصلوا ساروا توا الى بيت عرفجة وقد أصبح بما فيه ارثا شرعيا لسمية . وكذلك كل ماكان يملكه

وفى يوم وصولهم جاء سليمان لاستقبالهم وقد سر بنجاح مهمتهم . واحتفلوا بزفاف سمية الى حسن احتفالا شهدته سكينة بنت الحسين وكثير من سكان المدينة ، وأكثرهم كانوا يكرهون عرفجة ، وغنى ليلتها طويس ، كما غنت عزة الميلاء ، وأجاد أشعب الطماع فى المجون حتى كادت تتمزق خواصر الناس من الضحك . وبعد انتهاء العرس سار عبد الله الى خالد فى دمشق ومعه كتاب من حسن بتفصيل ماحدث فى شأن رملة وقبول عبد الله بن الزبير خطبته لها فجاء خالد وتزوج رملة كما هو مدون فى التاريخ



بعض ما قاله الأدباء فى روايات جرجى زيدان

عمد جرجى زيدان الى التاريخ فاستطلع دخائله واستجلى غوامضه ، ورأى أنه يصعب تعميم فوائده اذا اقتصر نشره على كتب التاريخ ، فصاغ حقائقه فى قالب روائى ، فكان فارس الميدان الذى لا يلحق غباره فى تأليف الروايات

أنطون الجميل

ان من يطالع روايات جرجى زيدان لا يسعه الا أن يعترف بهذه الحيوية الفياضة التى جمعت ما تفرق من مواد التاريخ وصبتها فى قالب قصصى محكم مشرق الديباجة ، يطالعها الأديب فى مكتبه والعالم بين كتبه وأضابيره والطالب فى مدرسته والتاجر فى أوقات فراغه فيثقف عقله وروحه ثقافة تاريخية شاملة

محمد فريد أبو حديد

عضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية
والمدير العام للتعليم الثانوى

ان جرجى زيدان خلق مؤرخا، وقد تعاطى فن القصة لخدمة العروبة والاسلام واستغل مواهبه فى التأليف والكتابة فى استجلاء غوامض التاريخ وابراز الحقائق وصبها فى قالب طلى وسرد مشوق

ورواياته مقروءة فى العراق من الجيل الماضى وكان الاقبال عليها عظيما ، ولكن شباب هذا الجيل فى حاجة الى قراءة تلك الروايات التى أعجب بها آباؤهم

محمد رضا الشبيبى

رئيس المجمع العلمى العراقى
وعضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية

روايات تاريخ الاسلام

مسلسلة حسب العصور التاريخية

١ ــ **فتاة غسان**

تشرح حال الاسلام من ظهوره الى فتوح العراق والشام مع بسط عادات العرب وأخلاقهم فى آخر جاهليتهم وأول اسلامهم

٢ ــ **أرمانوسة المصرية**

فيها تفصيل فتح مصر على يد عمرو بن العاص مع بسط سائر أحوال العرب والاقباط والرومان فى ذلك العصر

٣ ــ **عذراء قريش**

تتضمن تفصيل مقتل الخليفة عثمان بن عفان وخلافة الامام على وما نجم عن ذلك من الفتنة وواقعتى الجمل وصفين

٤ ــ **١٧ رمضان**

تفصل مقتل الامام على وبسط حال الخوارج وقيام الفتنة واستئثار بنى أمية بالخلافة وخروجها من أهل البيت

٥ ــ **غادة كربلاء**

تتضمن ولاية يزيد بن معاوية وما جرى فيها من مقتل الامام الحسين وأهل بيته فى كربلاء ، ووقعة الحرة وغيرها

٦ ــ **الحجاج بن يوسف**

تتناول حصار مكة على عهد عبد الله بن الزبير الى فتحها وخلوص الخلافة لعبد الملك بن مروان ، مع وصف مكة والمدينة

٧ ــ **فتح الاندلس**

تتضمن تاريخ اسبانيا قبيل الفتح الاسلامى ووصف أحوالها وفتحها على يد طارق بن زياد ومقتل رودريك ملك القوط

٨ ــ **شارل وعبد الرحمن**

تشرح فتوح العرب فى بلاد فرنسا وما كان من تكاتف الافرنج بقيادة شارل مارتل وأسباب فشل العرب فى أوربا

٩ ـ أبو مسلم الخراسانى

تشتمل على سقوط الدولة الاموية وقيام الدولة العباسية الى مقتل أبى مسلم . ويتخلل ذلك وصف عادات الخراسانيين

١٠ ـ العباسة أخت الرشيد

تشتمل على نكبة البرامكة وما يتخلل ذلك من وصف مجالس الخلفاء وملابسهم ومواكبهم ، وحضارة الدولة فى عصر الرشيد

١١ ـ الامين والمـأمون

تفصل الخلاف بين الامين والمأمون ، وقيام الفرس لنصرة المأمون حتى فتحوا بغداد ، ودخائل السياسة بين العرب والفرس

١٢ ـ عروس فرغانة

تحوى وصف الدولة العباسية فىعصرالمعتصم بالله وقيام الفرس لارجاع دولتهم ونهوض الروم لاكتساح المملكة الاسلامية

١٣ ـ أحمد بن طولون

فيها وصف جامع لمصر وبلاد النوبة وعلاقاتهما السياسية فى أواسط القرن الثالث للهجرة على زمن أحمد بن طولون

١٤ ـ عبد الرحمن الناصر

تشتمل على وصف بلاد الاندلس وحضارتها فى زمن الخليفة عبد الرحمن الناصر الاموى وخروج ابنه عبد الله عليه

١٥ ـ فتاة القيروان

تتضمن ظهور دولة العبيديين أو الفاطميين فى أفريقية ومناقب المعزلدين الله وقائده جوهر، وانتزاعه مصرمنالدولة الاخشيدية

١٦ ـ صلاح الدين ومكايد الحشاشين

تتضمن انتقال مصر من الفاطميين الى الايوبيينعلى يد السلطان صلاح الدين ، مع وصف طائفة الاسماعيلية

١٧ ـ شجرة الدر

تتضمن مبايعة شجرة الدر ، وسيرة الامير ركن الدين بيبرس وحالة الخلافة العباسية وقتئذ وانتقالها من بغداد الى مصر

١٨ ـ الانقلاب العثمانى

تشرح أحوال الاحرار العثمانيين وما قاسوه فى طلب الدستور . ووصف يلدز وقصورها وحدائقها وعبد الحميد وجواسيسه

روايات لجرجى زيدان

خارجة عن سلسلة تاريخ الاسلام

لجرجى زيدان أربع روايات أخرى خارجة عن سلسلة تاريخ الاسلام المنشورة فى الصفحتين السابقتين ، وهى :

١ ـ استبداد المماليك

تتضمن حوادث مصر والشام فى اواخر القرن الثامن عشر مع بسط عادات الأمراء والمماليك وأخلاقهم ونوع حكومتهم

٢ ـ المملوك الشارد

تشمل وصف حوادث مصر وسورية وأحوالهما فى النصف الأول من القرن التاسع عشر . ومن ابطالها محمد على باشا الكبير ، وابراهيم باشا ، والأمير بشير الشهابى ، وأمين بك

٣ ـ اسير المتمهدى

تتناول حوادث المهدوية من أول ظهور المهدى فى السودان الى سقوط الخرطوم . وحوادث الثورة العرابية من أول نشأة عرابى الى الاحتلال الانجليزى

٤ ـ جهاد المحبين

هى رواية ادبية غرامية تبين ما يقاسيه المحبون فى سبيل الحب

الرواية التالية

شارل وعبد الرحمن

تصدر فى ١٥ سبتمبر القادم

فصل من رواية :

شارل وعبد الرحمن

رواية ١٥ سبتمبر القادم

ننشر فى الصفحات التاليـة فصـلا من رواية «شارل وعبد الرحمن» التى تتضمن فتوح العرب فى بلاد فرنسا وتحالف الافرنج بقيادة «شارل مارتل» لصد الفاتحين العرب

لقاء الحبيبين

كان هانىء قد جاء الخباء مبكرا لشدة شوقه الى لقاء مريم ، فلما بلغ غرفة القهرمانة استقبلته واستمهلتــه ريثما تنصرف أمها . فلما تهيأت هذه للخروج نهضت فودعتها ، ثم عادت بعد أن سـارت ومعها حسـان ، فسرها انها لم تجد ميمونة فى الخبـاء ، حتى لاتطلع على سر المقابلة بين هانىء ومريم . فاصطحبت مريم الى غرفتها ، وسارت هذه معها وهى تفكر فى هانىء وبعده عنها ، فلما دخلت الغرفة ورأته هناك بغتت ، وصعد الدم الى وجنتيها وغلب عليها الحياء ، فأرسلت خمارها على عينيها وأطرقت وقد صبغ الحيـاء وجهها ، فزادها ذلك جمـالا فى عينى هانىء . وكان جالســا ينتظر فى الغرفة على مثـل الجمر ، وقد حسب الساعة التى قضاها فى الانتظار عاما طويلا ، فلما سمع خشخشة الخلاخل والدماليج وراء جدار الغرفة علم ان القهرمانة قادمة ، ثم مالبث أن رآها داخلة ومريم فى أثرها فهاجت لواعج هيامه ، ونهض لاستقبالها. وسمع القهرمانة تقول متظاهرة بأن وجوده هناك كان اتفاقا : « ما الذى جاء بك فى هذا الصباح أيها الامير ؟ »

قال : « جئت لأرى وجهك ياخالة ! »

فضحكت القهرمانة وقالت : « لا أظن ان وجهى تعجبك تجعداته ؟ وكأنى توقعت قدومك فأتيت اليك بهذا الوجه الجميل فهل تعرفه ؟ » . قالت ذلك وهى تشير الى مريم ، فابتسم هانىء وقد غلب عليه الغرام وقال : « لقد عرفته وكلفت به ، فهل تراه يعرفنى ؟ »

وكانت مريم مطرقة فلما سمعت كلامه نظرت اليه بعينين قد أذبلهما الغرام وتلألأ فيهما ماء الحب ، نظرة تغني عن خطاب ، فلم يتمالك هانيء عند ذلك أن قال : « فهمت الجواب ! »

فضحكت القهرمانة وأمسكت بيد مريم وأجلستها ، وقالت وهي تحاول الجلوس : « ما أسرع ما فهمت جوابها وهي لم تتكلم ! »

فجلس هانيء ملتفا بعباءته ، وأصلح عمامته وقال : « لقد دلني قلبي ياخالة ، ومن القلب الى القلب دليل ! »

ثم التفت الى مريم وقال : « لا تخافي يامريم ، اني لم آت لأزعجك وانما جئت لأتحقق ماحدثتني نفسي به ، حتى اذا صدق ظني وخدمني سعدي ، وقفت نفسي على خدمتك ، وجعلتك من أسعد الناس ! »

فتنهدت مريم تسكينا لما جاش في صدرها من الخفقان مما لم تعهده من قبل ، وهمت بالكلام ولكن منعها الحياء ، وهي التي كانت لاتبالي اذا لقيت الرجال في حومة الوغى ، فكيف تلعثم لسانها بين يدي رجل يتمنى رضاها ، ويتوقع كلمة من فيها ليتغنى بها ويجعلها تعويذة في عنقه ؟ ولكنه الحب ، يذل الاسود ويلعثم ألسنة الفصحاء

وأدرك هانيء من تحريكها شفتيها دون أن تتكلم انها تكتم امرا تود التصريح به لولا الحياء ، فتوجه بكليته اليها وقال وقد أخذ الهيام منه مأخذا عظيما : « قولي يامريم ، لاتخافي ولاتكتمي ، فان خالتي القهرمانة لايستحي منها ، فهي خزانة أسرارنا ، قولي : « هل تحبينني ؟ »

فالتفتت اليه وتجلدت وقالت : « وما الفائدة من الحب اذا لم يكن متبادلا ؟ وانتم معشر الامراء قد تعودتم اقتناء النساء بالعشرات ، والحب لايكون صحيحا الا اذا كان بين اثنين ليس معهما ثالث ؟ »

فبغت هانيء لهذا التعريض وهو لايرى له محلا وقال : « لست من هؤلاء يامريم . وهذه الخالة تعلم اني بلغت هذه السن ولم أتخذ امرأة ولا اقتنيت جارية ولا سرية . أسأليها تنبئك فانها مطلعة على احوال جميع الامراء في هذا الجند ، فان لكل واحد منهم خباء لنسائه وجواريه ، وأما أنا فلا خباء لي ، ولا أحببت امرأة ولا فتاة ، ولم يكن يخطر ذلك ببالي قبل ان رأيتك صباح الامس فعزمت على أن تكوني نصيبي في هذه الدنيا ، وتأكيدا لذلك فاني أعاهدك من هذه الساعة اني لا التفت الى سواك . فهل تعاهدينني أنت أيضا ؟ ! »

فأبرقت أسرة مريم وأشرق وجهها وتجلت في عينيها وحول فمها ابتسامة طار عقل هانيء لها ، وخفق قلبه سرورا وقال ولم ينتظر جوابها : « ولكن لي شرطا اشرطه عليك وعلى نفسي ، اني لا اتم شيئا قبل الفراغ من هذه الحرب ، فاذا عدنا منها فائزين ـ ونحن فائزون باذن

الله ـــ كان ما نتمناه . فهل تعاهدينني على ذلك ؟ »

فقالت وهى مطرقة حياء : « ذلك شرطى انا أيضا لأنى اذا فزت بك عند ذلك أكون قد نلت السعادتين »

فقال : « فلنتعاقد اذن على هذا الشرط » . ومد يده اليها ونظر الى يدها ولسان حاله يقول : « مدى يدك » . فمدتها اليه ببطء وهى ترتجف من شدة التأثر فأمسكها بيده وضغط عليها فأحسا كأنهما لمسا تيارا كهربائيا ارتعدت له فرائصهما !. ثم نهض هانىء وهو يقول : « لابد لى من الذهاب الساعة الى المعسكر لنتأهب للقاء العدو ، وأعدك انى سأجاهد جهاد الابطال لعلمى ان ذلك يسرك ، فادعى لى بالنصر »

ثم مد يده الى كمه وأخرج قارورة تفوح منها رائحة طيب قوية ، وقدمها لمريم وهو يقول : « وهذه قارورة من طيب خاص ليس مثلها عند أحد فى هذا الخباء ، تطيبى بها وحدك حتى اذا أتيت لزيارتك تنسمت ريحك قبل وصولى اليك فأستدل على وجودك قبل أن أراك، وأنت أيضا كلما شممت رائحة هذا الطيب تتذكرين قتيل هواك » . قال ذلك وعيناه تتلألآن من شدة الهيام ، فمدت يدها وتناولت القارورة وهى تبتسم ، ثم تذكرت فراقه لها فى تلك الساعة فانقبضت نفسها ، فالتفتت نحو السماء وترقرقت العبرات فى عينيها

وكانت القهرمانة فى أثناء الحديث قد استغرقت فى النوم وهى جالسة ، لا يهمها من هذا الاجتماع الا ما نالته من التحف وما ترجوه من الهدايا المتواصلة . وبينما هى غارقة فى أحلامها علت الضوضاء خارج الخباء فانتبهت فسمعت قرقعة اللجم ودبدبة الخيل فبغتت وبغت هانىء ومريم . وقبل أن تنهض القهرمانة سمعت أحد الغلمان يصيح فى الخارج : « أين السيدة القهرمانة ؟ ! »

فنهضت القهرمانة وصاحت : «من ينادينى؟» . وخرجت فاستقبلها أحد الغلمان وهو يقول : « ان الامير عبد الرحمن يدعوك اليه »

فقالت وقد علتها الدهشة : « وأين هو ؟ » . وهرولت نحو القاعة فقال الغلام : « انه ينتظرك فى القاعة » . فعادت الى هانىء وقالت : « اسرع يامولاى الى جوادك وامض قبل أن يراك الامير هنا فربما رابه أمرك »

فأكبر هانىء ان يخرج خروج الهارب فتجلد وقال : « اذهبى أنت اليه ولا تخافى فانى ذاهب على مهل »

أرادت القهرمانة أن ترسل مريم من باب آخر يؤدى الى غرفتها ، وتسير هى توا الى القاعة لملاقاة الأمير عبد الرحمن ، وكان هانىء قد اجتاز الباب الخارجى رابط الجأش حتى وصل الى أدهمه وهم بأن

يركبه فلقى بجانب الجواد رجلا من ملازمى الأمير عبد الرحمن وقد أمسك بشكيمته . فلما دنا هانىء منه قال له : « ان الأمير يطلب أن توافيه الى خيمته فى المعسكر ، فانه خرج وسيعود اليها على عجل »

فقال : « ومن أنبأه أنى هنا ؟ »

قال : « عرف ذلك من جوادك »

أما القهرمانة فلم تكد تخرج من حجرتها ومريم معها حتى لقيهما عبد الرحمن ، وكان وجه مريم قد ازداد بتلك البغتة احمرارا ، وتجلت دلائل الحب فى عينيها مع ما يغشاهما من الدمع ، فلما رأت الأمير عبد الرحمن استرجعت جأشها ووقفت للسلام عليه

أما هو فحالما رآها تذكر أمها فبادرها بالخطاب دون أن يلتفت الى القهرمانة وقال : « مريم ؟ ! أين أمك ؛ هل سافرت ؟ »

قالت : « نعم يا مولاى سافرت فى الصباح » . قالت ذلك بلثغتها المعلومة ، ولم يكن عبد الرحمن قد سمعها تتكلم بعد فأعجبته تلك اللثغة ، وكان لفرط ذكائه وصدق فراسته قد رأى على وجهها آثار البغتة ، وتذكر انه رأى جواد هانىء بباب القهرمانة من الخارج ، فأدرك ان هانئا كان هناك معها . فتظاهر بعدم المبالاة بهذا الامر ، وتأكيدا لعدم مبالاته خاطب القهرمانة ببرود وسذاجة قائلا : « هل رجع الأمير هانىء ؟ »

فلما سمعت القهرمانة سؤاله لم تدر بماذا تجيبه ، وكاد يرتج عليها لو لم يتدارك هو الامر بقوله : « لا بأس من ذهابه فانى سأراه بعد رجوعى » . ثم مشى نحو مريم وهو يخاطب القهرمانة قائلا : « قد أوصيتك يا خالة باكرام هذه الضيفة ، وأعيد توصيتك الآن بأن تبالغى فى رعايتها وأكرامها ولاتمنعى عنها شيئا ، ولاتدعيها تستوحش فى هذا الخباء فانها أعز نسائه عندى »

فانبسطت نفس القهرمانة لذلك واطمأن بالها ، وتبادر الى ذهنها أن عبد الرحمن غافل عما حدث من لقاء هانىء ومريم وقالت : « انى فاعلة ما يأمر به مولاى ، والحق أن مريم لا يراها أحد الا أحبها وأكرمها »

فقطع عبد الرحمن كلامها وهو يقول : « أين ميمونة ؟ . هل هى فى غرفتها ؟ »

قالت : « أظنها هناك » . ومشت لتبحث عنها

فقال لها عبد الرحمن : « امكثى هنا مع مريم أو امضى بها الى حيث تشائين ، وسأذهب أنا الى ميمونة فانى أعرف مكانها »

وكانت ميمونة قد رأت الأمير عبد الرحمن عند وصوله الى هناك ، وعلمت بأنه رأى جواد هانىء ورأته يخاطب بعض غلمانه ويشير الى ذلك الجواد ، فدخلت وجعلت تتنسم ما عساه أن يكون من أمره بعد أن يرى القهرمانة ومريم ومعهماهانىء ، فشعرت بأنه لقيهما خارجتين من تلك الحجرة ، وسمعت ما دار بينه وبينهما فظنته لم يلحظ اجتماعهما فعزمت على التصريح بذلك له

أما عبد الرحمن فمشى يلتمس حجرة ميمونة والخدم يتناثرون بين يديه تهيبا أو يقفون له وقارا ، حتى اقترب من باب الحجرة ، فتظاهرت ميمونة بأنها قلقت لابطائه فى الوصول اليها ، فأسرعت الى الباب وعلى وجهها أمارات القلق . فلما أقبل حيته ، وعيناها تنظران اليه نظر الحب والهيام ، مع انها غير عاشقة ولكنها كانت تجيد الخداع فبدت بلمعان عينيها مع ما تتكلفه من الابتسام والاطراق وكأنها متفانية فى حبه . أما عبد الرحمن فكان يستلطفها كثيرا ويحب قربها ، ولكنه كان ينظر اليها نظره الى بعض جواريه ، وكان من الجهة الاخرى قد عاهد نفسه على ألا يقرب النساء حتى يفرغ من تلك الحرب ويقطع نهر لوار ، فضلا عن اشتغال خاطره بمهام الفتح عن مجالسة النساء ، ولذلك قلما كان يأتى الى الخباء ، واذا أتاه أظهر لميمونةعطفا خاصا لغرض فى نفسه لم يكاشف به أحدا . وقد تكون هى أدركت غرضه وتجاهلته متظاهرة بأنها تفعل ما يريده عفوا بلا قصد ، فى حين انه لو عرف قصدها لما كان جزاؤها عنده أقل من الاعدام !

□

وكان عبد الرحمن يعتقد مثل أهل الخباء أن ميمونة كانت من خاصة وصيفات « لمباجة» ابنة الدوق « أودو» . ولذلك أبقاها عنده للانتفاع بها فى الاتصال بالدوق أو بعض قواده ، ولكنه كتم هذا الامر فى نفسه ولم يظهره حتى ولا لهانىء ، فلما بعثت اليه فى ذلك الصباح أسرع اليها متوقعا أن يسمع منها خبرا من هذا القبيل ، فلما رأى وقفتها على تلك الصورة خيل اليه أنها تعشقه وتتفانى فى خدمته ، فسره ذلك ، لأنه يسهل استخدامها فى غرضه ، فابتسم لها ودخل حتى جلس على وسادة هناك وقال : « ما الذى تريدينه منى يا ميمونة ؟ »

فقالت وهى تحاول الجلوس بتأدب : « أريد امورا كثيرة يا مولاى لا أدرى بأيها أبدأ » . قالت ذلك وتنهدت ، ورأى هو دمعتين تتساقطان على خديها وهى مطرقة ، تتظاهر بأنها استحيت من

افتضاح حبها له ، فانخدع بذلك ، ولكنه أجابها على الفور قائلا : «أنت تعلمين ما عاهدت ربى عليه منذ عزمت على هذه الحرب »

فأسرعت فى الجواب كأنها تستدرك اصلاح ما تبادرالى ذهنه وقالت : « لا يتوهم مولاى أنى اطمع فى غير رؤية هذا الوجه الصبوح . ولعلى مخطئة فى التطاول الى ما لا أستحقه ، فان فى خبــاء مولاى الأمير عشرات من أمثالى وما فيهن من تجرؤ على هذه الكلمة . أما أنا فلا أدرى ما الذى جرأنى عليها . فهــل دلنى قلبى على الصواب ، أو خدعنى ؟ لا أدرى . وفى كل حال يكفينى أن يكون الأمير عالما بما له فى قلبى من الحب الشديد ، وليس لى أن أكلفه مثله أو مثل بعضه ، لأن الحب لايكون قهرا » . ثم غصت بريقها وسكتت !

وكان عبد الرحمن يعتقد أن ميمونة تحبه ولكنه لم يسمع منها مثل ذلك من قبل ، فتبادر الى ذهنه أنها اندفعت الى العتاب غيرة من مريم ، والغيرة تفعل العجائب ، فأراد أن يتحقق هذا الامر فقال : « هل رأيت الضيفة الجديدة ؟ »

فسرت ميمونة لابتداء عبــد الرحمن بذكرها وقالت على الفور : « كيف لم أرها وقد وقفت نفسى على خدمتها منذ وصولها لعلمى أن ذلك يرضى الامير ولم أفارقها الا ساعة فى هذا الصباح لاشتغالها فى غرفة القهرمانة مع الأمير هانىء ! » . قالت ذلك وهى تتظاهر بأنها تقوله بسذاجة وسلامة ضمير واصغت بكل جوارحها لما عساه أن يبدو من عبد الرحمن بعد سماعه ذلك الخبر

أما هو فأحس بشىء من الغيرة ، وتذكر أن أم مريم انما ادخرتها له ، وفكر فى اختلاء هانىء بمريم على تلك الصورة فلم ير له سببا غير الحب المتبادل بينهما ، فحدثته نفسه لأول وهلة بأن يمنع هانئا من ذلك ، ولكن حبه اياه ورغبته فى حفظ الوفاق معه الى نهاية الحرب — كما شرطا على نفسيــهما — غلبــا على ذلك الشعور ، فرأى الانتظــار حتى تنتهى الحرب ، فاذا خرجا منهــا فائزين ، وكان هانىء عنــد ما شرطه على نفسه من البسالة ساعده فى نيلها ، وعلى هذا تجلد وأجاب ميمونة مظهرا عدم المبالاة فقال : « ولــكن هانئا خرج الآن من عندها ، وقد لقيتها مع القهرمانة ، وسرنى ارتياحها هنا ، فأرجو أن تساعدينى فى تحقيقه »

فاستغربت ميمونة ما سمعته منه ، وأسفت على فشل مكيدتها وذهاب سعيها هباء منثورا ولكنها أرادت تحقق الامر فبالغت فى فى التجاهل واظهار السذاجة وقالت : « ليثق مولاى بأنى فاعلة ما يريد ، ولا شك أن هذه الفتاة من نوادر الخلق جمالا وتعقلا ورزانة ،

وهى خفيفة على القلب لا يستطيع جليسها الا أن يحبها فاذا كنت لا أكرمها اكراما لمولاى الامير فانى أفعل ذلك حبا لها . ولا عجب اذا أحبها الامير أكثر من سائر نسائه لانها أهل لذلك »

فخاف عبد الرحمن اذا طال الحديث أن يبدو منه مالا يريد التصريح به فابتدرها قائلا : « لقد خرج بنا الحديث عن الموضوع . ما الذى دعوتنى لأجله الآن ؟ »

فأظهرت الاهتمام وقالت : « دعوتك لأمر مهم كان يجب أن أبدأ بالكلام فيه ، وربما كان فيه وحده ما يغنينى عن الادلة على اخلاصى فى خدمة مولاى . اما هذا الامر ، فهو أنى علمت من بعض العيون الذين كلفتهم استطلاع أحوال العدو بعد سقوط بوردو ، أن الكونت أودو ورجاله متربصون لكم فى مضيق (دردون) على مقربة من هذا المكان ، فى طريقكم الى نهر لوار »

ولم يكن عبد الرحمن يجهل هذا الخبر ، لأن جواسيسه كانوا منبثين فى كل الانحاء وأكثرهم من أهل البلاد الاصليين ولاسيما اليهود الذين كانوا يساعدون المسلمين انتقاما من المسيحيين وطمعا فى الغنائم . وكانت ميمونة لا تجهل اطلاعه على هذا ، ولكنها تجاهلت لتظهر أنها اطلعت على السر بسعيها الخاص ، وتبريرا لاستقدامها عبد الرحمن لتطلعه على حب هانىء لمريم ايقاعا للفتنة بينهما . ولو أنها علمت انه يجهل نبأ ترصد الاعداء له فى ذلك الموضع لبالغت فى كتمانه

فسايرها عبد الرحمن مظهرا الفرح بذلك الخبر وقال : « بورك فيك يا ميمونة وأرجو الا تغفلى عن مثل ذلك »

وساءها ان حيلتها لم تنجح ، فرأت أن تحول سهام مكيدتها الى هانىء ، لأنه شاب لايصبر على الكظم . وكل غرضها ايقاع الفتنة بين ذينك القائدين ، ليفشل حقدهما . فلما سمعت ثناء عبد الرحمن على سعيها فى خدمته ابتسمت ونظرت اليه نظرة العتب والدلال والاستعطاف ولولا رزانة عبد الرحمن وقوة ارادته لخرقت تلك النظرة صدره ونفذت الى قلبه ، فهاجت فيه لواعج الغرام وأنسته أمر الجند والقتال

☐

أدرك عبد الرحمن من نظرة ميمونة اليه أنها تعاتبه على وقوفه عند حد الثناء عليها ، فسره افتتانها به رغبة فى استخدامها فيما ينفع الجيش ، فابتسم لها ليزيدها بذلك تفانيا فى خدمته ، ثم نهض وهم بالخروج فنهضت ميمونة وهى تقول : « لولا علمى بالمهام الكثيرة التى

تنتظر مولاى الامير لتوسلت ، اليك أن تبقى هنيهة أخرى . فهل أنت عازم على الذهاب لملاقاة العدو قريبا ؟ واذا ذهبت فهل تتركنى هنا ؟ »

وأدرك أنها تقول ذلك تدللا ، فابتسم مرة أخرى وخرج مسرعا يلتمس جواده ليرجع الى المعسكر ، فمشت ميمونة فى أثره حتى اذا أوشك على الوصول الى باب الخباء سمعته يقول : « مرحبا بالامير هانىء ، ألا تزال هنا ؟ لماذا لم تدخل الى الخباء ؟ » . فازدادت ميمونة استغرابا من ذلك الترحاب ، بينما تقدم هانىء وهو يلتف بعباءته وليس فى وجهه وجل ولا خجل وقد أكبر أن يرجع الى المعسكر رجوع الهارب بعد أن علم عبد الرحمن بوجوده هناك . فلما أوعز اليه غلام عبد الرحمن بالذهاب الى المعسكر وقف ورجله فى الركاب لا يتكلم ولا ينتقل ؛ وخيل اليه أن مريم تنظر اليه وتراقب حركاته ، فلبث حينا واقفا ثم تحول عن الجواد بغتة ومشى الى باب الخباء ليلقى عبد الرحمن، فلما علم أنه فى خلوة لا يراه فيها أحد ، انتظر خروجه أمام الخباء

أما مريم فلما تركها عبد الرحمن مع القهرمانة عادت الى التفكير فى هانىء وخروجه على تلك الحالة ، فأرادت أن تستطلع أمره فتحولت الى جدار الخباء ونظرت من شق فيه فرأته يتمشى خارجه وعباءته وسيفه يجران وراءه وهو يلاعب شاربيه ولحيته ، فاختلج قلبها فى صدرها سرورا وودت لو تخاطبه ، ولكنها خافت من القهرمانة فاكتفت بالنظر اليه وتأمل حركاته . وبعد قليل سمعت ضجة فى الخباء فعلمت أن عبد الرحمن خارج فأحبت أن تعلم ما يكون من أمره اذا لقى هانئا ، فتحولت بحيث تراهما ولا يراها أحد ، لاشتغال القهرمانة وسائر أهل الخباء بوداع الامير ، فرأت هانئا قد مشى الى عبد الرحمن حتى التقيا ، وسمعت عبد الرحمن يخاطبه مخاطبة الأخ ويعاتبه على تخلفه ولكنه فى الوقت نفسه يرحب به ، بينما هانىء يدل عليه دلال الابن على أبيه ، ويقول له : « بلغنى أنك سألت عنى »

فأجابه عبد الرحمن وهو يقترب منه حتى وضع يده على كتفه : « وهل يسأل المرء الا عن أخيه أو حبيبه ؟ » . قال ذلك وابتسم وأهل الخباء يسمعون ، وأكثرهم سرورا بذلك مريم ، وأشدهم غيظا ميمونة . ثم مشى عبد الرحمن ويده فى يد هانىء حتى ركبا الى المعسكر وحولهما الخدم والأعوان

وظلت ميمونة ومريم تنظران الى ذلك الركب وكل منهما فى ناحية وقلبها فى ناحية ، ثم عادت ميمونة الى خلوتها وأعملت فكرتها فى مكيدة أخرى ، وقد أسفت أسفا لامزيد عليه لفشل مكيدتها الاولى !

رسالة دار الهلال

لدار الهلال غاية تسعى إليها ، كما أن لها خطة مرسومة تسير عليها . فأما الغاية فالمساهمة فى رفع المستوى الثقافى فى مصر والأقطار العربية، وأما الخطة فالتوفيق بين قديمنا وحديثنا والجمع بين محاسن الشرق ومحاسن الغرب : فلا جمود ولا طفرة بل هو تمشٍ وئيد فى سبيل الرقى الوطيد

ودار الهلال تؤدى واجبها بهدوء وعزيمة معاً ، مطمئنة الى ما قد أنتجت ، متطلعة الى اتقان ما تنتج — لا تداهن فريقاً ولا تتملق كبيراً — ولا تتساهل قيد شعرة فيما تعتمده حقاً وصواباً

ودار الهلال تؤمن ببقاء العمل الصالح ، واخفاق ما عداه . وهى لذلك لا تحفل بالسفاسف والصغائر، بل ترحب بكل فكرة نزيهة وتعضد كل جهد شريف

وشعارها على الدوام الى الأمام !

اشترك فى روايات الهلال

تضمن وصول الأعداد كل شهر بانتظام

(أسعار الاشتراك على الصفحة الثانية من الغلاف)

وكلاء روايات الهلال

بيروت ولبنان : السيد خليل طعمه ــ شارع المعرض . بناية وقف الروم الارثوذكس ــ ص.ب ٥٤٣ بيروت

حلب : الشيخ طاهر النعسانى

حماه : السيد سعيد نجار

اللاذقية : السيد نخله سكاف

حمص : السيد عبد السلام السباعى ــ ص . ب ٤٩

مكة المكرمة : السيد هاشم بن السيد على نحاس ــ ص.ب ٩٧

بغداد والعراق: السيد محمد جواد حيدر ــ مكتبة المعارف ــ بسوق السراى

المنامه . البحرين: السيد مؤيد أحمد المؤيد . صاحب مكتبة المؤيد

البرازيل : Snr. Rachid S. Cury, Caixa Postal 1812 Sao Paulo — Brasil.

كولومبيا : Snr. Oscar S. David, Apartado Nacional 174 Cartagena — Colombia.

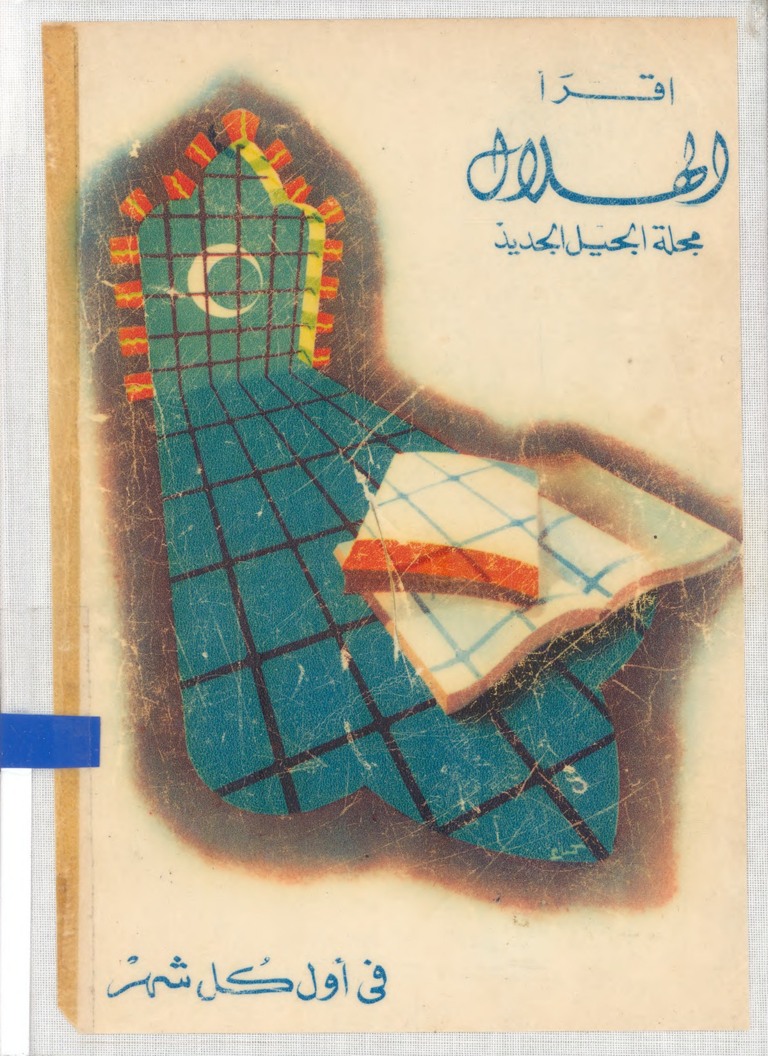
الارجنتين : Snr. Nicolas Yunes, Acha 2651 Buenos Ayres — Argentina.

ساحل الذهب : The Queensway Stores, P.O. Box 400, Accra, Gold Coast, B.W.A.

نيجريا : Mr. M.S. Mansour, 110, Victoria Street, P.O. Box 652, Lagos, Nigeria, W.C.A

متعهد توزيع روايات الهلال للباعة والمكتبات فى العراق

السيد محمود حلمى



اقرأ
الهلال
مجلة الجيل الجديد
فى أول كل شهر